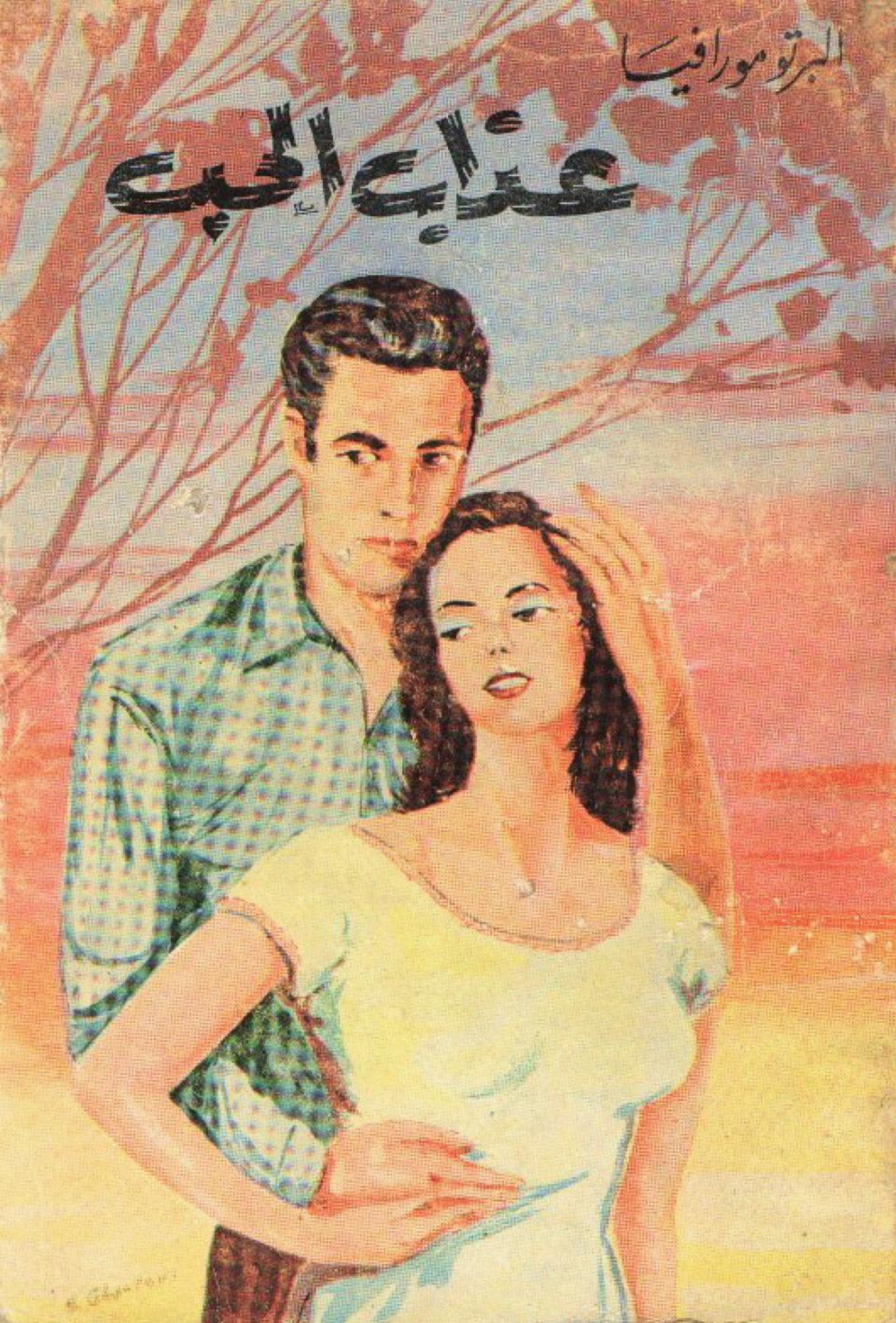


البرتو مورافيا
عذاب الحب



عذاب الحب

البرتو مورافيا



ترجم بإشراف

بطرس صبّاغ

مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني

اللعازارية - بيروت

مقدمة

لا خلاف في أن الكون على رحبه ، والطبيعة على شمولها واتساعها هي ميدان الكاتب وحلبة القلم يجول فيها من أكبر الشموس والمجرات إلى أصغر الأشياء وأدقها ... لكن أخص ما يخص صاحب القلم هو عالم الانسان الذي لا ينفك يتغلغل في أعماقه باحثاً مدققاً ، ومحللاً ناقداً ...

ومن أئمة هذا العصر وأعلامه ، والذي هو أحـد سماته الرئيسية الكاتب العالمي ألبيرتو مورافيا ، الذي ما تكاد تدفع مطابع روما أثراً من آثاره حتى تتلقفه دور النشر في الشرق والغرب ترجمة واقتباساً ، ودرساً وتمحيصاً ..

وهـا هو يقدم لنا في هذه الصفحات قصة أسرة ، يعمل قيمها في حقل الادب والفكر ، ولا سيا الرواية ..

لكنه ، وقـد غرق في بحران حبه الزوجي نسي قصة الادب ، لأنه استغرق سائر طاقاته النفسية والجسمية فيأصغر زاوية من زوايا جسم امرأته .. حتى اذا ما أراد أن يخلد ذلك الحب برواية تقص تلك الحياة الزوجية ، وتحللأبعادها ، لم يجد ندحة عن « الصوم » الجسدي والانصراف الى إعمـال

فكره ووصل آناء الليل بأطراف النهار مكباً على قراطيسه يحبر الصفحة اثر الصفحة ، وكل نقطة حبر يبض فيها وجه صفحة من تلك الصفحات خلجة قلب ، ونبض عاطفة .. والمرأة تدفعه أبداً على الإستمرار في عمله هذا ... آيلة على نفسها ألا تريه طرفاً من محاسن جسمها إلا بعد أن يأتي على آخر كلمة من رواية حبها ..

ولكن الذي لم يحسب له حسابه أن المرأة رغبة إلىزوجها أن يطرد حلاقه الدميم الجلف الذي أساء التصرف معها بعد أن طلبت منه مرة أن يصفف لها شعرها هو ، لكن الرجل امتنع عن ذلك منتحلا شتى الأعذار لإمرأته ، عاملا جهده لتبرير ساحة الحلاق ..

لكن الأيام أبت إلا أن تفجع الكاتب الروائي الذي اكتشف أخيراً أن ما حبره لم يكن البتة أهلا بتخليد ذلك الحب العظيم ، الذي يكنه لإمرأته التي طلبت منه إعادة كتابة الرواية ...

وفي فترة حرجة من فترات قلق الرجل الروحي نشد زوجه فلم يرها حيث يجب أن تكون من غرفتها .. وخرج من الدار فرآها تسير في طريق شد ما رغب في أن تنتهي إلى غابته ليقوم هناك تحت ضوء القمر بتلبية رغبات شيطان جسده ... متتبعاً أثر المرأة عن بعد قدر المستطاع ..

لكن وفي غرة ذلك الضياء ، وتحت هالة البدر المتربع قبة

السماء شاهد ، وبالبؤسه ، شاهد زوجه دمية يتلعب بها ذلك الحلاق الدميم الذي رغبت هي ، وليس غيرهـا بطرده من بيتهـا ...

هل ثار الرجل لكرامته ...؟ هل قاصص زوجه ؟... هل قتل الحلاق ؟... هل انتحر ؟... هل أكمـل كتابة الرواية التي تبين أن فسادها لم يكن إلا فساد الواقع الباطني الذي تنعكس عنه سطور الرواية ...

أسئلة كثيرة يمكن أن تراود ذهن القارىء .. نترك الإجابة عنها للكاتب الكبير ألبيرتو مورافيا ... الذي له وحده إسدال الستارة على تلك المأساة التي خلق شخوصها ، وشتان ما بين إجابة المبدع الأول ، وبين ناقد يعيش على هامش الرواية ، مهما صبغت منه الرواية ورق الحس .

الناشرون



١

أقول ... وحبذا من قول أستهله بالحديث عن زوجتي !

الحب لو جرّد من مفهومه، يعني بعد ئذ الإستمتاع بالحبيب.

وما هو الاستمتاع ؟

الإستمتاع بمعنى آخر هو البحث أو التقصي عن مزايا الحبيب ، والوقوف عند حسناته أو سيئاته

ما زلنا على مائدة العرس لم تمر إلا أيام قلائل حتى وجدت في نفسي رغبة ملحة لأن أطلق العنان لناظري ، لأراقب زوجتي ، وتغمرني الفرحة عندما أراقب قوامها الجميل ، وحركاتها النشطة ، وتعابير وجهها التي أخذت مني كل مأخذ.

ولم أزل على هذه الحالة ، والسنون تمر سراعاً ، فها أنا أفتح عينيّ لأرى ثمرة حبنا تتبلور ونصبح ملك اليدين .

أجل إلى جانبي أطفال ثلاثة أنجبتها زوجتي ، ولا غرابة في ذلك لقد أصبحت زوجتي في العقد الثالث من العمر ، وها هي تميل إلى الاتزان والرصانة إن لم أقل إنها تغيرت كلياً .

إذا ما عدت إلى الوراء أتذكر الماضي العابر مثلت أمامي زوجتي الشابة الجميلة بوجهها النحيف الطويل ، إنه ليوحي إليّ بكل صفات الطهر والعفة والجمال فحسبي أمام هذه المزايا

كأنني أمام آلهة الماضي ذات الخلال الحميدة التي زادها جمالاً توالي الأيام التي مرت عليها ...

هذه النظرة لا يمكن لمسها بل هي كشعاع من الشمس ينعكس على حائط أو كسحابة تخيم فوق البحر ، وسرعان ما تضمحل ...

هذه النظرة سواء أكانت إلى جمال شعرها السارح بضفائر تعبر عن الفرح والبهجة .. أم إلى جمال عينيها اللتين تحاكيان عيون المهى – إنهما كشعرها يوحيان بارتباك فكري وخجل ؟ أما أنفها فكان مستقيماً وكبيراً بشكل يتلاءم مع الوجه ، مما يزيده جمالاً وروعة ، ناهيك عن الشفتين الجميلتين الرقيقتين اللتين تطوقا فماً صغيراً كما يطوق الكأس أوراق الزهرة الحمراء حتى ليبدو مثيراً للاعجاب والأحاسيس والشفة السفلى متعلقة على ذقنها الصغيرة الحلوة ...

إن وجهها لم يكن كغيره أبداً . وبالرغم من ذلك ، كان آية في الجمال ، لم يخلق منوالها قط .

وكمثل هذا الوصف ، يمكن أن يقال بقدها ، فمن خصرها وإلى الأعلى ، كانت نحيفة ناعمة ، كأنما هي أرنبة شابة .

ومن ناحية أخرى، إن رجليها قويتان مشدودتان بأعصاب متينة تدل على قوة خارقة . ورغم هذا كله ، إن حاجتها إلى التناسق ، كانت قد استعيضت بالجمال الذي يوشحها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها . – فبدت تشع بالكمال كأنها

وميض من نور • فلا غرو بعد هذا إذا قلت ، أنني عندما أنظر إليها ، كنت أظنها ، إنسانة انفردت بهذه الملامح الخارقة ، التي لا يشوبها شيء •

نعم ، لقد امتلكت التناسق والرصانة والرشاقة ، إلى هذا الحد ، كان يذهلني هذا الجمال ، بل وإنني مجبر على القول بلهفة ، بأنها كانت تغمرني بطهارتها ، ثم جاءت لحظات زال هذا القناع الذهبي عن وجهها ، وظهرت شوائبها ، وأخذت ألحظ تحولاً تاماً بشخصيتها •

لقد اكتشفت ذلك في أول زواجنا، وعرفت أنني خدعت كذلك الرجل ، الذي تزوج امرأة رغبة في نقودها • لكنه إكتشف بأنها لا تملك ما يسد عوزها •

لقد أصبح وجه زوجتي أصفر يكتنفه الأسى والوجوم ، مما يزيل كل جاذبية جنسية •

أجل إن هذا الوجوم عكس قبحها بشكل لا يقبل الشك. فبدت عليها المظاهر الشاذة من تمرد ونفوذ وتجاعيد أشبه ما تكون بانحناءات الطبيعة نتيجة الزلازل ...

حتى لأتصور نفسي وكأنني أمام شكل (كركاتوري) قد أبدع الفنان في إبراز هزيلته . ناهيك عن فمها الذي يتلون في إبراز الخطيئة مع تحرك أحمر شفاهها ، ومع تحولات عينيها ، عندما كانت زوجتي في زهوها وفي ربيع شبابها ، كانت تطلي شفتيها بأحمر شفاه • أمـــا الآن وقد أقبل الخريف وأفلت

شمس الربيع ، ومالت إلى الإصفرار ، فها هي تنهال على (الروج) فتضع منه المزيـــد على وجهها وشفتيها ، لكن وأسفي لم يجدها نفعاً ولو عملت المستحيل لم تكن هذه الزخارف ظاهرة على وجهها عند نقاوته ولكنها كانت تتلائم مع عينيها وزيها وشعرها أما الآن فقد أصبحت إنسانة بشكلين فعندما ينفصل شكلها المصطنع عن شكلها الطبيعي تعود إلى قبحها ، فتعكف على (الروج) تضع منه إلى أن تأتي عليه بأكمله .
وها هي تتحور بألفاظها من كلام رزين مرتب إلى كلام بزيء تتخلله الضحكات العالية ، التي تعبث بهـــا على هذا الشكل معتقدة أن هذه الطريقة تلفت إليها الإنتباه ، ويسد نقصها الذي شعرت به في أعماق نفسها .

ومن البديهي أن يكون جسدها كوجهها له طريقة لإزالة معالم الجمال فيتحول إلى شكل ذي معالم غريبة ، ولربما لم ير الانسان أبشع منه ، تجعدات والحناآت ، فكأنها تتحسب لكارثة عظيمة ، لذا تراها مشمئزة خائفة تدعو إلى الشفقة . وبنفس الوقت تبدي حركات تعجز عنهـا أمهر الراقصات ، الـــتي تهدف إثارة الجماهير ، والغريب العجيب إن ذراعيها ورجليها منطوية لا تبدي حركة ، بل بالأحرى تراها تتحسب صفعة ، فتتأهب للدفاع عن نفسها ، ـ لكن والحق يقال : ـ إن تحول جسمها إلى الوراء يزيدهـا جمالاً ويبعث المتعة إلى الناظر . أضف إلى ذلك حركات وركيها التي جعلت منها

فنانة بارعة في الوصول إلى أهدافها . وتحسبها على هذه الحالة وكأنها تفكر في التخوف من المخاطر . بيد أن التخوف والمخاطر لم يكونا مكروهين لديها ، رغم كل ذلك أضيف قبساً من نور إلى الحقيقة الواضحة وهي قدرتها على تبديل مظهرها ، فتحسبها استأثرت بالطهر والرزانة والرصانة فتبدو للرائي كأنها تشع طهراً وعفافاً .

سبق وقلت . إن الحب هو حب كل شيء بمـن تحب . حب السيئات إن وجدت كحب الحسنات ، عندئذ يقال إننا نحب الحب الصحيح. إن هذه السيئات أو ما أسميه بمعنى آخر نقاط البشاعة في الحبيب. أصبحت عندي مألوفة كالجمال كالرقة والرصانة التي تبدو في الأيام الهادئة ، ولم يعد الحب بالنسبة لي يعني التفاهم ، وإن كان يوجد هناك نوع من الحب يسير إلى التفاهم فله نقيض آخر من الحب ، هو الحب العاطفي ، الذي يعمي الحب عن مساوىء الحبيب . إنني لم أكن غبياً لهذه الدرجة ، إنما كنت أحتاج إلى الاستقرار الفكرى للتأمل بحب خالد . لقد عرفت أن زوجتي كانت تصبح أحياناً بشعة ، ودونما رحمة ، وكنت أدرك هذه الحقيقة بأم عيني ومع ذلك كله لم يكن باستطاعتي تركها ، فمن الانصاف بعد هذا كله أن أقول : انها حقيقة غريبة تسيطر عليّ ، ولايسعني إلا الاعتراف بها .

يجدر بي أن أقول هنا . إن البؤس قد تلاشى في علاقاتنا

الودية . فأنا لا أذكر أية كلمة ، أو نقاش يدعي إلى هـــذا التحول الغريب ، في وجهها وجسمها، حتى لتصبح كالبلهوان . وتأكيداً لما أقول إنني أذكرها أثناء ساعات حبنا – وأحني رأسي معترفاً بالحقيقة الواضحة – إنها كانت تعمل على إظهار منتهى جمالها على أحسن ما يكون . حتى ليصعب عليّ تصوير تلك الجمال الخارق . إن عينيها النديتين الساحرتين ، كانتا تفيضان بمظاهر الحب المعبر أكثر من الكلام . بيد أن فمها كان يعلن من خلال شفتيها الرقيقتين الجميلتين عن لطف وذكاء يندران عند غيرها . كما وأن وجهها كان يرحب بتحديقي به، وكأنه مرآة غريبة يطوقها إطار من الشعر الجميل . كما يطوق بالدر جيد الحسناء . إن جسدها كان يبدو بأروع أشكاله ببراءته وضعفه دون قوة أو خجل فيه برزت المناقب الحميدة والخلال الكريمة ، وإليه آلت أروع مظـــاهر البؤس والنحول ، فانعكست عليها كل مزاياهـــا ، وظهرت جلية واضحة ، إنها كالطبيعة ببراءتها لم تترك مكاناً للستر فيها فبدت على الطبيعة الأنهار والوديان والجبال والهضاب حـــتى برزت بأكملها ، بجمالها بشوائبها ، وكذا حال زوجتي .

البؤس والنحول من ناحية أخرى كانا يحدثان تبعاً لظروف خاصة غير متوقعة ، وتحظى عندي أهمية بالغة في حياتها لذا أتلو عليكم بعضها .

لقد كانت زوجتي على إطلاع واسع بالروايات البوليسية .

ففي أثناء قراءتها عندما تصل الى العقدة تصاب بذهول وخوف ينعكسان على وجهها وجوماً لن يختفي إلى أن تنتهي من قراءة الفقرة التي أحدثت هذا الوجوم . أضف الى ذلـــك تعلقها بالمغامرة . صدف أن كنت معها في (كامبيون ـ مونت ـ كارلو ـ سان رومبو) فلم تتمالك إلا أن تجرب حظها ، وتدير الدولاب فتقفز الكرة الصغيرة من رقم الى آخر ، إلى أن تستقر في مكان ساقها الحظ اليه . وفي هذه الأثناء كان وجهها يتلون من شكل الى آخر لشدة تعلقها وانسجامها مع المقامرة ، أضف الى ذلك لو انها حاولت إدخـال خيط في ثقب الابرة تراها تركن الى الارتباك . هذا هو مصيرها فلو صدف أن شاهدت طفلاً صغيراً يركض على حافة نهر . أو عندما تسقط على ظهرها نقطة من المـاء البارد . ولا بد لي بعد هذا إلا أن أذكر مفصلاً مناسبتين اثنتين بدت بهما هذا النحول والوجوم الغريب ..

مللت السكون ، ورغبت في الحركة ، وما هي إلا لحظات حتى كنت مع زوجتي في حديقة بيتنا الريفي ، وبينما أنا أجيل الطرف ، من مكان لآخر فتقع عيني على نبتة كبيرة استطردت في السماء بسرعة مذهلة لا علم لي بها من قبل ... فعزمت على إزالتها من الحديقة لكن لم يكن بالسهـــل إقتلاعها ، بسبب الأعشاب الخضراء الندية السريعة الانزلاق ، وكان من الواضح أيضاً أن لها جذوراً ملينة متمركزة في الأرض ، وبينما أنا

يخيل إلي ، إن زوجتي تعرضت لمثل هذه الصدمات ، مرات لا تحصى ، وفي ظروف خاصة ، وعلى أي حال ما زال هناك حقائق ثابتة هي أن هذه الإنعكاسات كان يتلوها سكون عميق ، سكون يدل على الذهول والحيرة ولربما كانت تخفي صرخة باطنية يتردد صداها في أعماقها دون أن تنفجر لتحطم السكون ..

وختاماً لقد تبين لي أن البؤس ، والتغلب كانا يحدثان فجأة ودون سابق إنذار ليمرا بسرعة البرق ، لقد كانا كما لاحظت عبارة عن خوف مرتبط بانفعالات جنسية ...

٢

لقد تحدثت طويلاً عن زوجتي ويبـــدو لي ان الوقت قد حان لأتحدث عن نفسي . اني طويل القامة ، نحيف الجسم ، ذو وجه مليء بالحيوية ،وتعلوه ملامح الرجولة لكن ربماأكون نحيفاً ويظهر الضعف على فمي وذقني . قد لا أملـك نفسي في الظروف الدقيقة من التلفظ بكلام مسموم . لكن الحقيقة ان وجهي لا يدل على خلقي ، بالرغم من ظهور بعض التناقضات عليه . إنما الصفة الجديرة بالذكر والانتباه انني بحاجة الى عمق التفكير ، إن كل ما أشعر به أو أقوله يشير إلى نفسيتي .

ليس هناك ما أحتفظ به عند الحاجة الى التقهقر . انـني بالواقع رجل يسير الى الأمام ولا يتطلع الى الوراء .ولا أشعر بحاجة الى حراسة مؤخرتي . وبعد أن تجلت أمـــامي هذه الامور أنصف بحق ذاتي حين أقول:أدير ظهري للبطولةوأنفعل لصغائر الامور . ان حماستي على أية حال شبيهة بحصان يقفز من فوق حاجز ويلقي بفارسه الى التراب على مسافة بعيدة . والذي أقصده بهذا القول هو أن حماستي تحتـاج الى التوجيه الروحي والأخلاقي ، وإلى تحكيم العقل عند الانفعال.ليتحول

هذا الشعور إلى رغبة جامحة ، وإلى قوة منطقيـة . ويلزمني أن استبدل الأقوال بالأعمال .

إن قوة منطقي هي في الحديث العاطفي ، فأنا أرغب دوماً الوقوع بالحب . لذا أخدع نفسي بالتفكير بالحب ، وأجد أن كل ما عليّ هو التحدث عن الحب بشعور فياض ،رغم التحدث عنه ببساطة ، في هذه اللحظة تنهمر دموعي ، واستجمع كل عاطفة فياضة ، ورغم المظاهر العاطفية الخارجيـة أستجمع نفسي لأحتفظ ببعض المظاهر العاطفية المريرة ، وهذا نوع من اللباقة لكنه يجعلني مخادعاً ، يضع الواقع برقعاً من الزخارف ولكن سرعان ما تبدده الحقيقة .

قبل تعرفي الى (ليدا) كنت رجل معرفة يصلح لقيادة حياة هادئة . لكن كنت أضحي بمتعة هذه الحياة في سبيل التقصي عن المواضيع الادبية الجميلة . وأعتقد أن مثل هذا العمل الذي قمت به بالنسبة للمجتمع كان يستحق الاكرام والتقدير ، ووصف بأنه كان عملاً أدبياً صادقاً على حد قول من عرفوني . ولا أذكر اني قضيت لحظة لنفسي إلا في التنقيب عن المواضيع الأدبية . لقد كنت رجلاً معذباً فكـأني على موعد مع اليأس .

هناك بين إنتاجات الكاتب (بو) ما يصور بوضوح ودقة حالتي العقلية في ذلك الوقت .

أجل .. إنها القصة التي أسرد بها مغامرة صياد السمك .

الذي انحرف بقاربه وسط دوامة في البحر . وهكذا يدور بقاربه حول المحيط . وفي كل جـــانب من حوله بقايا سفن تحطمت . وهي تنوي الهدف نفسه . لقد كان يعلم في أعماق نفسه ، أنه كلما تقدم بقاربه ، يقترب لأسفل حيث ينظره الموت .

وكان يعلم علم اليقين، من أين أتت بقايا هذه السفن المحطمة. وكيف تحولت إلى حطام ..! لقد كانت حياتي أشبه بدوامة أزلية جوفاء . يحيط بين كل ما أحب . هذه الحقائق التي أحيا بها والتي أتحطم وإياها معاً في لحظة واحدة. لقد شعرت بأنني كنت مدفوعاً إلى السير والتفكير بكل مـــا هو جميل وُجد في العالم ولم أتوان لحظة واحدة عن التفكير بعمق الهوة التي كانت تهدد كل من يرغب المغامرة بنهاية محتومة . ومرت لحظات والدوامة تضيق وتضيق تستقيم وتهدأ . وتدفعني إلى شاطىء السلامة من خلال الحياة اليومية . لكن لم تنقطع عني التيازات العاطفية النفسية بل كانت تمر بسرعة وبعمق فكنت معرضاً للغرق بالرغم من كل عزم ومعرفة . بيد أني كنت اتوق إلى التعب في أيام حياتي، وهذه المتاعب كانت مستمرة بالنسبة لي .

وأخلص إلى القول بكل صدق أنه لم يمر يوم واحد ما بين العشرين والثلاثين من عمري لم أفكر بالأنتحار. طبعاً لا أرغب قتل نفسي – وإلا لكنت فعلت ما أردت – إنما تأملي الشديد

بالأنتحار غير الشكل السائد لتأملي العقلي .

وكنت أفكر في ذاتي فإذا بي إنسان وضع نصب عينه هدفين أثنين وعمل على تحقيقها وهما [حبي من أمرأة، والإبداع الفني الأدبي] وما هذا التعليل إلا لإيقاح الفكرة وإبراز أهميتها. ولا سيا أنني بلغت الخـــامسة والثلاثين من العمر ، بالنسبة لأموري الحياتية. أما بالنسبة للحب فإنه لي – كما يبدو لغيري من أبناء جنسي – من الحقوق على هذه الأرض . وبالنسبة للعمل الفني الأدبي لقد كنت مقتنعاً بأنني منقاد نحوه بكل جوارحي وحواسي وعقلي وفي كل الأوقات ولو كان ذلك على حساب راحتي ..

وبالرغم من هذا كله لم أقرأ اكثر من صفحتين أو ثلاث من أول الكتاب ولكن بالنسبة للنساء، لم أكتفِ بهذا المقدار من الشعور الذي لا يرض الطرفين وأعني [نفسي والحبيبة] ولكن الذي أضناني هو مجهودي العاطفي وإنتاجي الأدبي أضف الى هذا كله سهولتي بالإندفاع وبسرعة خارقة إلى المتعة . ولكن سرعان مايتلاشى هذا الإندفاع. فقبلة خاطفة من شفاه غاضبة، كانت توحي إليّ بالإنتاج الأدبي الهجين .

ولم أتوصل إلى ما أتوق إليه . ولربما التقيت مع امرأة على صعيد حديث عاطفي ، ينتهي بإبعادها عني . وأعود لأكتب فأعبث بالقشور والخرافات التي لا تستحق التفكير والإجهاد . لكن لماذا أكتب هذا النوع الرخيص من الادب ؟أجل .. إنه لإحياء جسدي .

إن قوة سري في بداية الأمر كانت ضعيفة . حتى أنني كنت أخدع نفسي وأخدع الأخرين . ولم يطل بي الزمن على هذه الحالة . فينتابني اليأس والبؤس . أريد أن أعترف بعد هذا أنني لم أحب ولم أكتب بقدر ما أحببت أن أحب واكتب .

ففي بعض الأحيان كنت أجد أمرأة على استعداد للإجتماع معي دون أن تلجأ إلى المراوغة. فالهدف الواحد كان يقاومني ويدعوني إلى الأستمرار إنما – على أية حال – بي شيء واحد جميل. هو الضمير المعتدل . الذي يشدني إلى الطريق المستقيم. ويمنعني عن القيام بأعمال سيئة. هكذا كنت أمزق الصفحات، ولحجة أخرى ، ينقطع وصلي بالسيدة . وبمثل هذه التجارب الخائبة . أرى الشباب قد آل إلى الزوال ..

اسهبت في الحديث عن زوجتي، وعن نفسي لذا بعد هذا، اشرح قصة تعرفي لزوجتي وزواجي منها .

لا أذكر أين التقت عيناي بزوجتي . فلربما أكون قد تعرفت عليها لأول مرة ، في غرفة استقبال رسمية . أو على عين ماء عذبة .

وقد يكون بمكان آخر، لا أجد حاجة إلى تحديده ، بوجه الدقة . لقد تماثلت مع (ليدا) بالعمر . وكانت حياتها أقرب ما تكون إلى حياتي فتبين لي أنني وجدت شريكة حياتي التي أبحث عنها . وأعمل جاهداً في سبيل الوصول إليها .

لقد كانت « ليدا » متزوجة من رجل لم تحبه مع أنها فتاة

صغيرة . وهذا الزواج كان ينتمي إلى (ميلان) وطنها الأم. فأستمر هذا الزواج قرابة سنتين ثم فشل في سويسرا وانتهى بالطلاق ومنذ ذلك الحين وزوجتي كانت تعيش لوحدها ولكن الشيء الذي أريد أن أقوله هو أنني وجدت شريكة حياتي التي طالما جهدت في البحث عنها .

لقد عثرت على ما أريد ، ها أنا أعرف [بليدا] كل ما أتمناه . أجل .. انها تصف لي تعبي في التفتيش عن الحبيب الذي أغمره بعاطفتي سبب أدى إلى هذه المخاطر . أرغب فيه وأخلص له شرط أن يقوم على العاطفة . التي تنبعث من أعمق اعماق القلب . إنها ملكت قلبي بطهرها وعفافها . وفجأة قررت بأنها يجب أن تكون زوجتي .

لا أعتقد أن «ليدا» ذكية للغاية إنما هي بذكاء متوسط . ورغم ذلك لقد استطاعت أن تجمع بحديثها قدرتها وخبرتها على القصاص والتهكم وبذلك حققت السلطة القوية . وهذا ما كان يبعث إلى نفسي الإرتباك عندما كنت أحاول إقناعها بالزواج مني . أما الآن فأستطيع القول : أنها قررت الزواج الذي كنت اباركـه ، دون أن أجرؤ على إطلاعها عليه . هكذا تمت خطوبتي منها .

ما زلنا في الأيام الأولى من الخطوبة . بيد أني كنت أشعر أنها طويلة وشاقة حيث كانت تدفع بيدي بعيداً عنها . ثم لا تلبث إلا قليلاً فتدفع قيدها إليّ . إن هذا الأستسلام لو كان

امرأة اخرى لبدى لي إنه نوع من الطهارة الرخيصة . ولربما يجعلني حاقداً محتقراً ، لكنها كانت على جانب من الإقناع بمزاياها الحسنة كالدلائل السابقة .

وبعد زواجي منها عرفت أن هـذه السلطة الغامضة . بقيت بكاملها ، حتى أنها تمكنت بسبب نفوري العصي . فلم تتوان عن التلاعب بمشاعري فكانت تبرز بأبهى حللها إلى جانب ذكاءها الخارق الذي كان يبدو مماثلاً لجمالها .

لم أكن متأكد من زواجها . فمجرد كلمة أو إيحاء يجعلني أخشى أن أفقدها . ثانية ، وخاصة بعدما تحققت رغبتي . ووجدت أنها تميل إليّ بشكل مرغوب بالنسبة لي . وتقودني الأفكار بين خيبة أمل ، وفسحة من نور إلى أن تم زفافنا وشعرت أن روابط الحب تقوى بيني وبينها . فكان لزاما عليّ ان أعمل بكل مواهبي الظاهرية والضمنية لكي لا يضمحل هذا الحب فيما بيننا. ونقتدي إثر غيرنا ممن أحبوا قبلنا . دون شجاعة، أو فائدة بدافع الخوف أو عدم الأستقرار والتفكير.

كنت أشعر أن ما أقدم عليه ، هو عمل بسيط وسهل للغاية . فقررت بالنهاية أن أطلب يدها . وأنا متأكد من أن طلبي سينال الموافقه السريعة ... لكن خاب ظني ، وفقدت أملي ، وها أنا ألاقي منها رفضاً قاطعاً . وكأني بافتراضي هذا قد خرقت حدود قانون السلوك السليم . وبهذا الرفض شعرت أني توصلت إلى أعنف حد من اليأس .

وركتها مرتبكاً بعد أن فقدت كل أمل بالزواج منها . ولو لم أكن جباناً في قضيتي لها . لأيقنت بالهلاك وشعرت بأن الوقت قد حـــان لأقتل نفسي تخلصاً من اسى الحب ولوعة الحرمان. هكذا وهن حبل الود بيننا ، وانقطعت عن زيارتها لأيام قلائل ، ولزمت المنزل لمدة طويلة دون أن أتحرك إلى الخارج ...

وفي هذه الأثناء انهالت عليّ الأشباح الوهمية ، فأوسعتني ألما وحزنا . ويقطع تفكيري فجأة رنين الهاتف . فأستلمه بسرعة ولشدة ما كان إعجابي عندما طرق أذني صوت [ليدا] تعاتبني ، بقولها : لماذا قطعت زياراتك عني ، فأعجبت أيمـا إعجاب. وهرعت إلى غرفة النوم أفتح الصيوان لألبس ثيابي. بسرعة تفوق سرعة النور . ومن ثم هرولت إليهـا على عجل حتى أنني لفت انتباهي الناس على جانبي الطريق . وتمر دقائق فأصل إليها ويبدأ السلام بالعناق . وتتحرك شفتاها بالترحاب الحار . عندئذ قاطعتها عن الكلام معترضاً . ففكرت ملياً وقالت : لك ما تريد فأنا أوافق على الزواج وبالفعل تم لنا ذلك في أقل من اسبوعين .

لقد بدأنا حياة مليئة بالسعادة ولم أعهدها من قبل . لقد أحببت (ليدا) باندفاع وعاطفة . حتى أن أفكاري كانت توحي إليّ بالخوف على فقدان هذا الحب المتبادل بيننا .

وبما أنني كنت اعلم أنها جاهلة، أقترحت أن تخصص بعض

الوقت لدرس العلوم الادبية والفنية . محاولاً إقناعها بأنها ستجد متعة في المعرفة وسأخطى بمثلها أنا خلال تعليمي لها . لقد اكتشفت بها ما لم أكن أتوقعه من قبل ، أن قدرتها على كسب العلم تفوق حدود الوصف .

وبموافقة متبادلة فيما بيننا رتبنا برنامجاً الدرس. وتعهدت لها بشرح الدرس وتوضيحه . وعملت على أفهامها كل ما أعرفه وأحبه ولا أعلم لأي درجة،وعلى أي كيفية أقدم إرشادي لها، حتى أنني كنت أستلهم العقل ولاداء الغرض الذي جهدت من أجله .

وعلى أيه حالة ، يبدو لي أنني مازلت مقصراً في الوصول إلى الواجب . لكنها بعد مضي عدة أيام أمالت عنقها بكبرياء وهي تقول : إنني أحب هذه القطعة الموسيقية ... وهذه المقطوعة الشعرية الجميلة ... إقرأ لي هذه القصيدة ثانية ... دعنا نستمع إلى هذه الاسطوانة مرة أخرى. ولقد شعرت في أعماقي أنني حققت ما أرغب فيه لها.وبالإضافة إلى ذلك كنت أعلمها الأنجليزية لكي نشغل كل فراغنا. ولقد نجحت في إتقانها بسرعة مذهلة لقوة ذاكرتها وميلها المتأصل إلى هذه اللغة . ولا انكر أنني كنت أعلمها برغبة عظيمة للاستمتاع بمعالم جمالها ولطفها الذي غمرتني به . أضف إلى ذلك إعجابي بعزيمتها وحبها الاستطلاع والمعرفة .

ورغم أنها كانت هي الطالبة وأنا المعلم ، كان ينتابني خوف

الطالب وخجله حيث يتقدم ببطء ليمثل أمام معلمه . وحسبي أن أعلل هذا الخوف والخجل بأنه تابع لموضوع الدرس الذي هو الحب.و في كل يوم كان يبدو لي أنني احقق أهدافاً أخرى في هذا المضمار .

وبالرغم من كل هذا فإن الدعامة الاساسية لسعادتنا هي حياة الحب . التي كانت بعيدة فيما مضى . وها نحن نتقاسمها اليوم . ذكرت آنفاً جمالها كان يضلل بعض الوجوم والتغلب السريع . ورغم ذلك كله بقي هذا الحب موضع تقديري وإعجابي . ونحن نحب بعضنا البعض .

أضف الى ذلك إن انفرادها بهذا الجمـــال أصبح الركيزة الأساسية التي يدور حولها تيار حياتي .

.. مراراً كان يبدو شكلها مسوداً منذراً بالفشل الذريع. وحيناً آخر كان يبدو براقاً مغرياً يبعث الانشراح الىالقلوب. وكيف عندما أستلقي الى جانبها على السرير .. أتأمل جسمها العاري فأطير لشدة جماله . أعجز عن وصفه . لذا تركتهذا الوصف الى نباهة القارىء لعله يشعر به كشعوري أنا . ماذا أقول في وصفها وهي مستلقية على ظهرها ورأسها يغرق في الوسادة ..؟ وأنا أعبث بشعرها الجميل أبعثره وأعيد ترتيبه . عبثاً أن أفهم هذا الشعور الغامض الذي يهب لشعرهـــا هذا المنظر الخلاب..! انسيابه وجماله أم أن هناك سراً دفينـــاً لا أقدر على اكتشافه ؟ وغالباً ما كنت أحدق بعينيها الزرقاوين

متسائلاً عن سر جمالها وعذوبتها. والتعبير الهائل بعد تقبيلها .
وما زلت أطيل النظر لأراقب بعنف . فأشعر وكأن شفتي ما زالتا تلتصقان بشفتيها . فأقارن بين شفتي وشفتيها ، أملاً في إدراك معنى الحب الغامض .

الابتسامة الهادئة بعد كل قبلة على فمها الجذاب . ان ابتسامتها الأشبه ما تكون الى الابتسامة التي تظهر في وجه تماثيل آلهة اليونان القديمة ..

لقد وجدت سراً فيها .. سر يركن في قلبي وعينيّ وعقلي المتفحصين للجمال . فأطير بحلمي لأصل في النهـاية الى الوقوف على معالم جمالها .

لقد بدت أنها تدرك كل أهمية للتزيين لأجلي تعمل بكل دقة ومهارة وبكل تصبر للعلم .

ربما كان عليّ أن أكون حذراً وسط السرور التام خاصة بالنسبة لوضع جمال زوجتي الذي ذكرته سابقاً وقوة عزيمتها بالنسبة لي . لم يكن الحب عارماً عندها كما هو عندي . وكل ما كان يميز تصرفاتها أنها كانت تعمل على إرضائي ومسرتي ، حتى غالباً ما كانت تتملقني . هذا هو الواقع لكن قد لا أقع في نفسي على معالم استهانة ، تدعوها للظهور بالعزيمة ، إنه لمن الصعب لصاحب الارادة ، أن يعترف بالحقيقة دون أن يخفي شيئاً ، ولو كان قد بان بشكل جـــلي تعمل على معاكسته وتتحسب لنتائجه . شيء قد يحدث من مجرد العودة للأعمال

السابقة ، فيتحول إلى مجرد مراوغة وخيانة ، إنما كنت أتقبل هذه العزيمة كبرهان لحبها إياي ولم أظهر أي تذمر ، أو حب للتحري عما تخفيه . أو ما معنى هذا التقلب ، لقــد كنت سعيداً بأن أكون أنانياً وعلمت أن هذه هي المرة الأولى الــتي أواجهها الحب بكل اندفاع.لذا فقد كرست لها كل الاحساس الذي يملأ مشاعري .

لم أتحدث إلى زوجتي ، عن طموحي الأدبي لأنني كنت أشعر أنها قد لا تفهم ما أقول بالأضافة إلى أنني كنت خجلاً، لأنني كنت أشعر في أعماق نفسي بأن هذا لم يكن مجرد طموحاً أو مجرد محاولات لم تكلل بالنجاح .

في تلك السنة قضينا فصل الصيف على شاطىء البحر وفي منتصف شهر أيلول بدأنا نفكر بترتيبات تتلاءم مع الخريف والشتاء . وصدف أنني كنت أتحدث إلى زوجتي ، فزلّ بي لساني وصدرت مني كلمات تخبرها بجهودي الفاشلة. وربما أشرت إلى الفترة الطويلة ، التي قضيتها عاطلاً عن العمل، إثر زواجنا لكنها صرخت يا [سلفيو] لماذا لم تخبرني بهذا أبداً ؟ فأجبتها إنني أخفي عليك هذا السر لأنني حتى الآن لم أوفق إلى موضوع أرى من المستحسن أن أتحدث عنه . ولكنها بلطفها استطاعت التلاعب بمشاعري وقالت بأنها ترغب شيئاً مما كتبت . هذه الدعوة جعلتني أتحقق بالحال أن حسرتها جعلتها تتملقني بشكل هائل . وعلى المدى الطويل . مع أن رأيها

بالنسبة لي أصبح مهماً لرأي أي كاتب احترف الكتابة . إن لم يكن أكثر .

كنت أعلم تماماً أنها كانت جاهلة . لذلك كان ذوقها لا يعوّل عليه لدرجة أن مباركتها أو لعنها ليسا بذوي أهمية بالغة . وشعرت أن الأمر الآن يعتمد علي فيما إذا كنت أصمم الاستمرار بالكتابة أم لا . وعندما حبذت طلبها هـــذا . تصنعت الاعتراض لوقت قصير . وبعد ئذ كررت على مسمعها بأن ما كتبته لم يكن ذا أهمية بالغة . حتى أنني أهملت ما كتبت . ثم وافقت على أن أقرأ لها قصة قصيرة كتبتها منذ سنتين خلتا .

وعندما قرأت بدا لي أن القصة لم تكن سخيفة ولا رديئة كما اعتقدت سابقاً . وهكذا استمررت بالقراءة بصوت أكثر تعبيراً وأجمل إيقاعاً . ناظراً اليها بين الحين والآخر ، بطرف عينيّ حيث كانت تجلس صاغية دون أن يبدو تأثير القصة عليها . وعندما انتهيت من القراءة ألقيت الأوراق جانباً ثم « أردفت » كما ترين تأكدت بأنني على حق . فإنني أثق أن هذه القصة لا تستحق إطالة الحديث حولها ... وانتظرت بكل شغف لأسمع رأيها . ولكنها وقفت صامتة لفترة طويلة، وكأنها تستجمع آراءهـــا . بعدئذ صرخت برصانة وثبات بأنني كنت على جانب من الخطأ ، لأنني لم أعط أهمية لآرائي. ثم أضافت تقول إنها تحب القصة .رغم أنها لا تخلو من الأخطاء.

ثم أشارت إلى دواعي سرورها . ومع أن نقدها لم يكن كنقد الناقد الكبير ، شعرت بحماس وتشجيع عظيمين . وفجأة تبين لي أن أقوالها التي هي أقوال إنسانة عادية بذوق عادي ، جديرة بالاحترام ، كأقوال الأدباء اللامعين . لدرجة أنه أصبح عندي ميل لنقدِ نفسي مركز على نقاط الضعف أكثر من غيرها . وشعرت بأن ما أفتقد إليه ، لم يكن الفكر وإنما العاطفة . حيث كانت في هذه اللحظة تقف فوق رأسي ..

النجاح هو شيء بسيط . لن يكفي أن يكون بين أفراد عائلة الكاتب أو بين البشر الذى تشدهم اليه روابط القرابة والصلة إلى الثناء عليه .

فالأم والأب والأخت هم دائماً على استعداد للاعتراف بعبقريتنا . التي ينكرها بكل عناد الآخرين . ولكن على كل حال فإن مديحهم لا يرضينا وغالباً ما يسبب لنا المرارة . ولا تعتبره حكماً صريحاً . لأن هذا الحلم ـوبدون أي شكـ قد ينحرف وراء العاطفة . انني لم أشعر بشيء من هذا القبيل عند زوجتي ولكن بدا لي أنها بالفعل أحبت القصة دون أي اندفاع عاطفي . ومن ناحية أخرى إن إطراءها كان أقرب إلى الرصانة والمنطق . وليس من باب الشفقة .

وسألتها في منتهى البساطة . أترغبين في الاستمرار بثبات ؟.. فكري بالجواب بعمق .. سبق أن كتبت لفترة عشر سنوات خلت دون نتيجة .. فإذا كنت تصرين على

الاستمرار سأفعل ذلك وإن كنت تبغين التوقف ، سأعاهدك بأنني لن أمس القلم ثانية . ضحكت وهي تقول : انك تضع مسؤولية كبيرة على عاتقي . فحزمت بالأمر ثانية : تجنبي في إجابتك كل صـــلة تربطك بي .. اعلني رأيك بصراحة ...

فأردفت : سبق وقلت لك أن عليك الاستمرار ..أحقاً؟ نعم وبكل تأكيد . وبعد لحظة من التوقف أضافت :أنظر .. دعنا نفعل هذا . بدلاً من أن نعود إلى « روما » علينا أن نذهب الى « تسكاني » لقضاء شهر أو اثنين فلربما نجد المناخ الملائم للكتابة هنـــاك وأنا متأكدة من ذلك .. أما أنتِ فستشعرين بالملل .. لماذا ..؟ أنت ستكون هناك .. أضف إلى ذلك رغبتي في تغيير مكان إقامتي من مكان لآخر ..مضت عليّ عدة سنوات وأنا أسير بحياة هادئة .

إنني أعرف بأن تشجيعها وقوة حجتها المقنعين لي . بل شعرت بأن هناك هدفاً يدفعني . ففكرت في نفسي بأنني يجب أن أسعى جاهداً لتحقيق رغبتي التي هي من صالحي بالنسبة لزوجتي .. فمن الانصاف بعد هذا أن أعترف بالحقيقة الظاهرة وهي أن زوجتي غمرتني بحبها لعدة سنوات . ولا غرابة إذا قلت : ان هذا الحب كان سبباً في ازدياد نتاجي الأدبي . لقد شعرت بأنني أسير على الطريق بأمان علماً بأن فوائداجتماعاتنا لم توفق الى المدى المرغوب . ثم عانقت زوجتي مداعباً إياها.. انها من الآن فصاعداً إلهة موضوعيتي ومصدر إلهامي . وقـد

٥

ها نحن نطل على (تسكاني) ، ولم يبق إلا قليلاً من الوقت لنصل إلى البيت . وها هي العربة تسير على مهل الى أن انتهى بنا المطاف الى البيت . انه يقع وسط مكان فسيح على سفح جبل متوسط العلو . ويشرف على سهل واسع ومزروع . لقد كان يحاط بحديقة صغيرة مزروعة بأشجار كثيفة ، تمنع النظر من العبور الى الخارج ، ولو من الطابق العلوي ، حتى ليصعب على الناظر أن يرى هذا السهل الواسع الجميل بمزروعاته وأشجاره وأزهاره وينابيعه . لذا لا يستطيع الانسان أن يتصور أنه في قلب هذا السهل . وإنما عزلته الأشجار عزلة النساك .

وتقع على مقربة من البيت عدة قرى كبيرة تنبسط على التلال الممتدة على جوانب السهل . مع أن أقربها يحتاج للسير بعربة طيلة ساعة ليصل إلى قمة إحدى الهضاب التي تقع خلف البيت . ومن اكبر هذه القرى بلدة كبيرة محاطة بأسوار منيعة . وهي مليئة بالقصور والكنائس والأديرة والمتاحف . ومع هذا كانت تعاني من مرارة الفقر والحرمان مما يجعلها من أفقر القرى ، أجل إنها « تسكاني »

وأما بالنسبة للبيت فيرجع تاريخه إلى قرن على الأقل ، ودليلنا إلى ذلك هو ضخامة الأشجار . وعلوها وهو يتألف من طوابق ثلاثة ، ولكل طابق ثلاثة شبابيك، وهذا النموذج من البناء يدل على بساطة وقدم . وأمام البيت كان يوجد فسحة صخرية واسعة تظللها شجرة كستناء . وينطلق من هذه الفسحه ، طريق يقود إلى باب الحديقه. وخلفها السور القديم فالطريق العامة .

لقد أشرت إلى أن الحديقة صغيرة المساحة لكنها كثيفة الأشجار ، ومليئة بالفجوات المظللة. حدودها لم تكن ظاهرة إلا من ناحية واحدة . أما الأطراف فلم يكن فيها فجوات لتعبر النور وتظهر النهاية. ظلال الأشجار كانت تحجب الحقول المزروعة . ولم يبد منها إلا النزر اليسير .

وفي الجانب القريب كان يوجد مزرعتان مرتبطتان بالسهل وتقعان على أحد أطراف الحديقة ، حيث يوجد تلة يمكن من أعلاها ، التمتع بمناظر السهل الفسيح بشكل كامل . بالاضافة إلى ذلك يمكن لأي انسان يقف في أعلى البناء أن يسمع أصوات الفلاحين ، وهم يحثون ثيرانهم على الاسراع ، بينما يقصدون العمل في الحقل . وغالباً ما كنت أشاهد دجاج المزرعتين على باب الحديقة الخارجي . يفتش عن شيء يقتات به .

أمـــا بالنسبة لداخل البيت فقد حوى نماذج من الأثاث القديم ترجع إلى العصر السابق. ومن بينها كرسي الامبراطورية،

أضف إلى هـــذا أثاث الأثرياء . إن آخر من سكن البيت جدتي أم والدتي التي عاشت قرابة قرن ثم انتقلت إلى رحمته تعالى . بعد أن جمعت بجشعها وصبرها – الذي يشبه صبر النملة – نقوداً تكفي لتشييد بناء بنفس الحجم .

فلقد اكتظ بجرارات وخزائن مليئة بأغراض متناقضة . من بينها (الأوعية – الشراشف – بنادق – خرق – أوراق قديمة – أدوات للطبخ – المصابيح – حافظ صوت بالإضافة إلى أشياء أخرى لا نهاية لها . غرف النوم كانت مظلمة ومجهزة بأربعة أسرة ، وخزائن ، وصور عائلية بالية . بالإضافة إلى عدد لا يحصى من غرف الاستقبال . وخصصت غرفة كمكتبة مليئة بالرفوف التي اكتظت بالكتب معظمها يبحث في تاريخ الأجداد . ناهيك عن كثرة التقاويم والبحوث العلمية حتى أن المكتبة خلت إلا من طاولة (بليارد) عليها شرشف ممزق . ولم يكن هناك كرات البتة وكان من الصعوبة بمكان أن يستطيع الانسان التجول في داخلها من مكان إلى آخر .

فقد بدا لي أن السكان الأصليين للبيت هم قطع لأثاث . ونحن دخلاء عليهم . على كل حـــال فقد نجحت في تفريغ صالون الطابق الأول . وأعدت إليه رونقه وجعلت منه غرفة لدرسي . وكل منا اختار غرفة لنومه . وقد اختارت زوجتي غرفة الجلوس اليومي (كبهو) لها حيث كان على أرضها كنبتان . لقد بدأنا حياة مرتبة منذ أول يوم ، وكأننا

في صومعة أنيقة. ففي كل صباح كان الخادم المسن يحمل الفطور على صينية وينقله إلى غرفة زوجتي ، فنتناوله سوية بينما هي في سريرها وأنا أجلس إلى جانبها . وعند نهاية الفطور أتركها إلى غرفة المطالعة ، حيث أجلس على المقعد وأبدأ محاولة للكتابة إلى أن ينتصف النهار ، فهو الوقت المناسب لزوجتي لتبرز نفسها ، بكل دقة وترتيب . وبينما هي تخلع ثياب النوم لترتدي ثياباً أخرى . تأمر الطباخ فيما يفعل خلال النهار ، عندئذ أترك عملي وأهبط إلى الطابق السفلي حيث تنتظرني فنتناول طعام الغذاء . على مائدة صغيرة أمام نافذة صغيرة تطل على منتزه جميل . وبعد الغذاء نحتسي القهوة تحت ظلال شجرة الكستناء ثم نفترق لننام بعض الوقت . ولم يطل هذا اللقاءالى أن نلتقي ثانية – بعد الظهر فور نهوضنا من النوم – فيالطابق الارضي .

لم يسمح لنا المجال بالنزهات في بلدة (تسكاني) إلا نادراً فهي شبيهة بحديقــة دون مقاعد وممرات رغم أنها مزروعة ، فعندما كنا نخرج للتنزه كنا نسير متبعين آثار أقدام المارة من مزرعة لأخرى ، أو نسير علىمحاذاة قناة ماء مليئة بالاعشاب تخترق السهل على طوله ، أو نسير على الطريق العامة ولكن دون أن نبتعد .

عند العودة من نزهتنا التي لا تستغرق أكــثر من ساعة ، أعطي زوجتي درسها الانجليزي وإذا ما كان هناك وقت أقرأ

عليها بصوت عال ، أو أدعها تقرأ الدرس لي ثم نتناول طعام العشاء ، وقد اعتدنا بعده أن نقرأ أو نتحدث . وبالنهــــاية يذهب كل إلى غرفته . ثم أتبع زوجتي الى غرفتها ۰ وقـــد حان الوقت لإظهار حبنا .

اللحظة التي ننتظرها كل النهار !.. كنت أجد زوجــتي مرتبة دوماً وعلى استعداد وكأنها كانت تهيء مكافأة لنفسها، لهوايتي بعد العناء الطويل . في هذه الليلة الجميلة بينما كان الناس يسكنون الى منازلهم ، وركنت الطبيعـــة الى السكون . فانعكست أشعة القمر على الأرض . فسلك من إحدى نوافذ الغرفة شعاع نحيف ، الى داخلها . فأضاء علينا حيث يتحول حبنا الى لهيب يتأجج بسكون كلهيب المصابيح الزيتية الـــتي كانت تضيء الشقة المظلمة . فأشعر ان حبي لزوجتي يزداد كلما مر يوم جديد ، فشعور كل مساء يبرز نفسه ليزداد قوةبشعور الليلة الأسبق كما هي نفسها لمتستنفذ كنز صبرها الطويل خلال هذه الليالي . ولأول مرة شعرت بازدياد العاطفة الروحية التي هي مزيج من التضحية القوية والإحساس البناء ۰ والتي لا حد لوجودها حيث تبعث على سعادة صادقة حيثما وجدت .

لقد أدركت لأول مرة ، الإحساس الفاشل في الزواج حيث أن بعض الرجال يرفقون برابطة الزواجأقوالهم :زوجتي وبنفس الطريقـــة التي بها يتحدثون عن البيت – الكلب – السيارة – .. ورغم الظروف الجميلة لم يسر عملي سيراً حسناً .

كان هدفي أن أكتب رواية أو قصة حول موضوع زواجنا، الذي أبهجني بشكل عظيم ـ قصتنا ـ قصتي وقصة زوجتي . وقد شعرت أنها لا تبرح من مخيلتي . وكنت أرغب أن تكون مجزأة إلى أدوار ظاهرة لكي يكون من السهولة جمعها. ولكني أجلس أمـــام مكتبي محاولاً الكتابة فتتبدّد كل الآراء من مخيلتي . فألهو بكتابة ورقة أو اثنين ، كتابة سخيفة غامضة تتخللها جمل لا تتناسق مع معناها وبهذا أكون قد كتبت مجموعة أسطر قليلة . أو أجلس ساكتاً أمام ورقة بيضاء . وأسرح بتفكير عميق ولكن الحقيقة كنت بعقل فارغ توقف عن التفكير . بيد أنه كان عندي تفكير . فقد قضيت بعض السنوات أكتب نقداً للجرائد وعلمت أن عملي لم ينجح . إنما كان يسير من سيء إلى أسوأ لقد كنت فيما مضى قادراً على إثبات رأيي على موضوع أوسعه . وهكذا أيمكن القول : رغم أن عقلي كان مرتبطاً بالعقائد كان بنفس الوقت على جانب من الجلاء والزهو للكتابة. لم تكن المواضيع التي أبحثها سخيفة لكن السخافة . الضعف كل الضعف كان في الأسلوب. بالرغم من وجود قوة شيطانية كانت تملأ صفحاتي بالجمل المتكررة بالأمثال ، وبالجمل الغامضة . أضف إلى ذلك حكماً شتى في وصف الأماكن العامة . وكنت على معرفة . بأنني بحاجه إلى اتباع الوزن ـ أقصد الطريقة المحببة التي يمكن ان تتصف بها الموسوعة النثرية كما هو الحال في القافية الشعرية. ومن المستحب إليّ ان أذكر يوماً كان عندي الوزن فيه صحيحاً ، إلى درجة

معقولة ، وكافياً . ولكن سرعان ما تغير من حسن الى رديء نتيجة الاضطرابات والضجيج . وربما كان بامكاني إهمال عملي بكامله ما دمت قد شعرت بحب عارم لزوجتي .الحب الكافي لسعادتي لو لم تكن هي نفسها التي تحثـــني على الاستمرار في الكتابة ولم يمر وقت إلا وتسألني بكل عاطفة ودقة وحرص كيف تسير كتابتي . ومع أن فشلي كان ظاهراً ، كثيراً ما كنت أجيبها بالغموض ولربما أضيف إلى ذلك بقولي : ان عملي يسير بتقدم وثبات .

وعلى ما يبدو لي انها كانت تدرك أهمية العمل . كأنــــه عملها الخاص المسؤولة عنه . فكان هذا يزيد من إقدامي الى العمل . ويدفعني الى التصبر ولو من أجلها ، فأستلهم أفكاري محاولاً أن أنهي قصتي . وكثيراً مــا كنت أوضح لها التحول العظيم ألذي أوجده وجودها في حياتي وهذا ما قلته لهاعندما عانقتها وهمست بأذنها قائلا : من الآن فصاعداً ستكونـــين معبودتي .. أجل ، باستفسارها هذا عن أشغالي اليوميةوكأنها تبعثني الى الإقدام . مثلها في ذلك كمثل سيدات الأساطــير الغابرة اللواتي يطلبن من فرسانهن قتل الأشباح الوهمية وإعادة الاستقرار الذهبي . ولن تعرف الأسطورة التي بها الفـــارس المتشائم الكئيب ، يعود من مطاردة الطريـدة صفر اليدين ، معترفاً بأنه لم يجرؤ على مجابهة التنين . إن إصرار زوجتي هذا دفعني الى الإقدام على العمل مع انها كانت جاهلة . وكل مـــا تعرف ان الارادة تبعث على الايحاء الشعري وتخلق القصائد

الجميلة . في أحد الأيام كنا نسير متنزهـين حاولت أن ألفت نظرها الى الصعوبات الجمة التي تعترضني في الإنتاج الادبي لكنها قاطعتني بقولها : أنا لست بكاتبة ولا أملك طموح الأديبة . فلو فرض عليّ لكان عندي الكثير الكثير ومما أقوله بالنسبة لعملك فأنا متأكدة من أنه يمكن أن أحدد رأيي على وجـه الدقة . ولقد نظرت إليّ نظرة ازدراء ، وأضافت بطريقـة مستحبة : ألم تذكر أنك وعدتني أن تكتب قصة عن حبنا ، فعليك الوفاء بوعدك !.. أما أنا فسكت ولم أتلفظ بكلمة ، إنما لم أستطع أن أمنع تفكيري الوثاب من الوقوف دونما ذكر الصفحات المكتوبة المكدسة على مقعدي .

لقد لاحظت أنني بعد كل استراحة مع زوجتي أجلس للكتابة برغبة جامحة ، وأسهب في الكتابة . ولكن لم يمض إلا قصير وقت حتى شعرت بدوار في رأسي وشعرت بحاجة إلى الاتزان والتحكم بأعضائي . ولكن الضعف سيطر علينا ، وتعهدت العلاقات فيما بيننا حدها الطبيعي . وهذا ما كنت اشعر به عندما أركن إلى الراحة . الغريب العجيب ... ومع أن إرادتي عظيمة . أستقر بضعفها أمام جمال زوجتي ولا أفيق إلا مختمراً من نشوة الحب . فينتابني الكسل أثناء عملي وأعلم علم اليقين أن هذا نتيجة ماقمنا من غرام في الليلة السابقة . وكثيراً ما كنت أنهض من سريري فيلفت انتباهي شبح غريب في المرآة . بدت أعصاب وجهه وازدادت نحولته فأتقدم بارتباك

وحيرة لأتأكد منه ولا ألبث إلا قليلاً لأعرف أن هذا الشبح ما هو إلا أنا . وتأكدت أن ما أقدمه لزوجتي كنت استبدله بما استوحيه منها على قدم المساواة .

إن هذا لم يكن بالفكر الدقيق ، كما أعبر عنه هنا بل هو العكس ، إحساس جامح وذهول مستمر ، بل بداية تشتت . إن قوتي الخلاقة كادت تنضب من جسدي . وفي اليوم التالي حاولت أن أنهض فاستغربت الأمر ، ها أنا أعاني صعوبة بالغة في النهوض ، علاوة على تشتتي العقلي الذي بدا كأشكال خيالية . والآن شعرت بمسؤوليتي أمام نفسي .

التشتت إما أن ينتهي كالخراج دون منفذ حتى الانفجار المفزع وإن أصاب أناساً أصحاء ، يجدون وسائل كافية للانعتاق من العناء .

وثابرت على غرامي مع زوجتي طيلة الليل ،وأطراف النهار مفكراً بأني على حق وتأكدت أنه ليس بامكاني العمل بسبب تعلقي به . ومن الانصاف أن أقول : أن هذا التشتت لن يُحدث أي تغيير في مجرى حياتي الزوجية أو علاقاتي الجسدية فكنت إذا ما لجأت الى التفكير انتابتني الانفعالات العاطفية .

كنت أنسى الحقيقة الواضحة وأخدع نفسي بالرغبة الجامحة المؤقتة ، فيسيطر عليّ تفكير ينسيني وضعي ، ويجعلني أفكر بأنني أستطيع أن أجمع بين غرامي وعملي . وبينما أنا أعمل في

اليوم الثاني كان يعاودني التفكير ، وما أن يحل المساء حتى أبحث عن الغرام ثانيــــة . وأعزي هذا التفكير ، الى الفشل بعملي لأجد مجالا للنشاط الذي لم يُستنفد بعد .

وبينما أستلقي على السرير الى جانب زوجـتي ، نتجاذب أطراف الحديث شجعتني في إحدى الليالي ودعتني الى الاعتراف بالحقيقة ، وإن كانت هذه الحقيقة تجد أهمية عندهـــا . لذا عليها أن تدرك مضمونها . وتأكد رفضها بأعذاري وبينما نحن بالسرير الى جانب بعضنا البعض بدأت قائلاً : استمعي إليّ . سأخبرك شيئاً لم أخبرك إياه من قبل .

كان الطقس حاراً وكنا كلانا مستلقيين عاريين فوق شراشف السرير حيث استلقت زوجتي على ظهرها ، ويداها متشابكتان وراء عنقها . على الوسادة بينما أنا بجانبها . وقلما تحرك شفتيها بيد أنها نظرت إلي بطريقتها المألوفة لتقول: أخبرني ما تريد .. فأردفت قائلاً : إنك تريدين أن اكتب هذه القصة .... نعم أريد هذه القصة التي تخبر عني وعنك.. ولكن... إذا استمر الحال على ما هو عليه الآن سوف لا أنجح بكتابتها ... ماذا تعني ... (والحال على ما هو عليه الآن) ؟ ترددت قليلاً ثم قلت : نحن نقوم بالغرام كل مساء أليس كذلك ؟ حسناً ... انني اشعر أن القوة التي أحتاجها لكتابة هذه القصة أستنفدت مني وأنا معك . فإن استمررنا على هذا المنوال لمن الصعب علي كتابتها. عندئذ نظرت إليّ بعينيها الواسعتين الزرقاوين. وقد

غمرها الحزن ولكن كيف يتدبر الكتاب الآخرون أمرهم ؟ لا أعرف كيف لكنني أتصور أنهم يقودون حياة عفة على الأقل في أوقات عملهم . أجل ... لكن (أنزينو) كان لديه عدة زوجات. فكيف كان يدير أمرهم ؟ لا أدرِ إن كان لديه مثل هذا العدد من الزوجات بل إنما كان لديه بعض الزوجات المختارات حيث تحدث عنهم الكثيرون ولكن برأيي كان يرتب أمره جيداً ... إن عفة (بودلير) معروفة لدى الجميع .

لم تقل كلمة واحدة. لقد شعرت أن منطقي بدا مسخرا، ولكن بدأت فكان عليّ الاستمرار . تابعت قولي بإيقاع عاطفي . انظري .. اني لأستطيع كتابة القصة . حتى أنني بوجه الإجمال أجد صعوبة في الكتابة . سأتركها ليسمح لي الوقت بكتابتها .. أرى أن الأهم هو حبنا . لكنها أجابت على الفور وهي مقطبة الجبين : إنما أريدك أن تكتبها..أريدك كاتباً .. لماذا ؟ أشعر بأنك تريد أن تقول الكثير .. ثم تابعت : بالإضافة الى ذلك عليك أن تشتغل كأي إنسان آخر. أهل ترضى السير بحياة فارغة ؟ وترضى أن تحصر طموحك بحبك لي . عليك أن تفكر إلى أبعد من هذا التفكير ، وأملي أن تكون رجلا عظيما . لكنها كانت تتحدث باندفاع . فبدا ذلك جلياً نتيجة تلعثمها بالحديث . وكانت لا تعرف كيف تعبر عن رغبتها . ولكن كل أهدافها تتمخض في أن تراني كما تريد .

فأجبتها : لا حاجة لي بأن أصبح كاتباً . ولكني شعرت أني كنت أخدع نفسي بهذا القول ، ثم تابعت : يمكنني بكل تأكيد أن لا أفعل شيئاً ، لكن سأستمر بالعمل الذي مارسته منذ زمن بعيد ـ أقرأ ـ وأقدر وأفهم ـ وأعجب بأعمال الآخرين ، بالاضافة الى حبك ، أو على الأقل لكي لا أكون كسولاً .. عليّ أن أبدأ بمهمة أخرى أو عمل آخر .

لا ـ لا ـ لا .. قالت بسرعة وهي ترتعش كما ترتعش نبتة وقعت في وعاء من الماء . وكانت تصر على الرفض بكل عزيمتها : عليك أن تكتب . وعليك أن تصبح كاتباً ..وبعد هذه الكلمات وقفنا لفترة صامتين .. بعد ذلك قالت : إن كل ما تقوله صحيح .. علينا أن نغير كل شيء .. ماذا تقصدين ؟ علينا أن ندع الغرام .. حتى تكون قد أنهيت القصة .وعندما تنتهي نبدأ من جديد . وأعترف أنني وافقت سريعاً على هذا الاقتراح المخزي الغريب . كان عنادي قوياً ، فدعاني الى أن أنسى الأنانية ، والمراوغة المتأصلة في نفسي منذ البداية.ولكن كبتُ هذا الحماس وعانقتها قائلا:إنك تحبينني وأرى اقتراحك هذا دليلاً عظيما على حبك إياي . ولكن الحقيقة انك علمت أن هذا الاقتراح هو كاف لي وعلينا أن نستمر في حبنا لبعضنا البعض دون أن نفكر بأي شيء آخر .. لا .. لا .. لقد قالت بدكتاتورية ودفعتني جانباً : ان هذا ما يجب أن نفعل . هل أنت غاضبة ؟ بالحقيقة يا « سلفيو » لماذا يجب أن أغضب انني بكل صدق أريدك أن تكتب تلك القصة ، وهذا كل

شيء .. لا تكن غبياً. وعندما قالت هذا مشيرة الى اصرارها العنيف ، وضمت ذراعيها حولي .

استمررنا على هذا الحال فترة قصيرة كنت أدافع بها عن نفسي ، وهي تصر بدكتاتورية ودون هوادة ، فقلت بالنهاية: حسناً سأحاول .. قد يكون كل هذا غير صحيح وقد أكون إنساناً دون ذوق ادبي .. إن هذا ليس صحيحاً يا « سلفيو » وأنت تعلم ذلك .. جميل إذاً .. أنهيت قولي بكل جهد ، كما تريدين .. إنما تذكري إنك أنت التي ترغبين ذلك طبعاً ... سيطر علينا السكون لوقت قصير ، ثم أشرت اليها لاحتضانها بين ذراعيّ ، لكن بالحال دفعتني جانباً . لا .. قالت : منذ هذا المساء وصاعداً علينا أن نكف عن الغرام. لقد ضحكت. كأنها تخفف مرارة رفضها وغمرت وجهي بيديها النحيفتين ـ وبرقة كمن يرفع إناءً ثميناً ـ وقالت : سترى الآن بأنك ستكتب كل أنواع الكتابة الجميلة . انني متأكدة من هذا . نظرت إليّ بامعان ثم أضافت قائلة : بطريقة غريبة : هل تحبني ؟.. لا حاجة بك لسؤال كهذا . ثم أضافت : حسناً سأكون لك عندما تقرأ لي القصة ،تذكر ذلك .. لنفرض انني غير قادر على كتابتها ؟ ! عليك أن تتمكن من ذلك .. لقد كانت دكتاتورية ودكتاتوريتها عن جهل،ودون خبرة. ولكنها بالوقت نفسه لا تلين . ومع ذلك فقد كانت محببة عندي . فكرت ثانية بفارس الأسطورة الذي طلبت منه زوجته قبل

أن تتبادل معه الغرام ، أن يقتل التنين . ولكن هذه المرة فتر غضبي بل فكرت بكل إعجاب .

انها لم تعرف شيئاً عن الشعر . كما هي الحال بمعرفتهـا عن التنين . إنما بسبب إعجابي بطلبها .

كانت وكأنها بمثابة تأكيد لعمل سماوي من الأعمال الخالدة. بالحال أصابني ذهول ممزوج بالثقة والأمل والشكر. ثم وضعت وجهي على مقربة من وجهها . ثم قبلتها بحنان وهمست : في سبيل حبك سأصبح كاتباً.. ليس بجدارتي وإنما بسبب حبك. لم تقل أية كلمة . عند ما نزلت من السرير وخرجت من الغرفة

بعد ذلك بدأت عملي ثانية ، بجرأة جديدة . وعرفت أن حساباتي لم تكن خاطئة . وإنه على أي حال . وحتى لو لم يكن هناك إرتباط بين الحب والعمل . والذي تأكدت منه هو أن العناد الذي ضغط علي قد تبدد. ولم يبق منه إلا الذي أخترته . ومن ذلك الحين فصاعداً ، كنت أشعر بقوة اكثر واكثر إيجابية . وعندما نظرت إلى ورقتي رأيتهـا خلاقة ، وهكذا بعد الحب الذي هو طموح حياتي الذي أنجزته . والشعر أيضاً . وقالت : مبتسمة بوجهي في كل صباح كنت أكتب بين العشرة والإثني عشرة صفحة ؛ حيث كان ينساب قلمي بسرعة هائلة . وبدون خطأ أو طريقة مخزية . عندئذ بما تبقى من النهار كنت أبقى دون قوة ، مصاباً أوشك على الموت وأشعر إن لا شيئاً يهمني سوى عملي حتى حبي لزوجتي ، بقي كل هذا رغم ساعات الصباح الجميلة المتبقية .

ورغم الرماد المتبقي من اللهيب ، بيد أن التأجج الجديد كان يلهب في الصباح الثاني .

بقيت أشعر باشمئزاز وألم لتحولي بكل شيء . ولقد تأكدت أنني لو استمر على هذا المنوال ، لأنهيت عملي بالحال حتى وفي وقت أقصر مما كنت أتوقع وشعرت أن علي أن أحضر نفسي بكل طريقة ممكنة لأجمع آخر حبة من هذا الحصاد المفاجىء الوفير . لم يكن أي شيء آخر يؤثر علي لو قلت أنني سعيد لكان قولي ضعيفاً واكتشفت أنني لأول مرة أغري بنفسي بعالم مستقل مليء بالواقع والغرام، لو ان زوجتي وقعت مريضة مني هذه اللحظة لم أشعر بقلق إلا لأنني أترك عملي. وليس لأنني لا أحب زوجتي . بل كما قلت احببتها اكثر من ذي قبل . إنما هي كأنها كانت منفية مهجورة مع أشياء أخرى . ليس لها علاقة بعملي البتة . كنت بالحقيقة مقتنعاً، لأول مرة بحياتي . وليس بمجرد إكتشافي حقيقة نفسي وهو الشيء الذي حاولته مرات عديدة دون جدوى ولكن أيضاً لأن شخصيتي كانت قد أخذت شكلاً لائقاً وحسناً . وبتعبير آخر أصبح عندي الاحساس الصحيح السليم كأديب ذي خيال جامح إلا أنني اكتب نموذجاً .

٦

بعد أن نهضت باكراً إلى عملي ، استمررت على هذه الحال الى المساء ، أتحسب الوقوع في عاطفة مفاجئة ، والصدمات والحيرة ، رغم أني بمظهري كنت بعيداً عن المطالعة الأدبية ؛ كنت في الواقع أحدق في عيني إلى ما كتبته في الصباح وأفكر فيما سأكتبه في اليوم الثاني .

تركت مكتبي بعدما قتلني النعاس وخرجت متوجهاً الى غرفة نومي . وبينما كنت أعبر الممر وقع ناظري على زوجتي فقلت لها : ليلتك سعيدة ، ومضيت الى غرفتي ، واستلقيت على الفراش ، ثم استسلمت للنوم وأنا مفعم بثقة لم أعهدها من قبل . ولقد ساعدتني الراحة الى أن أجدد نشاطي وأستعيد قوتي لأتمكن من كتابة القصة عند نهوضي من النوم في الصباح الثاني .

نهضت باكراً وقد تجدد نشاطي للعمل . وشعرت بأفكار كثيرة طرقت مخيلتي وكأنني استجمعتها خلال النوم ، كما تجمع أعشاب الحقل قطرات الندى وتدخرها الى الصباح . وبعد ان مكثت فترة طويلة على مقعدي ، أخذت قلمي وبدأت أكتب باسهاب ، الى أن انتهيت من كتابة عدة صفحات ،

فبدت كأنها نقوش تفيض من عقلي لتدون بالحبر على الورق .
فلم يحدث أي انقطاع أو تغيير بالمادة ، وكأن داخـــل عقلي
شريطاً لا يفنى وبكتابتي هذه كان كل ما علي هو أن ألف هذا
الشريط على صفحات الورق بكتابة أنيقة سوداء كما وأنه لم
يكن بهذا الشريط أشياء سجلت وفرضت إنما دار بعقلي كما
أردت له الدوران . وكان يعمني الفرح كلما أسرع في الدوران ،
وكما قلت آنفاً كان باستطاعتي أن أكتب بين عشر صفحات
واثنتي عشرة صفحة ، الى أن أشعر بالتعب الجسدي ، خشية
أن يكون لهذا السيل من النشاط ، ولسبب ما ينقص فجأة أو
يتوقف كلية . وعندما أمل الكتابة أترك مقعدي برجلـــين
مرتعشتين ودوار في رأسي وأمام هذا التعب البالغ أرى من
الحاجة أن أقف أمام المرآة لأرى ما بدا علي من آثار تعب
النهار ، فيتخيل لي أنه يمثل أمام المرآة عدة أشخاص تتضاعف
وتتقاطع ، الى أن تنتظم عندما يهدأ دوار رأسي ، فأفكر فيما
أعمل في الفترة المتبقية من النهار

بعد ذلك ذهبت الى المائدة ، لأتناول طعام الأفطار مع
زوجتي ، وكان إقبالي اليه عظيما ، حتى أني كنت أشبه بآلة
فرغت من الوقود وهي بحاجة اليه لتتمكن من متابعة عملها ،
بعد أن انتهيت من الطعام ، حتى شعرت في نفسي برغبـــة
للضحك فأخذت أعبث بالنكات وبالأقوال المزدوجة المعنى .
إن دهشتي عظيمة ، لأن هذا التحول كان جديداً بالنسبة لي

حيث كنت فيما مضى رصيناً مفكراً . وأرى من الواجب أن أشير الى الحقيقة الظاهرة وهي انني غالباً مـــا كنت أشعر بضعفي لكبح جمــاح نفسي إذا ما دعت الظروف الى ذلك . وكثيراً ما كنت أشعر بخجل بعدما أستسلم للرغبة الجامحة ولا أستطيـع التخلص منها وكنت في هذه اللحظة أجلس قبالة زوجتي على المائدة . ولكن رغم كل هذا كان عقلي لا يزال في الطابق العلوي حيث غرفة درسي ، أو بالأحرى حـــول مقعد الكتابة ، حتى ليبدو لي أن القلم ما يزال في يدي . أمــا ما تبقى من النهار فقضيته بالمرح حتى أضحى فرحي كفرح الرجل الثمل ، ولو كنت أقل حماساً أو ثملا . وأعترف بالحقيقة ، ان هذه العزيمة كان مصدرها زوجتي . وأقول ذلك: وعلى خلاف الطريقة والاستنتاج . القصة التي كنت اعمل على كتابتها لم تكن نموذجاً ، وإنما كانت حقيقة ترسخت في ذهني . الكمال ليس من شأن الانسان . وغالباً ما يميل الى الادعاء أكثر من الحقيقة ولو كان هذا الادعاء على حساب علاقتنا مع الآخرين ، أو على حساب أنفسنا . ولكي نتجنب الادعاءات ، علينا أن نبلور الهدف لاظهاره واضحاً وهذا على ما يبدو أجدى من الطريقة الحائرة التي نسلكها في الموضوع الذي هـــو بمتناول اليد . وتأكدت بأن أموري تسير بنجاح بعد تجارب فاشلة لمدة عشر سنوات .

السعادة بالإضافة إلى أنها تجعلنا أنانيين غالباً ما تجعلنا دون

تفكير . ولقد ذكرت فيما مضى لقائي بزوجتي كان نقطة الإنطلاق إلى إنارة الطريق . ومع وضوح هذه الحقيقة فإنني لم أتابع.

لقد كنت مشدوداً بعملي فلم أكثرت إلا للحوادث القيمة التي تعترضني حتى أنني كنت أجد صعوبة في الحلاقة. أو بمعنى آخر ، إنها كانت تحدث لي قلقاً عظيماً لهذا السبب ، لم يكن باستطاعتي الحلاقه بل كنت أستدعي الحلاق إلى البيت على موعد محدد . إنه « انطونيو » الحلاق . الرجل الصادق الوفي الذي يتقيد بالمواعيد ولا أذكر مرة تأخر فيها . كان يأتي من القرية المجاورة – بعد أن يوصد باب دكانه المتواضعة – راكباً على دراجة هوائية فيصل الساعة الثانية عشرة والنصف . إن وصوله كان الإشارة لي للتوقف عن العمل . علمنا بأن هذا الوقت يطابق أفضل أوقاتي طيلة النهار . حيث أتخلص من المرح الذي ذكرته سابقاً . والذي نتج عن شعوري بجودة ما أنتجت .

كان الحلاق قصيراً عريض الكتفين ذا رقبة غليظة ووجهه مستدير ولقد إعتدل طولا وعرضـاً . وكان وجهه يميل إلى السمرة. وقد بدت عليه آثار مرض الصفراء. إن اكثر ما ظهر من ملامحه ، عيناه الواسعتان المستديرتان المغمورتانن ببياض واضح وله أنف صغير وفم واسع تغطيه شفتان رقيقتان صغيرتان حتى لتبدو من خلالهما أسنانه السوداء ذقنه شديد الأنحدار . وبها انخفاض ظاهر يوحي بالألم . عندما كان يتحدث .

إن صوته هادیء دافیء ، ویدیه صغیرتان شدیدا التحول، وقد ناهز الأربعين من العمر.له زوجة وخمسة أطفالا.وبتفصيل آخر إن هذا الرجل لم يكن من «نسكانيا» إنما من «سبيسيليا» من قرية على مقربة من وسط(سيسلي). كان جندياً في الجيش. وصدف أن تعرف على فتاة أحبها ، من هذه القرية . فدفعه حبه لها للزواج منها . والسكن معها . وبعد أن أنهى خدمة العسكرية فتح صالونا للحلاقة وبدأ عمله به بينما تعمل زوجته في الحقل . لكنها كانت تترك عملها لتساعد زوجها يوم السبت في صالون الحلاقه . ليستطيع القيام بواجبه تجاه زبائنه الذين كانوا يتوافدون عليه بكثرة لأنهم في اليوم المقبل يستقبلون عطلة عن العمل .

كان انطونيو دقيقاً في مواعيده ؛ ففي الموعد المحدد ، أي في الساعة الثانية عشرة والنصف كان يستلفت انتباهي صوت حفيف دواليب الدراجة على الحجارة . وكان هذا بمثابة تنبيه لي للتوقف عن العمل . ولا يلبث إلا قليلا ليقرع باب غرفتي ثم يدخل ويوصده وراءه ، بهدوء ولطف ، فيعرض علي التحية وكثيراً ما كانت تأتي معه خادمة تحمل إبريقاً من الماء الساخن، ثم تضعه على طاولة بعجلات ، قريباً من الفرشاة والصابون ، وموسى الحلاقة ، بينما أدار ظهره ليسكب الماء الساخن في الكأس . ثم يبل الفرشاة ويحكها على الصابون لتحمل ما علق عليها الى وجهي . إن هذه العملية كانت تطول ، وتطول ..

ولا يتوقف إلا بعد أن يكون القسم الأسفل من وجهي قد غطته كتلة من الصابون .

بعد هذا العمل يترك الفرشاة ليأخذ الموسى ليبدأ بحلاقة وجهي ..

لقد شرحت هذه الحركات العادية بإيجاز بسيط ، لكي أعطي مثلاً واضحاً عن بطء ودقة حركاته ، ولكي أوجز استعدادي لتحمل بطئه ودقته . ومع هذا كنت لا أسر بالحلاقة ، نتيجة ثرثرة بعض الحلاقين ، التي كانت تسبب إزعاجي .. إنما الوضع كان مختلفاً كل الاختلاف بالنسبة « لأنطونيو » .

كنت أشعر ان الوقت قيّم .. الفترة التي كنت أجلس فيها على مقعدي ، قبيل وصوله بقليل ، فهنا أشعر انني حر وباستطاعتي أن أفعل ما أريد . أتحدث الى زوجتي أو أقرأ ، سيان عندي .

كان (انطونيو) ساكتاً لا يتكلم أبداً بيننا لم أكن أنا كذلك بعد هذا الحجز والعمل الطويل كنت أشعر بحاجة ماسة الى الراحة . كذلك أحدثه بأي حديث يعن لي .. فلربما يكون عن حياة الغربة ، عن سكانها .. عن محصولها .. عن عائلتي .. عن الطبقة الراقية. ولربما أتحدث عن الموضوع الذي يسرني أكثر من غيره . وهو المقارنة بين مسقط رأس انطونيو والبلد التي يعيش بها . لم يكن الخلاف شاسعاً بين « سيسلي »

و « تسكاني » .. بالحقيقة نجحت في أخذ معلومات عديدة عن « تسكاني » وسكانها والتي بها اعتقد انني استطعت أن أكتشف معنى الازدراء والامتعاض .رغم كل هذا كان يجيب على الأسئلة بخلق هادىء وبدقة متناهية . لقد كان عنده طريقة في التحدث بشكل هادىء مختصر لاذع وبأسلوب يبدو أن لا مثيل له . أضحك لبعض النكات وعندما كنت أحتدم غيظاً كان يتوقف عن وضع الصابون على وجهي أو يتوقف عن الحلاقة الى أن أهدأ ثانية .

٧

وفي حديثي مع الحلاق لم يكن لي هدف معين . وعلى ما أعتقد قد أوضحت هذا آنفاً . وبعد إسهاب في الحديث ؛ تأكدت أنني رغم كل الاسرار التي نلتها منه لم أتوصل إلى معرفة آرائه ، ولم أستطع التأكد من صحتها . ورغم أنه فقير ولديه عائلة كبيرة لم يكترث كثيراً لنقوده . إنه يتحدث عن عائلته بتجرد . ودون عاطفة أو قوة . أو أي شعور آخر . وكأنه يتحدث عن شيء طبيعي يدور في خلده .

في نفس لحظة الحديث.وبالإضافة إلى ذلك كان لا يكترث للسياسة مطلقاً حتى أن عمله ومع إتقانه له — لم تعنِ به أكثر من وسيلة للعيش . وأخيراً تأكدت من وجود غموض في هذا الرجل . إنما كان بطريقة يختلف بها عن الكثيرين . من الطبقة العاملة التي ينتمى اليها .

وفي كل يوم بينما كان « انطونيو » يحلق لي وجهي كانت زوجتي تأتي إلى الغرفة . وتجلس في الشمس أمام النافذة وإما أن تحمل كتاباً أو علبة لطلاء الأظافر .

لا أعرف ما هو هذا الشعور الذي عكس علي السعادة

عندما دخلت زوجتي كالسرور الذي شملني بمجيء انطونيو رغم اختلاف الطريقة . عند دخولها وجلوسها بالغرفة التي كنت اعمل بها قبل فترة قصيرة . إنها تساعدني على تجديد عزيمتي للعودة إلى العمل برغبة . أعني الجو الناعم الهادىء المنتظم الذي يدفعني إلى الإستمرار . بعملي بنشاط وتفكير سليم. بين الفينة والأخرى كنت اتوقف عن ثرثرتي مع الحلاق لأسألها مداعباً: عن حالها ، أو ما اسم الكتاب الذي تقرأه، أو ماذا تفعل ..؟ . فتجب بإمعان وهدوء ، ودون أن تقلع القراءة إن كانت تقرأ،أو تقلم أظافرها إن كانت تفعل ذلك

بينما هي تجلس ، كانت الشمس تنعكس على شعرها الأشقر الجميل والمتدلي على جانبي وجهها بينما تطرق ر سها دون حراك حتى ليبدو منظرها أجمل من منظر الحديقة التي غصت بالأزهار .

ان بريق الشمس على شعرها عكس ألواناً بنية فاتحة ،على أثاث الغرفة بينما عكس موسى الحلاقة أشعة قاتمــة ، انتشرت برقة على عتبة النافذة ، حتى عمم النور الغرفة بأ كملها،وانتشر على الأثاث البالي والكراسي والطاولات القديمة .

كنت سعيداً للغاية إذ انني فكرت في أحد الأيام ان هذا المنظر لا يمكن أن يمحى من مخيلتي ما حييت .. والآن أجلس على الكنبة بينما « أنطونيو » يحلق لي . النافذة مفتوحــة والغرفة مليئة بنور الشمس ، وزوجــتي تجلس حيث انتشرت الأشعة .

وفي أحد الأيام وبينما « انطونيو » يتابع عمله بحلاقة ذقني، أقبلت زوجتي تتوشح بعباءة جميلة وبعد أن سلّمت ، طلبت من « انطونيو » أن يصفف لها شعرها ، وأضافت قائلة : ان كل ما يحتاج هو لمسة صغيرة بمصفف الشعر الذي كانت قد غسلته بنفسها عند الصباح ، وسألت « انطونيو » إذا كان يستطيع أن يقوم بهذا العمل ، فأجابها بقوله : نعم.. فطلبت منه أن يذهب الى غرفتها بعد أن ينهي لي الحلاقة .

خرجت زوجتي ، فسألت « انطونيو » إن كان سبق له ومارس العمل في تزيين شعر السيدات ، فأجاب بغرور : ان كل فتيات القرية يقصدنني الى صالون الحلاقة لهذا الشأن ومضى قائلاً : ان سيدات اليوم ، وحتى القرويات منهن يمارسن التصفيف الدائم . انهن لا يختلفن عن سيدات المدينة . وتابع حلاقة ذقني ببطئه المعهود ، وبدقته المعروفة . وبعد أن جمع أدوات الحلاقة تركني وذهب الى غرفة زوجتي .

وبعد أن خرج « انطونيو » جلست تحت أشعة الشمس على كنبة حيث اعتادت زوجتي الجلوس ، وبيدي كتاب أذكر اني كنت أقرأ فيه قصيدة « أمنتا » للشاعر « طاسو » فبدأ بتكرار قراءتها في هذا الوقت معجباً بها ومنسجما معها انسجاماً كلياً ، جعلني أنسى انني كنت أنتظر زوجتي بين الحين والآخر ، وبعد أن أنهيت قراءة بعض الأسطر الجميلة كنت أرفع نظري نحو النافذة ، وأردد هذه الأسطر

مخيلتي . وكلما تابعت هذه الطريقة كنت أشعر ان سعادتي تزداد ، وكأنني انسان أقعده التعب فاستلقى على فراشه براحة بالغة .

بقي « انطونيو » فترة من الزمن تقارب الساعة عند زوجتي وفجأة قطع تفكيري صوته وهو يقول للخادمة : أستودعك الله ، بصوت هادىء . ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى سمعت صوت دواليب دراجته ، وكلما ابتعد أكثر فأكثر تلاشى هذا الصوت . وفجأة دخلت زوجتي فوقفت منتصبـــاً على قدمي لأنظر اليها ... يبدو ان انطونيو قد حل المشكلة ؛ لقد حول شعرك الى ضفائر ، كالزي الذي ساد في القرن الثاني عشر .. فبدت زوجتي بطابع غريب ، وكأنها قروية تلبس ثياباً أنيقة . بدا عليها مظهر السذاجة ، بيد أنه تحسن بباقة من الورود الجميلة ، التي بدت فوق صدرها الأيسر .

جميل ! صرخت صرخة انشراح .. حقاً ، ان «انطونيو» لساحر !.. « ماريو » و « أتيليو » وغيرهمـا من المزينين لا يمكنهم المفاخرة بمهارتهم إذا وجد « انطونيو » فهم لا يستحقون أن يعملوا خدماً عنده .. انك شبيهة بقرويات المنطقة ، وهن في طريقهن الى الكنيسة لتأدية صلاة الأحد .. ثم أشرت الى شعرها قائلاً : هذه الزهور في منتهى الجمال ، دعيـــني أنظر اليك .. وما أن انتهيت من الكلام حتى حـاولت أن أجعلها تدور قليلا لكي أستمتع بمنظر الحلاقة أكثر فأكثر ، لكن

لشدة دهشتي .. لقد بدت علامات الغضب عليها ، وأخذت شفتها السفلى ترتجف – وهذا ما يدل على غضبها – وفجأة دفعتني جانباً : أرجوك .. لا أشعر بقدرتي على تحمل المزاح الآن .

فلم اكترث لغضبها .. وتابعت مازحاً : تعالي لا حاجة للخجل .. انني اؤكد لك أن (انطونيو) قام بعمل فاخر .. انك بالواقع جميلة .. لا تخافي ستظهرين جميلة – لأول مرة – يوم الأحد المقبل ولا أشك أنك لو حضرت حفلة رقص ستلقين عروض زواج كثيرة .

على ما يظهر فان هذا الغضب الذي بدا على زوجتي كان نتيجة لما فعله « انطونيو » ، وكل ما أعلم عنها هو انهااعتادت على الصدمات . وليست هذه المرة الأولى التي يسببها مصفف الشعر « انطونيو » . إنما دفعتني جانباً مرفقة ذلك بنظرة شذر . وأردفت تقول : قلت لك سابقاً أرجوك لا تمزح .. لقد بدا لي ان غضبها كان سببه شيء آخر ، بالاضافة الى غضبها الناتج عن تصفيف شعرها الفاشل .. ما هو ؟ ماذا حدث ؟

والتفتت فجأة لتقول : ان ما حدث هو انه عليك أن تبدل الحلاق غداً . فأنا لا أريد أن يأتي « انطونيو » الى هنا. أصابني ذهول !.. إنما لماذا ؟ فأجابت : انه ليس بحلاق يتلاءم مع العصر ، فأجبتها .. وأنا أدرك هذا : إنما يحلق لي

جيداً .. فيجب أن نوطد علاقتنا معه أكثر مما عليه الآن .
ولكنها صرخت بملء فيها : آه يا سلفيو ألا تريد أن تفهم علي ؟ الأمر لم يكن مجرد إجادته للعمل .. ماذا ينفع هذا ؟
ما الأمر ؟

كان ينظر إليّ نظرة غريبة . ولربما يقصد منها أهدافاً أخرى . أنا لا أريده أن يعود ثانية .

صحيح هذا ... ماذا تقصدين ؟

يبدو أنه ما زال بصوتي وتعبيري الغرابة التي تعتريني كل صباح وبمثل هذا الوقت . لكنها أضافت بغضب وسخرية .

ولكن ماذا يهمك إن أساء إلي انطونيو ... ؟

طبعاً لا يهمك !. ماذا تقصدين ؟ وكنت أخشىأن أكون أغضبتها فدنوت منها قائلاً: وقد بدا علي الجد، الرجاء المعذرة إن أخطأت ربما لم أفهم الحقيقة منذ البداية .

أرجوك أن تخبريني بأي طريقة تصرف معك «إنطونيو» الرجـــاء أن تسرعي . يبدو ان تصرفه لم يكن يخلو من الغرابة ...

نعم في منتهى الغرابة. إن تصرفه بالنسبة لي عبر عن عدم احترامه أياي .

وصرخت وهي ترتعش من الغضب . ثم التفتت نحوي مرة أخرى وعلامـــات الحزن بادية على عينيها . يكفي ما قلت سابقاً ...

إنه رجل لا يستحق أن يدخل إلى بيتنا .. أطرده ...
علينا أن نجد غيره يحل محله فأنا لا أريده أن يدخل منزلنا أبداً .

لم أفهم ..! عليك التوضيح . لا أعرف عنه إلا الصفات الحميدة . فضلاً عن أنه ينتمي إلى عائلة كريمة ..

ثم مضت في حديثها بتهكم وسخرية . إنه ينتمي إلى عائلة. أعذرني ... أنت تعلم الحقيقة . لا حاجة لك أن تسألني عما فعل إنك تقول إنه كريم الأخلاق ، صحيح ما تقول ... الرجاء المعذرة .

فأعجبت لهذه الطريقة التهكمية وقلت : هل لك أن تخبريني بالحقيقة .

واحتدم الجدل فترة طويلة فيما بيننا واستمررت في الإصرار لمعرفة الحقيقة . كيف أن (أنطونيو) لم يحترم زوجتي . لكنها ظلت مصرة على رفضها . بالنهاية وبعد نزاع عنيف . روت لي ما حدث .

لقـــد كان على (أنطونيو) ليقوم بعمله أن يقترب من الكنبة التي كانت تجلس عليها زوَجتي . وتأكدت من أنه كان يقوم باحتكاكات مقصودة بكتفها وذراعيها . مع ذلك تابع عمله بهدوء وسكينة . إنما الاحتكاكات لم تكن عفوية . لكنها تأكدت من أنه يقصد تأسيس علاقة معها . فيسلك معهـــا السلوك الذي يجلب الخزي والعار .

وبعد أن انتهت من حديثها سألتها .. هل أنت متأكدة من قصده؟ وكانت الدهشة ظاهرة علي .. كيف لا يا«سلفيو»؟

أتشك بما أقول ..؟ قد يكون مجرد توهم ...

توهم ..؟ إنه كلام فارغ ...

يجب أن تنظر اليه نظرتك إلى رجل عديم الشرف .

ذلك الرجل الأصلع . الغليظ العنق . ينظر اليك من تحت جفونه ثم ينظر بجرأة إلى وجهك . . .

إنه رجل خبيث فقد كرامته . هل هذا صحيح ... ؟

أغبي أنا لهذه الدرجة .... ؟

قد يكون من جراء الهدف . . . إن عمل الحلاق يجبره على الأقتراب ممن يحلق له

لا ... لا . لم تكن صدفة ... تحدث الصدفة لمرة واحدة . اما في الاستمرار عليها فتصبح عادة . .

دعينا نرى علينا أن نجرب .... اجلسي على الكرسي وأنا امثل «انطونيو» علينا أن نتأكد .. مع انها كانت على درجة عظيمة من الغضب فقد وافقت على طلبي مرغمة .... وجلست على الكرسي . أخذت القلم متضاهراً أنه مصفف الشعر . واتكأت فوقها لأصفف لها شعرها ..... بالواقع بهذه الحالة كما تصورت . كانت المنطقة الحساسة . على مستوى كتفها وذراعيها . ولم استطع الابتعادعنها لأنني وجدت متعة في هذا الاحتكاك رغم أنه لم يكن سوى مجرد تجربة . للتأكد من صحة ما تقول زوجتي .

والتفت إليها لأقول : نعم . إنك على حق .

إنه لم يستطع الإمتناع عن الاحتكاك بك . لكني أرى أن من المتوجب عليك الإبتعاد قليلاً إلى جهة أخرى .

إنني فعلت ذلك لكنه انتقل إلى الجهة الثانية .

ربما فعل ذلك ليصفف شعرك من الجانب الآخر . ولكن يا « سلفيو » أيمكن أن يتوصل إلى هذه الدرجة من الغباء ؟

يخيل إلي إنك تتعمد هذا السؤال . إنني أخبرك أنه تعمد ذلك . والقصد يرافق كل حركاته .

كان السؤال على شفتي ، لكنني ترددت بسؤاله ..

ثم التفت إليها قائلاً : وبالنهاية . أحدث احتكاكات واحتكاكات ؟

هل شعرتِ أنه عندما كان يحتك بك كان ... ماذا أقول ؟ ملتهباً ؟

كانت تجلس على الكنبة وأحد أصابعها بين أسنانها معبرة عن حيرة عظيمة بدت على وجهها الغاضب .

طبعاً لقد أجابت وهي تهز كتفيها استنكاراً . حتى انني لم أفهمك أو انني لم استطع أن اوضح لك رأيي .

واصررّت على سؤالي لها أنت متأكدة من أنه كان ملتهبا

نعم ....!

شعرت الآن ان دهشتي بسلوك إنطونيو. إنها لم تكن تلك الفتاة الصغيرة بل هي السيدة المحترمة وذات الحيرة الواسعة .

بالإضافة لهذا تأكدت أن زوجتي لا تميل الى هذه الأمور المخزية .

كل ما استطعت أن أفهمه منها هو أنها روت هذه الحادثة على وجه الدقة دون تضخم الحقيقة . وأجد أن من المتوجب عليها أن تخبرني الحادث بأسلوب تهكمي . وبدون عنف أو كراهية وبحيرة قلت : لكن هذا لا يدل على شيء. قد يحدث لغيره من الناس ولو باحتكاك غير مقصود . ما حدث معي وأنا بين جمهور من الناس.أو في القطار إذا صدف لي والتصقت بامرأة . فاستمتع دون أن أقصد ذلك. النفس تشتهي وتابعت حديثي مداعباً. رغبة في تهدئتها ومضيت أقول: النفس أمارة بالسوء آه يا الهي إنها لم تقل شيئاً ... لقد أطرقت الى الأرض وسرحت في تفكير عميق . بيد أنها بين الفينة والأخرى كانت تعض بنانها متأثرة بما يجول في خلدها من حزن وقلق واضطراب. فظننت أنها هدأت ، فتابعت مازحاً . حتى القديسون هم عرضة للإغراء فكيف بالحلاقين ... ! مسكين « انطونيو » لقد شاهد أمرأة جميلة . ووجد الوقت الملاءم ولكنه لم يستطيع تنفيذ رغبته . إن هذا العمل غير لائق له ولك — وهذا كل شيء ...

وبينما أنا أشرد في تفكيري ، ويغمرني الفرح نتيجة ما حدث لزوجتي ، وبعد أن أطلق الضحك ، اكتشفت هذا في الوقت المناسب وأرغمت نفسي على الاتزان مرة اخرى ، ثم

تقدمت من زوجتي وطلبت منها المعذرة ، فأنا أعرف انني سلكت طريقة غير مستحبة في الحديث ولكنني أقول بصراحة: كنت عاجزاً عن السير بجدية في الحديث معها لأن « انطونيو» هو في رأيي انسان بريء .

قالت : لا شيء في حديثك يسرني . ان ما أبحث عنه هو مدى استعدادك لطرد « انطونيو » وهذا كل شيء على ما أعتقد .

لاحظت سابقاً ان سرورنا يجعلنا أنانيين ،وفي هذه اللحظة وصلت أنانيتي أقصى حدودها ، لأنني كنت أعلم انه لا يوجد في القرية حلاق آخر يسير بضعة أميال كل يوم ليأتي ويحلق لي فيجب علي بعد أن حدث ما حدث أن أزيل فكرة الحلاق من تفكيري وأحلق بنفسي . ولكن ، بما انني لم أمارس الحلاقة بيدي في بادىء الأمر فأنا الآن عاجز عن القيام بهذا العمل ، ومن الطبيعي أنه سيحدث في ذقني جروح وخدوش ، ولربما تعدى الأمر ذلك . وهذا ما يسبب لي تعطيل عملي الذي كنت أرغب له أن يسير بسرعة أكثر.

لقد كنت أرغب في أعماق نفسي في الهدوء والاتزان ، لأن هذا ما يتطلبه عملي ليسير بنجاح وتقدم . والتفت إلى زوجتي بعد أن تحولت إلى الجدية على أكمل وجه، وقلت لها: لا يمكن أن تجعليني أن أصدق أن « أنطونيو » قليل الإحترام لــــك .

هل نتكلم بتصميا ؟

نعم ...

يعني انك لا يمكن أن ...

كيف لي أن أفعل هذا ..؟ ما هو السبب ...؟

وبأي عذر أتذرع له ...

أي عذر ؟ أخبره أننا راحلون ...

إن هذا من باب المراوغة . وسيعلم الحقيقة على الفور .

هل يهمني ذلك ...؟

كل ما يهمني . هو ألا أراه يدخل ثانية هذا البيت .

ولكن هذا ليس من المعقول ... !

إنك لا تريد أن تفعل ذلك ... ! صرخت بقنوط وحزن بالغين عليك أن تفكري يا عزيزتي بعض الوقت ... مـــاذا يجدي الغيظ بدون سبب ...؟ الرجل الفقير الذي ...

هل هو فقير ...؟ إنه يتصف بأردأ صفات الإنسان .

أضف إلى ذلك ، ماذا سأفعل بالحلاقة ...؟

أنت تعرفين جيداً أنه لا يوجد حلاق قريب يمكن أن يقوم بالعمل مكانه .

عليك أن تحلق بنفسك ...

لكن هذا صعب بالنسبة لي ...

ألِى هذا الحد الضعف ...؟ ألم تكن مثـل غيرك من الرجال ...؟

– لا .. لا ، أستطيع الحلاقة .. ماذا أفعل ..؟

– أطل لحيتكَ وهذا كل ما في الأمر ..

– أرجوك لا ، لا أستطيع ، لا أستطيع النوم عندما.. ولو لفترة قصيرة ... سكتت هنيهة . وفجأة صرخت بصوت عال : انك ترفض ما أقول لك .. وتصر على رفضك ..!

– ولكن يا ليدا ..

– نعم ، انك ترفض تنفيذ رغبتي .. وانك ستجبرني أن أراه مرة ثانية . أراه ثانية .. أبداً أبداً .. انك تجبرني على الاحتكاك به مرة ثانية .. انني لا أريد إرغامك أن تقوم بأي عمل .. .

– لا حاجة لأن تظهري .. تستطيعين البقاء في داخل الغرفة ..

– فمن الواجب عليّ بعد هذا أن أختفي داخل بيتي .. لأنك لا تفعل ما يرضيني ..

– ولكن يا ليدا ..!

– دعني وشأني ..! وفي هذه اللحظة اقتربت منها محاولا أن ألمس يدها ، لكنها صرخت بغضب : اتركني .. أريدك أن تطرده ، هل تفهم ماذا أريد..؟

قررت ان من واجبي اتخاذ موقف حازم .. فقلت: اسمعي يا ليدا .. أرجوك ألا تستمري على هذا الحال .. ان هذا مجرد تخيل وأنا لا أريد الاستسلام للأوهام .. إنني الآن

سأكتشف الحقيقة .. وإذا ما تأكدنا من صحة الاتهامات علينا أن نطرده دون أن نفكر بالمصاعب .

– نتأكد .. ثم وقفت بغضب ، وتركت الغرفة دون كلام .

هكذا أصبحت وحدي ، وبدأت أفكر بالحادث ، وكنت مقتنعاً ولا مرية بأن الأمر كما قلت سابقاً .

ان انطونيو حاول كبح جماح غريزته لكنه لم يستطع الى ذلك سبيلاً . وأنا متأكد من أن الإحتكاكات العفوية . تقود إلى احتكاكات مقصودة . وطبيعة عمله تفرض عليه ذلك . واعتقد بأن العلاقات الجنسية أقوى من أن تقاوم ولو عمد الإنسان إلى مقاومتها برغبة كلية .

هذه الأعتبارات القائمة على النية الحسنة بددت آخر تأنيب للضمير . وعرفت أنني كنت أعمل بالأساس بدافع الأنانية . لكن هذه الانانية لاتتعارض مع ما أعتبره الحكم الصادق . كنت معتقداً من براءة « انطونيو » ، ولهذا لم أشعر بريبة لكشف رأيي قبل الحكم لأقول : كان مجرد تخيل من جانب زوجتي .

بعد بضع دقائق إنضممت إلى « ليدا » وجلسنا إلى المائدة وقد بدت هادئة للغاية . كما يبدو لي .

وبعد أن فرغنا من الطعام ، وخرجت الخادمة لتنقل الطباق إلى المطبخ التفتت الي «ليدا» قائلة : جميل .... إنك

تصر على أن يحلق لك «انطونيو» جميل هذا وأنا لا أشك.... ولكن عليك أت تدبر الأمور كيلا اراه ثانيه في البيت .... حتى ولو صدف والتقيت به على الدرج ، لا أريد ان أراه ابداً .. عليك أن تفكر بالأمر ..... ثم تابعت تقول : قد يكون ما أقول مجرد وهم ، لكن مع ذلك فأنا أرى أن خيالات يجب أن تكون موضع اهتمامك أكثر من راحتك ، ألا تعتقد بذلك ؟

لقد كان الأمر على عكس ما كنت قد قررت، ولم استطع أن أصر على هذا القول بعقلي،وفي هذا اللحظة دخلت الخادمة وانقطع الحديث، وبعد فترة قصيرة تركنا البيت وتابعنا النزهة كعادتنا ، وفي اثناء الطريق حاولت العودة إلى الحديث ثانية، لكنني شعرت بتأنيب الضمير ، لأنني رغبت من زوجتي أن تكون مقتنعة بمنطقي. ولكن هذه المره ولشدة دهشتي قالت بلطف: دعنا ننتهي من التحدث في قصة «انطونيو» «ياسلفيو» إذا كنت لا تمانع في متابعة هذا الحديث. فقلت: لها لا امانع فقالت : يبدو أن الأمر قد أتعبني. وأنا لا أعرف ما السبب، ولكن الآن بعد أن فكرت عدة مرات لم يعد الأمر يهمني بالمرة . وشعرت بالارتياح ولا أدرِ ما السبب .

آه يا لفرحي لقد بدت زوجتي وقوراً إنها لم تعد تكترث ما فعله الحلاق، وها هي تعبر من خلال حديثها عن ندمها على غضبها ... وعند الصباح ... سألتها هل أنت متأكدة مما

تقولين ؟ واصررت على السؤال – نعم،يمكنني القسم بقولها.. لا حاجة للكذب بأمر كهذا . وسكتنا فجأة ... ولفترة طويلة . ثم تابعنا الحديث – بمواضيع أخرى وهكذا كنت متأكداً من أن زوجتي ، لم تعد تفكر بالموضوع مطلقاً وهي الآن قد عادت الى ابتسامتها وتخلصت من غضبها السابق .

واليوم ، وبعد ما مرت الأيام سراعا . وأصبحنا كأننا استفقنا من نشوة الحلم.لا بدلي عندما أروي حادثة «انطونيو» إلا وأن أرسمها بالنسبة لمجرى الاحداث التي حدثت قبلها ، وبعدها . يخيل الي أن كاتب التاريخ قد ينهج نفس الطريق غير أن الأحداث تتفاوت أهميه بالنسبة للأبطال الذين أرخنا قصصهم . وبالنسبة لجمهور المتفرجين .

عرفوا الثورة الفرنسية بأنها كانت حادثة تاريخية مهمة فلا يمكن الربط بينها وبين حادثة بسيطة لا أهمية لها لقصة إنطونيو،وعندما أندلعت الثورة الفرنسية لم تأت قصة انطونيو لمخيلتي وماهذا إلا لأنني لم أكن مهياً لأعير إهتماما لحدث بسيط كهذا .

لقد كانت علاقتي بزوجتي علاقة تفيض بالحب المتبادل والسعادة التامة . ولذا لا يمكن لأحد أن يصطاد في الماء العكر ، ومن الواجب عليّ أن أصر على البراءة في عقلي لتزيل الأنانية ونشير الى سهولتي . بالواقع مهما تكن الأسباب لم أحبذ التفكير الذي لا يمت ، الى الحقيقة بصلة وثيقة . وأرى من

المستبعد أن أصل الى منظر من مناظر التمثيلية يريده بطلها .
وفي اليوم الثاني عندما طرق « أنطونير » غرفة درسي في الوقت المحدد بدا لي انني لم اشعر باضطراب أو حنق،ولكنني ما زلت على طبيعتي المعروفة عني فيما سبق . وبدأت وكأنني أحلل عقلية هذا الرجل على ضوء المعلومات القديمة والحديثة والاتهامات التي أوضحتها زوجتي .

لأول مرة ، وبينما يحلق لي ، وأنا أتحدث معه كالعادة،مع انني كنت مشمئزاً من التحدث اليه ، وفي نفسي رغبة شديدة لمراقبته بعد ما فعل ما فعل . كان صاحب عزيمة كالعادة في عمله . انه يقوم بعمله بخفة ومهارة . فكرت في نفسي لو ان اتهامات زوجتي حقيقة . بالطبع سيكون مـــاهراً في الرياء كمهارته في عمله ، ولكان وجهه المتكتـل العريض يجب أن يبدو شارداً ، يعلوه الاصفرار .

ان اقوال زوجتي ما زال صداها يتردد في اذني . انــه رجل نحيف غضوب ، طغت صفاته الشاذة على صفاته الحسنة. لكن بعد تفحصه باهتمام بالغ ، كنت مجبراً على الاستنتاج بانه لم يكن هناك ما يثير الغضب ، وإن ما به من صفات ظاهرة هي مظهر الأبوة . مظهر الأب المعتاد الذي يهتم بخمسة أطفال، مظهر يدل على الشكل السمح المتساهل . أضف الى ذلك انه لو فرضنا بأنه عمل على ملاحقة النساء فهو لا ينجح وخاصة مع امرأة جميلة متزنة كزوجتي ، اذ هنالك اختلاف في المركز وفي

الطبيعة ، بالإضافة الى تفاوت ظاهر في الجمال ؛ فمظهره مشوه الى درجة لا يمكن معها وصف مظاهر البشاعة لديه .

ان صحته لم تكن جيدة ، بالاضافة الى مظهر غريب بين فكيه ، وعند رقبته ؛ فقد ظهر عليه التورم ، وهو بمظهره هذا أشبه بمظهر الثعابين التي تعيش في المناطق الاستوائية عند غضبها . له أذنان تتدلى منهما حلمتان كبيرتان تتذبذبان عندما يحرك رأسه يمنة أو يسرة . ورأسه !.. كل الغرابة في رأسه !.. انه أسود لكثرة ما تعرض للشمس . ولعل من يراقبه ملياً لا يتمالك نفسه عن الضحك . وقد غطى بشرته شعر كثيف، فلم يبق في جسمه مكان إلا ظهر فيه الشعر بكثرة لا توصف، فمن أذنيه الى أنفه الى وجهه ، حتى لأعترف بالعجز عن تصوير قبحه .

بعد أن تفحصنا هذه البشاعة بدقة مبهجة وغريبة اغتنمت الفرصة عندما أدار ظهره ليمسح موسى الحلاقة بالورقة لأقول له : كنت دوماً أتساءل يا «انطونيو » فيما مضى إذا كان رجل مثلك يجد الوقت الكافي لمغازلة النساء ، بالإضافة الى انك متزوج وتعيل خمسة أطفال ..؟

فالتفت إليّ والابتسامة تعلو وجهه ، وموسه في يده وقال : بالنسبة لهذا الأمر يا سنيور « بلداتشي » يمكن ايجاد الوقت متى تشاء !..

بالواقع لقد فوجئت بهذا الجواب لأنني كنت انتظر جواباً

آخر ، فقلت له : ألم تكن زوجتك حسوداً؟

– ان كل النساء حسودات !..

– هل أنت غير مخلص لها ؟..

وفي هذه اللحظه سحب موسه ونظر في وجهي وقال : أرجوك ، المعذرة (يا سنيور بلداتشي) إنما هذا هو عملي .

لقد تصرفت تصرفاً غير لائق فشعرت بغباوة في هذا السؤال ان كان يجب علي أن أسأل كرئيس لمرؤوس . إنما وصفني الآن في منزلته ، ولذا غمرني الخجل واحمر وجهي . وكنت مرغماً على الإجابة . هذا ليس من شأنك بل هذا شأني . ما دمت قد وصلت بوقاحتك إلى زوجتي . وحاولت فجأة أن أغير الموقف فقلت يجب عليك أن لا تتعب يا «انطونيو» ... لم أكن أقصد شيئاً فأجاب .. طبعاً لا .... ثم وضع موس الحلاقة على ذقني وبدأ يحلق لي ببطء وأردف يقول ، وكأنه يريد أن يخفف حدة السؤال الأول : لماذا يا سنيور «بلداتشي» كل فرد يميل إلى النساء. حتى رجال الدين. إن «سان لورانسزو» كان عنده إمرأة أنجبت له طفلين .... لو استطعت الدخول إلى عقول البشر ، لعرفت . وعرفت مدى ميل كل انسان الى المرأة .... لكن لا أحد يمكنه التحدث بهذا الشأن لأنه شيء طبيعي ، يكمن في طبيعة البشر ولا يمكننا تحديد العلاقة بين الرجل والانثى، لأننا إذا تحدثنا يصبح الامر معروفاً ويبدأ البشر بالقيل والقال . والنساء كما تعلم يملن إلى الرجال الذين لا يتكلمون .

لذا نرى من الملائم أن نسكت ولا نتكلم .

وهكذا قرأ عليّ درساً عن أهمية السر في شؤون الحياة ، وتركني حائراً بعد أن أكد لي بأنه ينتمي الى هذه الفئة من الناس الذين لا يتكلمون كثيراً ،وتثق بهم النساء . لم أقل اكثر مما قلت عن هذا الموضوع في ذلك الصباح ، بل انتقلت الى موضوع آخر . واندس الشك الى عقلي بعد كل الاتهامات التي أوضحتها زوجتي ، والتي أعتقد ان لها أساساً من الصحة .

بعد الظهر وكما يحدث باستمرار مرة في كل اسبوع كان الابن الأكبر للمزارع (انجلو) يأتي ليحاسبني عما أخذنا منه خلال أسبوع . انفردنا في غرفة الدرس ، وبعد أن تفحصنا الحساب تحول بالحديث الى « انطونيو » فسألته إذا كان يعرفه ورأيه به .

(انجلو) هو شاب فلاح بشعر جميل وملامح جمعت بين الذكاء والبلاهة . وبعد أن وصفته هذا الوصف القصير أعود الى جوابه عن « انطونيو » الحلاق .

قال والابتسامة ترافق حديثه ، ابتسامة يغمرها الخبث : نعم ، نعم نحن نعرفه .. نعرفه جيداً ..

يبدو لي انني سألت أو أنا خاطىء : انك لا تهتم كثيراً « بأنطونيو » ..

وبعد لحظة من التردد قال : كحلاق لا أشك في أنه جيد ولكن ...

ولكن انه غريب حقاً ، تابع « انجلو » حديثه. فالإنسان لتنفيذ أغراضه لديه عدة اساليب ، كما يعرف كل واحد ذلك في حقيقته .. ولكن ربما تختلف الأمور من بلد لآخر فتتنوع أخلاق الأشخاص وعاداتهم حسب اختلاف بلادهم .

– طبعاً بالنسبة له لا أحد من يستطيع ان يحكم عليه .

– لماذا ؟..

– الحقيقة ، الأسباب متعددة . وهنا ابتسم « انجلو » مرة أخرى وهو يهز رأسه . لقد ابتسم ابتسامة تنبعث من أعماق القلب وتطفح بالحقد والكراهية « لأنطونيو » وتابع قوله : إن المواطنين يدركون أخطاء « انطونيو » ويعرفون كل تصرفاته ، ولذا ينظرون اليه نظرتهم الى أشياء هزلية ..

– هل هناك أشياء عن « انطونيو » تستطيع ذكرها كبرهان لأقوالك .

فهنا تحول بسرعة الى الجد .. ثم أجاب بعنف وبطريقة مداعبة : كما ترى يا سنيور « بلداتشي » فانه دوماً يزعج النساء ..

– أصحيح ما تقول ؟..

– نعم ..

– وكيف ؟..

– قد لا يكون عندك فكرة .. فلو كانت المرأة جميلة أو بشعة ، شابة أو مسنة لا فرق عنده وليس فقط في دكانه ..

بل أينما ذهب ليصفف شعر النساء ، وبالاضافة الى ذلك خارج دكانه . اسأل أي انسان تشاء يخبرك عنه .. أيام الآحاد يركب دراجته ويتجول في المنطقة ويتبع النساء في الشوارع كمن يخرج للصيد .

– ان أعماله تثير الحقد ولكن سيمر يوم يجد فيه من يحاسبه على أعماله ، ولربما تأتي هذه الأعمال على حياته .

وتابع « انجلو » حديثه عن « انطونيو » بطريقة غير مستحبة بالنسبة لي ، وأصبح يكرر الاقوال التي قالها سابقاً بطريقة غوغائية فلاحية لا يتقيد فيها بالحاجة الى الكلام ..

فهنا سألته مقاطعاً : كيف حال زوجته ؟.. وماذا تعرف عنها ؟..

– مسكينة زوجته .. ماذا تستطيع أن تفعل ، انها تبكي دون انقطاع ، حتى وقفت الدمعة بعينيها . مسكينة ! انها تعمل في الحديقة وفي الصالون تحلق للزبائن وماذا تستطيع أن تفعل أكثر من هذا ؟ انها تتحمل مسؤولية كبيرة .. مسؤولية البيت ، مسؤولية الحديقة، مسؤولية صالون الحلاقة. وفي أغلب الايام يركب على دراجته ويتركها في الصالون ويقول لها انا ذاهب لأحلق لأحد الزبائن . ولكنه يخدعها ، ويذهب من مكان الى مكان يجوب الشوارع باحثاً عن فتاة يقضي معها ما تيسر له من الوقت .

نعم .. لقد عرفت عنه كل هذا في السنة الماضية .

عرفت بعد هذا الاستغراق في الحديث ، ان « انجلو » أعطاني كافة المعلومات التي يعرفها عن « انطونيو » ولم يبق لديه معلومـــات جديدة سوى الكلام السفسطائي عن سلوك « انطونيو » المذهل ..

وكان يريد أن يتابع لكنني قاطعته وحولته الى موضوع آخر ، وبعد هذا تخلصت منه بسلوك حسن ومضى ذاهباً من حيث أتى .

جلست أفكر بعدما ذهب « انجلو » وأخذت تراودني الأفكار فانتابني نوع من الحيرة الفكرية . هـا أنا أتذكر كل الحديث الذي دار بيني وبين زوجتي ... نعم إني انسان أناني لماذا أستبد في آرائي ... ؟

لماذا لم أصدق زوجتي لقد كانت محقة... ؟

لماذا اتصرف كل هذا التصرف العفوي الابله ... ؟ عليّ أن اتزن بتفكيري . علي أن افكر قبل ان أبدي رأيي . نعم إن زوجتي على حق. ومع هذا كنت أشك في أقوالها...

أجل ، إن جميع الناس يعرفون « انطونيو » إن أحاديثه وتصرفاته متناقلة على السن الكثيرين ومع هذا أنظر اليه نظرة حسنة . مع أنه إنسان ضعيف يتربص بالضعيفات من النساء ويستغل ضعفهن لإرضاء شهواته .

نعم إنه حاول إغواء زوجتي . الآن أنا متأكد من صحة هذا .

الآن لقد عرفت هذا السر، الذي كان يحدثني عنه انطونيو. اكتشفت كنه أحاديثه. عرفت لماذا يهتم بعمله خارج الصالون، بينما يترك الزبائن لامرأته لتحلق لهم نعم، لقد عرفت كل هذا. عرفت مصدر سماحته ، ومصدر إهماله لعائلته . منذ فترة خلت . قال لي : أنه لا يحب السياسة : لقد وضح كل شيء ولم يبق سر بالنسبة لي حول انطونيو الا وانجلى لي. إنه رجل تافه، فاسق أتقن عمله وكرس كل مايملك في سبيله .إن أخلاقه فظة أشبه ما تكون بأخلاق الحيوانات والتي عبر عنها بأنها محببة عند النساء .

لنتساءل من هم هؤلاء الذين يستميلهم «انطونيو» ؟ اكتفي بهذا التعبير البسيط (قل لي من تصاحب لأقل لك من أنت) . هنّ مثل انطونيو مثله في أخلاقه . في قبحه في تصرفاته الشاذة .

انه يصف هؤلاء النسوة بكل الصفات التي يرغبها بهن ويصف حبهن له فيقول : ان تعلقهن بي آت عن كتماني ما يحدث ولكن أنا أقول : هل تخاف عاهرة من ثرثار ، ولو أنها تخاف لما فعلت ما ينسب اليها .

نعم .. لقد علمت ما علمت وانتابني اليأس والقنوط حول هذا الرجل المسكين ، الذي عمل على خدمتي فترة طويلة . لقد أحببته كثيراً .. أما الآن فقد بدا لي وكأنه يجانبي . لقد انقشعت خفاياه وتبدد السر الذي ستر حياته – بالنسبة

لي – فترة طويلة . انه رجل فقير يسبب الأذى للنساء وفيهن زوجتي ، فهن لا يكترثن به ، ومن الصعب أن ينال منهن ما يريد ،ولكن ما أدهشني بالنسبة لهذا المسكين هو اكتشاف سره بين الناس ، وحقد جميع الناس عليه ، ومنهم من ينظر اليه نظرة استهزاء .

لم أسمح لنفسي بأن أتأثر بغضب « ليدا » لهذا لم أكرهه منذ البداية . أما الآن وبعد أن ظهرت لي كل تصرفاته بشكل واضح أشعر الآن شعور الشفقة بالنسبة ، بل بالأحرى الشفقة الممزوجة بالازدراء ، شعوراً لم يحقره وحده بل يشملني معه ، حيث شعرت فجأة بأنني مجرد من المقام ومعرّض لمنافسة مهينة مع رجل قروي لا يفهم من الحياة سوى مغازلة النساء .

ومن الغرابة أن أقول انه لم يجرؤ على مغازلة زوجتي ، انه فعل ذلك لكنها رفضت . رفضت أن تراه في البيت لقلة اعتبارها له . ولكنه فعل ذلك مرغما . انه شاهد امرأة حسناء ، وحاول أن يعبر عن إعجابه بها فلم يجد طريقة أفضل من الطريقة التي سلكها . بالحقيقة كان فاسقاً ولم يكن هناك ما يبرر عمله ، بل ان هذه الاحتكاكات التي قام بها والاندفاع الجنسي الذي ظهر عليه تثبت حقارته .

ان عواطفه تطغى عليه ، كما هو الحال في الفتيان المراهقين مع انه في الاربعين من العمر . ومن المعروف ان الرجل في مثل هذه تكون غريزته الجنسية قد ركنت . ولكنه مجرد فاسق

سيطرت عليه بعض الغرائز فأصبح لديه حساسية سريعة لا تقاوم .

سرحت في تفكيري شوطاً بعيداً، فبدا لي بعد ان فكرت في جوانب متعددة انه رغم كل الاشياء المفروضة والمتعلقة به لم يكن يائساً أبداً ، وإنما رضي عن وضعه رضاءً تاماً ، وكأنه حارب ضد هذا الوضع ولكن الرغبة تغلبت عليه وأرغمته الى المثول امام الأمر الواقع .

ان ميلي الى اعتبار « انطونيو » لا علاقة له بهذه الاتهامات التي نسبت اليه وانما هو متأتٍ عن أنانيتي وخوفي من طرده ، وهذا الشأن يسبب لي إزعاجاً لأنه إذا ما حصل ذلك فسأرغم على الحلاقة بيدي ، وهذا في منتهى الصعوبة بالنسبة لي .

ولو صح ذلك لم أكن على حذر منه . فقد حللت الامر بايجابية تامة وذلك بأن نسيت الروابط ما بين الايجابية والسلبية .

لأروي غروري تصنعت براءة « انطونيو » مع شعوري بالشفقة والازدراء بالنسبة له ؛ أضف الى ذلك ما أصابني من ردة فعل لصدمة زوجتي المبالغ بها ، وهنا أرى من الانصاف ألا أنكر الحقيقة فلو كنت غيوراً حسوداً لقضيت منذ اللحظة على كل دافع للحسد ، وعلى كل فأنا لست حسوداً ، وعلى الأقل لا أفكر في انني كذلك . وأنا مصمم على أن أزيل كل عاطفة تستبد بالتفكير والتأمل ، ان هذه الطريقة جميلة

ومحببة بالنسبة لي حيث تتضافر القوى الضمنية لردع قوى الطغيان والمآسي التي تسببها .

بعد أن انتهى حديثي مع « انجلو » ذهبت كالعادة أنا وزوجتي نتنزه ، حيث نركن الى الراحة بعض الوقت وهكذا انطلقنا في المرج الفسيح نطلق العنان للتفكير ليسير بعمق ، ليستقصي الحقيقة ، ويبرزها بوضوح ، كوضوح مناظر الطبيعة الجميلة .

والآن ولأول مرة أشعر بتجرد من كل عامل يشدني الى ذاتي وأزمعت أن أخبر زوجتي بما علمته عن « انطونيو »ولكنني ترددت في الأمر لأنني كنت متأكداً من انني إذا ما فعلت ذلك ، اضرم بها من جديد وبصورة أشد لهيب غضبها الذي خمد الآن ، ولكن مع هذا كان ضميري يؤنبني . وقلت لها بالنهاية. في وقت كانت تبدو فيه شاردة.ربما مازلت تفكرين بأن على «انطونيو» أن يطلب منك المعذرة .... وإذا كنت لا تقبلين بهذا سأتخلص منه عما أعتقد لو أنها هي طلبت مني ذلك في هذه المرة لأرضيتها لأن كبريائي قد تحطمت . ولم أعد أثق بانطونيو بعد ما ظهر لي من تصرفاته ما ظهر ، ولا حاجة للدفاع عنه بعد هذا كله . وفجأة رأيتها ترتجف . فأعجبت . ما هذا يا الله .. ؟ هل هي تفكر بالحلاق... ؟

– لا .. لا . الحقيقة قد نسيت كل شيء عنه .

– ولكن اذا كنت تريدين مني طرده سأفعل ذلك ...

أصررت على هذا ، وكان المشجع لي عدم مبالاتها بالأمر ، والشعور بأن أقوم باقتراح لا يستحق الرفض .

– لا أريدك أن تفعل هذا ..

– الأمر لا يهمني مطلقاً ..

– ما دام ان الامر يخصني فأنا أعتبره كأنه أمر لم يحدث ..

– أتعرفين ، لقد كنت أفكر..

– ان هذا الامر يهمك وحدك .. قالت ذلك مفكرة ، وأضافت : والسبب في ذلك هو انك انت الوحيد الذي يتحسب أو يفكر بمجيئه الى هنا .

– كي أقول الحق فالأمر سيان عندي ..

– حسناً ، إذاً لماذا تريد التخلص منه ..؟

كنت مسروراً بجوابها المنطقي ، ولكنني كنت أحس بخيبة أمل بالغة . ولكن حظي في هذه الفترة دفعني لارضاء الغريزة المتزايدة ، وهذا ما جعلني أخفق في تحليل العوامل النفسية التي ظهرت عليّ جلية .

وفي اليوم التالي جاء « انطونيو » كعادته . وقد لاحظت بدهشة عظيمة ان سحره الزائد لم يزيله قول « انجلو » بل ما زال كما كان على طبيعته السابقة .. السر الذي كنت على حذر منه قبل معرفتي شيئاً عنه ، عاش الآن معي بعد معرفتي كل

شيء . هذا السر أعيد الى منطقة أقل اتساعــــاً وانتهى كل شيء . الفكر الذي راودني هو ان هذا السر كان كأي سر آخر يمكن ان يكون عظيما وصغيراً . ويمكــن شرح كل شيء عنه ما عدا وجوده .

٩

هكذا كانت الايام تمر سراعاً ، وأنا اثابر على عملي بجزم وقوة ، تتزايد عزيمتي كلما اقتربت من النهاية ، نهاية عملي الذي بدأته منذ فترة طويلة .

وهكذا استمر « انطونيو » بمجيئه إليّ ليحلق لي ذقني كل صباح .

في هذه الايام ، بعد أن خرجت من الضائقة النفسية ، أخذت أراقب « انطونيو » .. أراقبه مراقبة المكتشف الذي يحاول معرفة الحقيقة .. وشعرت انه أصبح بيننا رابطة متينة ، من الممكن انها تمكنت نتيجة معارضتي لاقتراح زوجتي بطرده خارجاً . واني من هذه الناحية ، وجدت ان علاقة جديدة متينة قد ظهرت ، وإنني أجد صعوبة بالغة فيما لو حاولت شرح أسباب هذه العلاقة . في بداية الامر كان بيني وبين «انطونيو» العلاقة العادية التي تنشأ بين الرئيس والمرؤوس. وبعد اتهامات زوجتي ، فان هذه الرابطة عدلت أو بالأحرى تغيرت ، فالرئيس ، أو بتعبير آخر صاحب العلاقة ، كان شرفه قد تعرض لمهاجمة المرؤوس ، أو على الاقل كان قد اعتقد ان

شرفه قد تعرّض للتجربة . وقد كانت التجربة موجهة من المرؤوس ، والمرؤوس هو المهاجم ، ولكن هاتين العلاقتين كانتا مجرد اتفاق ، سار أول الامر على حالة من الاتكالية والسلطة المشار اليها بإعطاء وأخذ الاجور ، وعلى رابطة أخرى لا تقل أهمية . عندما اقترحت عليّ زوجتي ان عليّ استبدال « انطونيو » وهنا من الواجب أن أرضى بأحد العرضين دون أن أربط بينهما وبين العوامل الاساسية للقصة ، ولكنني رفضت اقتراحها . ولم نخبر « انطونيو » بالأمر .

بعد هذا شعرت ، نتيجة لرفضي اقتراح زوجتي ، انه نشأت علاقة جديدة بيني وبينه أكثر واقعية ، لأنها تأسست على حالة سائدة ، وليست على حالة متوقعة . هذه الرابطة لا يمكن تحليلها ولا تعريفها ، لنحصل على نتائج ايجابية لها.

لقد شعرت انني رفضت أن اسلك كما يسلك أي فرد آخر – كرئيس وزوج – فقد أفسحت المجال لكل أنواع الامكانيات لتسير الى مجراها الحقيقي ، بعيداً عن الاتفاقات التي أوجدناها ، أنفسنا .فبدل ذلك لقد اقترحت وضعاً آخر على زوجتي ، وهو الوضع الذي يسوده المظهر اللائق الخارجي عوضاً عن الوضع الذي فرضته زوجتي ، وهذه الحالة جعلت كل واحد يقوم بدوره على وجه الدقة بشكل مرموق منظم . ولو لم نتصرف كما تصرفنا لكانت ذاتنا معرضة للتغير ، حسب

أهواء المتحدثين ، ولربما ينسبون لنا أشياء لا تمت الى الحقيقة بصلة .

هذه الافكار جعلتني أدرك فوائـــد المستوى الخلقي والاصطلاحات الاجتماعية ، والتي هي خارجية ، لكنهـــا ضرورية لمعرفة الفوضى وإصلاحها . ومن ناحية اخرى،عرفت انه عندما تزول المستويات الاخلاقية والاتفاقيات الاجتماعية ، فالفوضى تعم بالقوة وتركز نفسها على الحاجة الملحة .

بتعبير آخر لو تركنا الحل الذي اقترحتـه زوجتي لبقي حل آخر يمليه الواقع الطبيعي للأحداث الحقيقيـة . لقد كان كنهر محصور بين ضفتين اصطناعيتين ، أو سمـــح بالانتشار بالنسبة لانحدار وتعرجات الارض ، على كلا الحالين ، ومـع اختلاف الطرق وتعدد الاحداث قد يشكل مجرى خاصاً به ينفذ من خلاله إلى البحر . ولكن هذا الحل الأخير ، الحل الطبيعي ، بدى وكان من المستحيل ظهوره ، ولن يظهر ، « انطونيو » يستمر بالمجي إلى البيت . وبالحلاقة لي كما واني سأنهي عملي . وبعدئذ سنرحل أنا وزوجتي . دون أن أتأكد من صحة إتهامات زوجتي أستطيع الآن أن أدون هـــذه الانطباعات ، بطريقة منظمة ظاهرة ، الحقيقة لم تكن هذه الانطباعات مجرد أفكاراً،بل مشاعر غامضة تنشأ عن تغيرات المزاج ناتجة عن الحرص . الذي احتل مكان عدم إهتمامي .

قد يبدو مذهلاً أن أكون قد فكرت أو شعرت بهذه

الطريقة منذ اللحظة الأولى . عندما كان كل شيء يسير على مرأى مني . وعندما كانت محبتي الثمينة مهددة بالضياع .

إنني أرغب بإعادة مـــا قلته سابقاً أكثر من مرة : لقد كنت مشغولاً بأهداف أساسية بالنسبةلي وما عدا ذلك فالأمر سيان لديّ ، ومن الطبيعي أنني لم أقلع عن حبي لزوجتي . ومن البديهي أنني لم أشعر بشعور عادي نحو شرفي ، ولكن الإبداع . الإبداع العظيم الغريب . هو أنني افتعلت التسرع ، ونقلت كل ما يجول بأفكاري على صفحات هذا الكتاب كنت مثابراً على كتابته .

ولو أن زوجتي بدلاً من اتهام « انطونيو » بعدم إحترامه لها . شرحت لي بأنه كان يمسح موسى الحلاقة باحدى صفحات كتابي . لم أدرك جهله وعدم مسؤوليته . وطردته في الحال . ومن الطبيعي أن مثل هذا الخطأ قابل للادراك السريع و، هناك مجال للمعذرة أكثر من الخطأ المنسوب إليه . وما الداعي لعدم إكتراثي لما فعل بالنسبة لزوجتي... ؟ هل كنت أخاف أن أضيع عملي ... ؟ من هنا بدأ الغموض . الغموض الذي أخفق « انجلو » في تحليل كافة صفاته ، والذي استولى عليّ أكثر منه . إنه سر بعد كل ما قيل ، ورغم كل الأحاديث لم ندرك الحقيقة بأكملها . فيجب أن نترك قشور الحادث لنتأمل في أعماقه وفي خفاياه .

أما بالنسبة لزوجتي فلم تعد تأتي إلى غرفتي كعادتها لتجلس إلى جانبي بينما يحلق لي « انطونيو » ذقني . لكنهـا كانت

١٠

أخيراً انبلج الفجر بعد أن كتبت آخر كلمـة ، في آخر سطر في نهاية الصفحة الأخيرة . وأتيت الى نهاية الكتاب الذي حملته عصارة أفكاري بشكل قصة شيقة جميـلة تتحدث عن حبي لزوجتي ، وحياتنا نحن الاثنين ، ويبدو لي أنـــني قمت بالواجب ، وقدمت جهداً هائلاً ، وكرست لهذا الهدف وقتاً طويلاً لا حدود له ؛ وبالحقيقة لقد انساب القلم في يدي قرابة عشرين يوماً تقريباً والصفحات البيضاء في يدي تتحول بين الحين والآخر الى سواد يحمل عصارة أفكاري .. نعم لقد كتبت مائة صفحة ..

لا أعرف كيف انتقلت الى النافذة أحمل الكتاب بيدي ، وبدأت أقلبه بسرعة عظيمة ، بينما الدموع تنهال من عيـــني بشكل مستمر ، ولا أعلم ما هو سبب هذا البكاء .. الفرح ؟ أم التعب ؟.. هذا ما لم أستطع تحديده . نعم إنني أقرأ هذه الصفحات ، وكنت على علم من أنها أجود مـا حضرت خلال حياتي ، وهذا ما يجعلني أثق في قرارة نفسي بأنني أصبحت جديراً بأن أحيا هذه الحياة بحاضرها ومستقبلها . وما زلت

أقلب الصفحات واحدة بعد واحدة ، وأنظر بامعان اليها والدموع تتساقط فوق يديّ بغزارة فائقة .

بعد فترة قليلة لاحظت « انطونيو » يعـــبر الطريق على دراجته ؛ فهنا مسحت الدموع من عيني بسرعة بعد أن وضعت المخطوطة على المقعد . وعلى الفور دخل « أنطونيو » وبدأ يحلق لي ذقـــني ، إلى أن انتهى من عمله فانصرف على الفور .

بعد ذهاب « انطونيو » دخلت غرفة النوم لأرتدي ثيابي لكنني بدأت أفكر فيما أنجزته في هذه الايام الاخيرة .. فيما مضى كنت أنظر إلى الصفحات التي أكتبها كل يوم ، أمـــا الآن فأنا أمام القصة بكاملها أداعبها بأفكارى .. بناظري .. من البداية الى النهاية .

في هذه اللحظة كنت أتأمل ما كتبت ، أتأمل الصفحات التي وضعت فيها كل إمكانيتي العقلية وأجهدت نفسي حتى ظهرت بهذا الشكل . نعم انني مسرور بها سرور الانسان المتعب الذي يقصد أن يرى منظراً جميلا .

من الطبيعي أنه يسر عندما يصل إلى المكان المقصود ، لأنه حصل على ما يريد . إنه تعب لكنه حصل في نهاية تعبه على ما يريده ، ولذا نسي التعب وهكذا كنت أنا ، إنما هذه الأشياء التي أكتبها أنا هي بخلاف ذلك يمكن فرضها ، ولا يمكن وصفها . وفجأة فتح الباب ، فظهرت زوجتي والغرابة

بادية على وجهها ومنذ لحظة وصولها صرخت قائلة : يا الله ... ماذا تفعل ...؟ الغذاء جاهز وأنا أنتظرك منذ ثلاثة أرباع الساعة .

في هذه اللحظة كنت جالساً على السرير. أغرق في تفكير عميق ، وما زلت أرتدي ثياب النوم . وثيابي إلى جانبي على الكرسي حيث وضعتها عندما استسلمت إلى النوم في الليلة السابقة . نظرت إلى الساعة في يدي ، إن « انطونيو » ترك المنزل حوالي الساعة الواحدة إلا ربعاً . والساعة الآن تقارب الثانية ، لقد قضيت فترة تزيد على الساعة ، وأنا جالس على السرير . أحمل إحد جوربيّ في يدي بينما الثاني في رجلي ، وهنا التفت بسرعة زائدة وقلت متأسفاً : لا أعلم كيف حصل ذلك معي ... إنني سأحضر بالحال . وبسرعة فائقة ارتديت ثيابي . ونزلت إلى الطابق الأرضي حيث تنتظرني زوجتي ..

ومن الطبيعي أنني ركنت إلى الهدوء والاستقرار ، وزال عني الحماس بأكمله ، ولكن الأفكار لم تبرح ذاكرتي وأكثرها يجول حول الماضي وأحاديثه . فهنا تذكرت أننى وعدت زوجتي بأن أقرأ لها القصة عند نهايتها ، لأنني كنت أثق بها ثقة عظيمة ولا غرابة في أن أقول بأنني كنت أثق بها أكثر من ثقتي باي أديب أو ناقد ، كما سبق لي وتحدثت سابقاً ... لم تكن زوجتي متعلمة ولا تعرف الأمور الأدبية، ورغبتها في الأدب كانت كرغبة إنسان عادي يهتم كثيراً بالحقائق أكثر

من الأسلوب . وعلمت أن حكمها لا يمكن الوقوف عليه بشكل دقيق فهو يجمع بين الجهل والمعرفة . مع أنها ذكية ، ذكية للغاية ، بها الإحساس الجميل . وعلى المدى الطويل ليس بمقدورها الحجز ، لأسباب متعددة تنشأ عند الكاتب المهني . إن حكمها ، لم يكن نقداً ليعطيني فكرة عن القيمة الأدبية للقصة ، لكنها كانت تساعدني لمعرفة مدى حيوية الكتاب . هل هو حيوي أم لا ... ؟ بالإضافة إلى هذا كما هي الحال بالنسبة لأي كتاب مهما كان نوعه . إن السؤال الأول يدور حول حيويته ككل . مع أنه يوجد كتب غير كاملة وبناؤها رديء . وبدون ترتيب ومع ذلك فهي حيوية. تقرأها وترغب في مطالعتها دوماً . ويوجد كتب مرتبة وكاملة التفاصيل ومع ذلك فهي غير مشهورة ، ولا لها جمهور من القراء ، والتي رغم كمالها لا تعرف كيف نعمل بها ولذلك نرفضها كلّية . هذا هو معتقدي بعد مضي عدة سنوات . سأقرأ وأشتغل كناقد . لذلك أول ما ما أريد هو معرفة ما إذا كان كتابي حيوياً أو لا . وليس لي هناك من يؤكد لي هنـــا أكثر من زوجتي .

عليّ أن أقول انني جهزت نفسي لهذه التجربـة ، والتي لسبب ما اعتبرتها ذات أهمية بالغة وهدوء كامل للعقل . كان ما زال عنـــدي شكوك في التكامل الأدبي لقصتي ، وليس لتكرار قراءتي لها إنما بأخذي الانطباع الذي كتبته وبسرعة بالنسبة للحيوية لم يكن بها أدنى شك .

لو لم تتلاش مشاعر البؤس بالخجل ، بالجهـــد ، بالنقص ، بعدم الاتقان ، بالثرثرة التي كانت تؤلمني طيلة حياتي ، ومـا زالت حتى الآن ، والتي ساقتني في النهاية للنفور ،كلما حاولت الكتابة . لو لم تتلاش هذه الأمور بسرعة لنجحت أكثر في كتابة قصتي . لو لم أتروَّ في الأمور لكنت استنفذت كل ما في صدري في لحظة واحدة ،ولو لم ينضب كل ما يراودفكري لما تقهقرت بهذه السهولة ، مثلي في ذلك كمثل جدول مـــاء صغير ، بينما أرغب في أن أكون كنهر شق طريقـــه بسهولة لغزارة مياه الطوفان . لولا كل هذا لم أكن أشعر بأنني كنت أعكس شخصيتي بما أكتب ، هل كان كل ما كتبته حـول شخصيتي ؟.. البحوث الأخرى قادتني لمواجهة النتائج بهدوء، وذلك لأن محور الكتابة كان يدور حول زوجتي .

لقد خيل إلي أنه يوجد هناك صعوبة اخرى في المخطوطة مع أنها ليست عنيفة ولا معقدة . فقد عـــثرت على بعض النواقص والحواشي بين أسطرها ، وهذا ما يجعل قراءتها مملة ومضجرة .

قد يحدث أنه كان عليّ في بعض النقاط التوقف لفحصها لكي أضيف الى المعنى ما ينقصه . وهكذا كنت أقطع جمال الهدوء الذي كنت أتمنى ألا ينقطع بل يستمر ، وربما حصل بسبب السرعة في بداية المسودة ان بعض التفـــاصيل وبعض الآراء ظهرت لي انها قريبة النهاية .

فيما نحن ننتقل من مكان الى آخر أنا و « ليدا » قاصدين النزهة في المرج الفسيح،وفي أثناء الطريق كنا نتداول الحديث حول قراءة القصة . ولكنني صممت أن لا أقرأها إلا بعـــد عشرة أيام ، أي بعد طبعها .

بعد أن نسختها وجدت فيها أخطاء عـــديدة عملت على تصحيحها . وهناك بعض النواقص فعملت على تلافيها ، وفي الاسلوب حذفت كل ما هو بال ، وأضفت ما يليق بالمـكان ، وهكــذا استمررت عشرةأيام أنسخهاوأصححها الى أناقتنعت في الأخير بجودتها .

كان لدي آلة طباعة أحضرتها معي من روما ، وكانت ما تزال جديدة لأنني لم أستعملها إلا في كتابـــة بعض الرسائل والموضوعات بمناسبات خاصة أو أثنـــاء العمل ، وكانت هذه الآلة أميركية ومن أجود وأدق الآلات الممكن إيجادهـــا ، ومزاياها ممتازة .

خـــلال أيام تعطلي عن العمل ، كان يطغى عليّ الشعور بالمرارة والفشل ، كنت مجرد واحد من هؤلاء الاغنياء الذين يملكون كل شيء : الوقت ، الراحة ، المال ، أقلام حبر ،آلة للطباعة ، كل ما يحتاجون اليــه .. لكنهم كانوا يفتقرون الى عامل الابداع ، إذا مـــا مرت نكتة عابرة في أذهانهم سيطبعونها من أولها إلى آخرها ، ويكونون أشد تأثيراً بها من أي كتـــاب آخر . ولكن الاحساس المرير بالعقم الذي

اعتراني بسبب آلةالكتابة الجميلة ، وكل وسائل الراحة الاخرى في متناول يدي . لكنني أنا الذي أوجدت هـذه الأشياء ؛ فحياتي حياة إبداع وخلق ، أو على الاقل حيـاة من يفكر بالابداع .

بعد الظهر ذهبت لأتفحص آلة الكتابةوأتأكد من صحتها، وفجأة تبـين لي انني تركت ورق الآلة الكاتبة في روما ، وتأكدت انه لا مجال لأبحث عن هـذا النوع من الورق في القرية . وفي الحال قررت أن أذهب إلى البلدة وأشتري أوراقاً حيث كان يوجد هناك دكانقرطاسية يمد كافة المكاتب المجاورة بما تحتاج اليه من أدوات الكتابة . ولكنني وجدت ان من المستحيل الذهاب في نفس اليوم حيث كان يوجـد في القرية عربة واحدة يجرها حصان واحد مضت منذ الصباح إلىالبلدة ولا تستطيع العودة إلا عند المساء . وهكذا حكم عليّ أن أتأخر في الذهاب إلى البلدة في اليوم الثاني .وفي المساء أخبرت زوجتي بالرحلة التي سأقوم بها إلى البـلدة في الصباح الباكر لأتسوّق بعض الاغراض ، دون تفصيل مـا سأشتري .. أما بالنسبة لي فقـد فكرت انها ستطلب مرافقتي لتتخلص من الوحدة في البيت ، وكنت مزمعاً على أن أقول لها ان العربة صغيرة ولا يوجد فيها مكان متسع ، ولكنهـا لم تعلق أهمية على كل هذا الأمر ، حتى ولم تسألني عن الهـدف الاساسي لرحلتي ، ولكنها بعد لحظة سألت : ولكن متى ستعود ؟

فأجبتها حالاً : عند الظهر على ما أعتقد ..

وهنا وقفت هادئة وتابعت حديثها : ماذا سأفعل لو جاء الحلاق ؟..

فكرت قليلا ثم قلت : طبيعي انني سأعود قبل مجيئه .. وإن حدث بالصدفة وتأخرت ، فاطلبي منه الانتظـــار ريثما أحضر .

لقد قلت هذا الجواب لأنني كنت أكره أن أتعامل مـع حلاقي البلدة لأنهم سيستعملون لذقني أمواس زبائنهم . أمـا بالنسبة « لأنطونيو » فلم يحضر معه أي شيء، فكل الأدوات المطلوبة كنت اشتريها .

لم تقل شيئاً : وتركنا الحديث لموضوع آخر . لا علاقة له بما كنا نتحدث عن الحلاق .

والآن بعد أن انتهى عملي شعرت بحبي لزوجتي ، يراودني بقوة عظيمة ولربما يكون أكثر من السابق . أو بتعبير آخر كنت أحبها كل الوقت لكنني خلال فترة كتابة القصة أزلت معالم الحب . كنا نجلس كالعادة إلى الطاولة في غرفة الطعام و « ليدا » كالعادة في لباس السهرة . ترتدي حلتها اللطيفة البيضاء. وهي بهذا اللباس، أقرب ما تكون إلى فتياة اليونان. وكانت تتزين بالجواهر في أصابع يديها، وفي عنقها، وفي أذنيها. وكلها جواهر ذات قيمة ثمينة . تعكس عن وجهها نور المصباح فيزداد جمالاً. إن وجهها كان منسقاً وجميلاً وشعرها كان مزين

وشعرها مزيناً ومصففاً على أحدث طريقة . لا على الطريقة التي صففه بها – انطونيو – إن وجهها النحيف الطويل بدا لي يختلف عما كان عليه في السابق ، إن هذا الترتيب يقلل من إنحداره . فشعرها المسترسل الجميل ، أحدث منظراً يختلف عن المنظر الذي اعتدت عليه . لقد تلاشى جمالها نوعاً ما . ومال وجهها إلى الإصفرار . إن نظرتها اللطيفة قد تغيرت فتحولت إلى نظرة عنف وإحساس مصطنع . ولم يعد وجهها بجماله المعهود . أين هي اليوم مما كانت عليه في الماضي أين شعورها المتماوج .... ؟ أين نظرتها السائحة التي كانت تظهر على عينيها الزرقاوين .. . ؟

اين الإبتسامة التي كانت لا تفارق فاها... ؟ لقد تجردت من كل هذه الصفات لذا بدت أكثر واقعية . إن مظهرها يشبه مظهر حفيدة « باخوس » تذكر في تواريخ اليونان القدامى . وزخرفتهم وتعابيرهم الغامضة . فوق جباههم . أو كمنظر جانبي لعنزة سام بن نوح . ولتؤكد هذا المظهر زوجتي وعند حادثة « انطونيو » وضعت فوق كتفها وعلى الجهة اليسرى من شعرها، باقة من الزهور الحمراء الغضة الجميلة. وبعد أن نظرت إليها ملياً قلت :

ألم تعلمي . أنك ظهرت لأول مرة بجمال ملموس عندما صفف انطونيو لك شعرك . لقد وجدت أن هذا الزي الذي أعطاه انطونيو لشعرك يناسبك جداً ... انني الآن لاحظت هذا .

إنها عبرت عن ألم عميق عندما سمعت ترداد كلمة الحلاق إنها أصيبت بنوع من التفكير العميق وأطرقت إلى الأرض . بينما كانت تدير بيديها الجميلتين . اللتين تحملان أظافر حمراء كالياقوت. وبين أظافرها الجميلةبدت السدادة على ضوء المصباح كأنها قطعة من ماسة هائلة صوب إليها بصبص من النور . ولكنها قالت بهدوء إن فكرة تصفيف شعري هكذا لم تكن فكرة «انطونيو» لكنها فكرتي أنا ....

كل ما عمله هو ما كنت آمره به .... فالتفت بغرابة...

كيف تفكرين به ... ؟

كنت أصفف شعري هكذا وأنا ما زلت عذراء ، أي منذ عدة سنوات ثم أضافت إن تصفيفه بهذا الشكل يناسب النساء الشابات أو... وقعت حديثها الإبتسامة. ثم تابعت بعد أن فرغت من الضحك – المتوسطات العمر مثلي .

– ماذا تقصدين بالمتوسطات العمر ... ؟ لا تتلفظي بمثل هذا ثانية إنها لغباوة ، إن هذه الزهور تناسبك تماماً ...

وهنا دخلت الخادمة فلذنا بالسكوت. بعد أن تركنا الغرفة وضعت شوكتي وسكيني على الطاولة ، وقلت : إنك شبيهة بإنسان آخر ...

– بل إنك دائماً بنفس الشخصية ، ولكنك بمظهر جديد. كل مرة أشاهد من جمالك ما يعجبني اكثر من المرة الأولى .ثم أنحنيت قليلاً وقلت إنك جميلة يا ليدا .... ربما اكون قد

نسيت هذه الحقيقة بين الحين والآخر ولكن ستأتي لحظة أتأكد من حبي الجنوني لك .

لقد أطرقت دون أن تجيب ... وراقبت تعابير وجهها لم يبدُ عليها دلائل الاحتكار . لقد بدت عليها دلائل الرضى . وزال من وجهها كل ما يشير إلى الغضب . كانت بهذه الطريقة تتقبل المديح المقبول . وهذا ما كنت أعرفه عنها . وفجأة اعتراني اضطراب حب لا يوصف . وعلى الفور وضعت يدي على يدها ، وهمست : أعطيني قبلة .

ـ لكنها رفعت عينيها ، ونظرت إلي ، وسألت ببساطة. هل انهيت عملك .... ؟

ـ لا ، لقد كذبت ، لكنني لا استطيع ان أراك . دون أن تفيض مشاعري . إني أحبك أحب أن أقبلك . وليكن مصير عملي إلى جهنم .

عندما قلت ذلك سحبتها من ذرعيها فأتكأت إلى الأمام وقاومتني عابسة ، وبشكل جدي مغر. وقالت بصوت يفيض بالحب . إنك أحمق ثم نظرت إليّ فجأه واعطتنى القبلة .

إنني طلبتها منها بسرعه وإيجاز لكنها مليئة بالوقار. لقد قبلنا بعضنا البعض بشوق غريب . دافعين شفاهنا إلى بعضنا بعضاً بعنف. لقد كانت كقبلة شابين ذكيين. على خبرة بالحب. تلاشت فرحتها بالعصبية لأنهما لم يعرفا أن يعبرا عنها . وأنا كذلك بالقبلة العابرة التي أختطفتها من شفتي زوجتي. وشعرت

في هذه اللحظة كأني عدت لطفولتي أو كأني كنت أتوقع خطراً مفاجئاً .

بعد هذه القبلة وعلى الفور تصالحنا ثانية وكأننا طفلان ، هي هادئة رصينة ، وكذلك أنا . الخادمة لم تأت . وتابعت نظرتي لزوجتي وأنا أضحك منها ومن نفسي . ثم ربتّ على يدها وهذا جعلها تشك في الأمر. فسألت لماذا تضحك ...؟ آسف قلت أنني لا أضحك عليك... إنني أضحك لأني سعيد. أطرقت إلى الأرض ثم قالت : لصوت ودي هادىء .

بينما تابعت تناول الطعام. سألت : ما السبب الذي يجعلك سعيداً لهذه الدرجة ... ؟

– هنا لم أستطع المقاومة فقلت : لأنها أول مرة أنال فيها ما أريد والأكثر من هذا – هو شيء عزيز للغاية– عرفت أنني حصلت على كل ما أريد :

– ما الذي أردته ... ؟

– كنت أطمح منذ سنوات خلت لأحب أمرأة ، وهي تحبني بدورها .

– حسناً ... الآن أنا أحبك وانت تحبني على ما أعتقد

– أليس كذلك ..... نعم

– منذ سنوات كنت أفكر في ان أكتب شيئاً يخلد ... شيئاً حياً ... أدباً جميلاً. الآن بعد أن أنهيت القصة استطيع القول بأنني كتبت شيئاً جميلاً أيضاً .

لقد قررت أن لا اتكلم عن القصة لزوجتي إلا عندما أنتهي من نسخها . إنما لشدة سروري . لم استطع أن أقاوم فزلق لساني وأشرت إلى أن القصة انتهت. ولكنها علقت على الفور . على ما قلت فذهلت! مع أنها تحبني وتسر تماماً بكل ما أعمل .. وهل انتهت... ؟ صرخت بصوت عال . تريد ألاستفسار بفرح وبهجة لا حدود لها . وكررت سؤالها . وهل انتهت القصة ..؟ وهنا شعرت وكأن صوتها قد سحرني – آه يا سلفيو – ولم تخبرني بشيء ... !

– لم أخبرك عنها بشيء ، قلت : لقد أنتهيت لكنني ما زلت بحاجة إلى الطباعة .. إلى .. الطباعة .. ! طباعة المخطوطة ... !! أنتهي منها عندما أنهي الطباعة .. قالت هذا لا يهم : . لقد انتهيت وهذه لحظة خالدة .. يجب أن نشرب نخب كتابك ..

إن تصرفها كان بسحر ، بعاطفة قوية . لقد حدقت إلي بعينيها الزرقاوين .

وكأنها تريد أن تقول لي إنها تريد أن تعانقني . وبيد مرتجفة صبت الخمرة بكأسين فوق الطاولة وشربنا نخب الكتاب . ثم قالت بصوت ضعيف ناظرة الي . شربت ورأيتها تشرب ثم أنزلت كأسها واتكأت علي تقدم شفتيها . إن هذه القبلة،كانت قبلة طويلة وحنينيه تحمل كل معاني الحب.

وما ان انتهينا منها إلا والخادمة تنظر إلينا ، وتسند نفسها إلى الخزانة . والصينية بيدها .

وهنا ناديت «حنة» كي تأتي وتشرب معنا الخمر وتشاركنا الفرحة . وقالت زوجتي ، بطبيعتها الرقيقة : إنه يوم عظيم. وأضافت تقول يا سلفيو ناول (حنة) هذه الكأس من الخمرة. ثم تابعت قولها : اقتربي يا حنة واشربي نخب «السنبور سلفيو » وعلى الفور تقدمت حنة فوضعت الصينية على خزانة أدوات المائدة . واقتربت ، وتناولت الكأس . وشربت الكأس . ثم أن زوجتي بنفس الطريقة الطبيعية التي اعتادت أن تسلكها عادت للأكل مرة ثانية . واستمرت تسألني ببساطة عن عملي . وسألت في هذه المرة .. هل أنت متأكد من أنك كتبت شيئاً حسناً .. ؟

- نعم بكل تأكيد .. واستطيع ان أؤكد ذلك أكثر من أي شخص آخر لأنني لست بناقد يبرهم نفسه من النقد لهذا فأنا متأكد تماماً . ولو لم يكن ذلك لقلت الحقيقة .

هنا أجابت زوجتي : لا أستطيع أن أعبر لك عن سروري ، أنا مسرورة للغاية ثم تابعت قولها بعد أن سكتت لفترة قصيرة ثم وضعت يدها على يدي ونظرت إلى وجهي . على الفور رفعت يدها وقبلتها ..

شكرت زوجتي لترحيبها نبأ انتهائي من كتابة القصة والتي بها أظهرت لي ثانية ، كأنهـــا مصدر حبي وإلهامي الذي

حفظته لي كينبوع لا ينضب منه الماء . إن فرح زوجتي بما كتبت جعلني أشعر وكأنني ثمل أسكرته الخمرة ، مع انني كنت أعتقد أن نقدها لم يكن إلا مجرد نقد موجه من ناقد لم يكن على جانب من الأهمية ، وكنت على ثقة بأن الكتبة وحتى السفسطائيين منهم يسيرون على هذه الطريقة ، ولو مرة في حياتهم وفي بداية عملهم ؛ في الفترة التي يأملون بها النجاح. والكاتب في بداية عمله الأدبي يكون معرّضاً لنقد كتاب قدامى عملوا في الفن الأدبي ؛ فهو أمام عدة آراء ، ولربما تحدد له نجاحاً أو فشلاً . وعندما انتهيت من الطعام وذهبت إلى غرفة الاستقبال حيث تبعتني زوجتي وهي أمامي تصب لي القهوة . .

لا أتذكر تفاصيل ما حدث تلك الليلة ؛ كما أن الانسان لا يتذكر وجوه الناس وتعابير وجوههم عندما بريق النور يبهر كل فرد بنظرته الصاخبة . إنني أتذكر أنني كنت متحمساً ، فرحاً ، مأخوذاً ، وأتذكر أنني كنت أتحدث عن مستقبلي ومستقبلها . ثم شرحت لها كيف كتبت القصة ، لقد تناولت نفسي وزوجتي كشخصيتين رئيسيتين في كتابة قصتي . ويدور محور القصة حول موضوع زواجنا. وحللت المادة التي استعملتها كما وضعت التغيرات والعمق التي أدخلتها إلى قصتي ، أيضاً ذكرت بعض التغيرات ، وذكرت بعض الكتب الشهيرة مقارناً إياها بما كتبت أنا متبعاً الطريقة التي نهجها الكتاب الأسبقون

دائماً عملي بحديث منقول بين الحين والآخر ، وأعمل في نفس الوقت على خلق أفكار جديدة .

بالنهاية امتدت يدي إلى المكتبة وأخذت منها كتاباً شعرياً وبدأت أقرأ بصوت عال بعض القصائد لمؤلفين حديثين ، بينما كانت زوجتي تجلس على الأريكة وتضع رجلاً فوق الأخرى ، وبيدها سيجارة تلتقطها بين أصابعها وتعبث بدخانها من حين لآخر . لقد تمثلت فيها كل صفات الجمال بينما هي تجلس وأنا أقرأ وأراقبها . نعم إنها جميلة وأي جمال يقارن بجمالها، وبينما هي على هذا الحال كنت أراقبهـا . انها تتصرف كل تصرفاتها بعاطفة جياشة تبقى ثابتة كما ثبت هذا الجمال الفتان . نعم إن زوجتي كالذهب لا تتغير ولا تتبدل . حفظت كل ما لديها من لطف وطهارة وجمال حتى أنهيت القصة ، بعزلة في مكتب كمكاتب القرن التاسع عشر ، ضم جميع أنواع الأثاث القديم في منطقة ريفية صعبة المسلك .. وفي الوقت المناسب أطفـأت النور وأطبقت كتاب الشعر الذي كنت أقرأ فيه .

– في هذه المنطقة كثيراً ما كان الناس ما يلجأون إلى إطفاء المصابيح ؛ لأن هذه الفترة كانت تلائم وقت قطاف الزيتون ، والناس يعملون على عصره لهـذا السبب حولوا التيار الكهربائي إلى المعاصر . في الظلام بدأت أتلمس الطريق حتى وصلت إلى النافذه المطلة على الفسحة الصخرية، وفي الحال فتحتها . وأول ما استرعى انتباهي هو ضوء القمر الجميل

الذي عكس أشعته على الأرض فأضاء بشكل واضح. وتبدت لي الطريق وأوراق الأشجار والفسحة الصخرية ، ولم يبق ما يستره الظلام حتى كأنني في وضح النهار . والشمس تنتشر على الأرض . وهنا وقفت صامتاً متأملا .. وفجأة شعرت بشيء داخلي يدفعني إلى البحث عن القمر لأراه في حلته الجميلة ، ولكن عبثاً ما كان أحاوله لقد كانت ظلال الأشجار. تنتصب دون عائقاً وتمنع الضوء من الوصول إلى الناظر .

وأخذت أراقب ، وأراقب ، إنني بشوق لأرى القمر . نعم لم أكن لأتحرك إلا بعد أن أراه ، سأقع عليه مهما كلفني ذلك من مراقبة . وقطع تفكيري فجأة . ها أنا أنظر إلى الرابية الواقعة خلف المدينة القديمة فأرى شظية فضية جميلة تبعث نوراً أبيض ناصعاً من وراء الرابية إنه القمر ؛ ظهر منه هذا القسم الصغير. وبقي ما بقي مستتراً وراء الرابية. ولكن لم يبق كما بدا لي في أول نظرة أنما أخذ يرتفع في السماء شيئاً فشيئاً إلى أن بدا واضحاً بأكمله ؛ إن القدرة الطبيعية الكامنة رسمت له هذا الشكل من المسير فجعلته يسير مما لا شيء إلى أن بلغ أوج عظمته، وما هذا إلا لنزداد تعلقاً به وشوقاً اليه.

إن أشعته كانت تنبعث إلى الأرض بشكل عمودي ،ويقع قسم منها على أسوار المدينة القديمة فيزيدها جمالا وروعـــة ، ولكن كثيراً ما يحدث تقطع في هذه الأشعة بسبب سحابة تمر تحت القمر فتحجب نوره وتمنعه من الوصول الى الارض ،

وفجأة تحمل الرياح السحابة فتعود أشعة القمر إلى طبيعتها السابقة ؛ وهذا أشبه ما يكون بجماعة من الجنود يحرسون المدينة القديمة ويقفون على أسوارها فترة تمر سحابة فتحجبهم وينقطعون عن عملهم ولكنهم يعودون عندما يزول العائق إلى عملهم السابق . ونسيت نفسي على هذه الحالة أراقب أشعة القمر وانتشارها على أسوار المدينة القديمة الذي أوحى لي بأجمل الصور ، وفجأة قطع تفكيري صوت زوجتي التي ظلت جالسة على المقعد تنتظرني . وأخيراً ملت الانتظار وجاءت لتقول لي : لا حاجة للتفكير ، لقد حان وقت النوم ، وأن لنا أن نركن إلى مضاجعنا .. لقد مضى الشطر الأكبر من الليل ..

من الممكن أن يكون هذا مجرد اقتراح أن نذهب للفراش وننام ، لكنني ظننتها دعوة حب لأنني كنت واقعاً بحيرة فكرية ، ليس بامكاني تحديد مضمون دعوة زوجتي على وجه الدقة . وبعد فترة قصيرة من الزمن التفت إليها وقلت : إن القمر جميل وينشر أشعته على الأرض فكأن الطبيعة مضاءة بنور الصباح الجميل .

- لماذا لا نفكر في نزهة قصيرة في هذا الهدوء ؟..

بدون أي كلمة أطاعتني زوجتي وخرجنا من ظلام الغرفة، وكنت مسروراً بهذه الموافقة اللطيفة منها ، وخرجنا إلى الساحة الصخرية أمام البيت .

لقد ساد الطبيعة السكون العميق ، وكأننا في ليلة من ليالي الخريف . لم تسمع أصوات حشرات الصيف ، إذ استسلمت للسكينة وحتى السنة المقبلة ، حتى أن الكلبين المستلقيين في أطراف الحقل كانا ينظران إلى بعضهما بعضاً بسكون دون أي حركة ، إن نظرتيهما كانت تفيض بالعاطفة الصادقة لنا . وكانا يحرسان البيت والحديقة بأمانة وإخلاص .

سرنا على الطريق متقاربين من بعضنا بعضا نتلمس أماكن الضوء التي استطاعت أشعة القمر أن تصل منها الى الارض من خلال جذوع الأشجار .

في هذه اللحظة وضعت ذراعي تحت إبط (ليدا) وطوقت خصرها بيدي . فاتكأت على يدي بحنان ورقة ، وبدون أثر للعاطفة . وكأن حركاتي هذه بدت تنبعث عن اللاشعور . وهكذا تابعنا سيرنا على الطريق ونحن نمسك ببعضنا ويلتف حولنا من الجانبين صفان من الأشجار الجميلة التي انعطفت أغصانها على جانبي الطريق، وتبعثرت أوراقها ، هنا وهناك. وقد استطعنا أن نرى هذا على ضوء صغير كقبس من نور انتشر من القمر ووصل إلى الأرض من خلال أغصان الأشجار.

سرنا على طول الطريق وعلى مسافة قصيرة من بوابة الحديقة . ثم تحولنا إلى آخر يسلك بين صفين من اشجار الصفصاف، وخلف هذه الأشجار. يبدو السهل الفسيح ينبسط على مد النظر .

وفي آخر الممر كان الناظر يستطيع أن يرى الفراغ المضاء بأشعة القمر ، ومن هذه النقطة يتمكن الانسان أن يرى المرج بأكمله .

وعلى طـــول الطريق كانت زوجتي تعتمد على ذراعي ، فشعرت بنعومة خصرها من خلال الثوب ، وفي نهـــاية الممر حوّلنا سيرنا إلى طريق تفصل المنتزه عن الحقول ، حيث كان المنتزه يتصل بنهاية طبيعية بالحقول . وكانت الاشجار الاخيرة تمتد أغصانها عبر الطريق ، حتى أول صف من أشجار الكرمة على مسافة أبعد ، وعلى قمة التلة كانت تتربع المزارع، وتنتشر على جدرانها القديمة تحت أشعة القمر باناقة وجمـــال بالغين ، وكانت الطريق تفصل طرف المنتزه الواسع عن المزرعة الواقعة على التلة المحاطة بسهل تقع عليه بيادر وثلاث أكوام كبيرة من القمح .

وتابعنا سيرنا ببطء وأشجار المنتزه الجميل تلفنا من ناحية بينما غطت الاعشاب الناحية الاخرى حتى وصلنا إلى بيوت المزرعة ومررنا بينها قاصدين البيادر ، ثم أخـذت أنظر إلى أكوام القمح ، فكانت إحدى هذه الاكوام كبـيرة جدا وقد امتلأت بالقمح سنابلها ذات اللون الأصفر ، بينما كانت الكومة الثانية بنية اللون ، والقمح الموجود فيها يدل على انها قديمـة أكثر من الثالثه ؛ أما الكومة الثالثة فقد أحـــاطت بعمود طويل ولم يبق منها إلا القليل القليل يحيط بالعمود كالدائرة .

وانتشرت أشعة القمر على العمود بشكل يخيل للناظر معه انها أمسكت به ، ومنعته من السقوط .

والآن اقتربنا من الكتل الثلاث وأصبحنا نراها بوضوح لأن المسافة أصبحت تتلاءم مع ضوء القمر المنتشر ؛ وبنظرة عابرة إلى هذه الأشجار المصطف بعضها إلى جانب البعض يـــدرك الناظر ضخامة هذه الأشجار فينسى طبيعتها الحقيقية ؛ هكذا أوحت إليّ بتفكير غامض لا يفارقني أبداً . لقد ثبت لي ان هذه الاشجار السامقة الضخمة باقية من عهد قبائـــل « آل رويدس » وهي منتشرة على مسافات واسعة في سهول فرنسا وانكلترا . عندئذ قلت لزوجتي ان هذه الكومات الثلاث من القمح التي ظهرت تحت ضوء القمر الساطع ذكرتـــني بمناظر بريطانيا ، وتابعت أشرح لها طقوس الأوثان الذين كانوا يختفون في الهيا كل : هيا كل ما قبل التاريخ ؛ ولم أدر ما هو هـــذا الدافع الذي حبذ الرغبة فيّ رغم المشقات فحاولت الصعود إلى البيادر وأنا لا أدري ما إذا كان الدافع هو أن أقوم بالغرام مع زوجتي على القمح . ومن الطبيعي أن نركن إلى الراحـــة بهـــذا الوضع . وبنفس الوقت ، فكرت بالعودة للحب مع زوجتي ، كما كنا نتعاطاه فيما مضى فترة أول زواجنا ، وهنا وقفت لأقول بصدق وأمانة ، وإني إذ أقول ، أقول الحق . أجل ان هذه الذكريات خلقت مـــني أديباً وبعثت فيّ روح الإقدام وجعلتني أكتب أدباً أتأثر فيه بكل نبضة من نبضات

قلبي ؛ على أية حال كنت مشتاقاً جداً إلى « ليدا » وفكرت بممارسة الحب مستنشقين هذا الهواء الطلق ، وما أحلاها من ذكريات والقمر في أوج عظمته ينشر على الارض أشعته .. وهكذا حدث ما توقعت مع انه من الغرابة أن يحدث لرجل بسيط لا يمت إلى الثقافة بصلة .

١١

هكذا صعدنا إلى البيادر، وتمتعنا بالمناظر الجميلة التي يمكن ان نشاهدها هناك . وما زلنا يمسك أحدنا الآخر ، وظللنا نسير على أعشاب المنحدر الناعمة . حتى وصلنا المنحدر حيث وقفنا صامتين نحدق بمناظر الطبيعة : وقد امتد السهل الواسع امامنا على مدي النظر بينما انتشرت اشعة القمر على نبتاته ، فظهر كل شيء بوضوح ، السهول التي تعطيها الفاكهة، والسهول القاحلة ، والحقول المزروعة بالكرمة وقد تركزت اشعته على بعض المزارع فغطتها باللون الفضي،وعلى الأفق صف من الجبال، السوداء . كونت خطاً واضحاً بين الأرض والسماء ، وفجأة سمعت هماً يأتي من بعيد وخيل إلي كأنه صوت قطار يأتي من بعيد بين المزارع والحقول في وسط هذا الريف الهادىء المتواضع الجميل .

وحدقت زوجتي بهذه المناظر الخلابة وكأنها تريد إدراك عظمتها وسكونها . بدأت احدثها بصوت خافت . مشيراً إلى احد الأماكن الجميلة ، وإلى منظر آخر في السهل المنبسط امامنا مأخوذاً بجمال الليل، وكنت في هذه الأثناء قد أعدت

يدي إلى خصرها مرة ثانية ، ومشينا إلى الجهة الثانية حيث تركنا الجبل الشاهق خلفنا ، وأخذنا ننظر إلى جدران المدينة من قمته . واقتربنا من كومة القمح على الأرض هناك ، وكان القمح منتشراً حيث كان أبناء الفلاحين يلعبون أثناء النهار ، وفجأة عانقتها باندفاع شديد هامساً في أذنها: أليس من الافضل هناك .. على ما أعتقد أفضل من غرفتنا .. وبينما أتحدث إليها حاولت بها كي تنبسط على القمح بلطف .

ونظرت إليّ بعينيها الساحرتين الزرقاوين نظرة إغراء ، وقالت بلطف : لا يا حبيبي القمح قذر .. بالإضافة إلى أنه خشن .. قد يؤدي إلى إتلاف حلتي ..

– وما تهمك الحلة ؟..

– إن عملك ما زال طويلاً . قالت هذا بفتور مفاجيء ؛ لم أكن أنتظرها الى هذه الدرجة . ثم تابعت قائلة : هل انتهى كتابك ؟.. في اليوم الذي تنتهي فيه نأتي إلى هنا بالليل .. هل هذا جميل .. ؟

– لا .. ، ليس جميلاً ، قد لا يتوفر لنا القمر مثل اليوم لا أظن أنني رأيت أجمل من هذه الليلة ..

تابعت بتردد دعني أذهب (يا سلفيو) وهنا تركت يدي وهربت بسرعة ، تعدو إلى التلة وهي تضحك ، وكانت إبتسامتها جميلة عذبة تفيض بالغرام والأغراء بنفس الوقت ، فأسرعت خلفها .. إنها رفضت رفضاً لطيفاً ، به كل معاني الحب

والإخلاص ، وتابعت سيرها راكضة أمامي على الممر والمنتزه. إنما أمسكت بها بسرعة وأخذتها بين ذراعي،وفي هذه اللحظة شعرت أن ابتسامتها والقبلات التي أقتطفتها من فيها كانت كافية لردع رغبتي ، ومشيت إلى جانبها ماسكاً يدها بثبات. ونور القمر ينتشر أمامنا ونحن نمشي متشابكي اليدين ..
ان هذه المطاردة فيما بيننا عندما ركضت زوجتي عائدة وركضت وراءها . دليل غرام صادق اكثر من العناق الذي رفضته (ليدا) على البيادر وتابعنا سيرنا حتى وصلنا أمام البيت بين أشجار الحديقة ، في هذه اللحظة شعرنا بحاجة إلى الضوء. لأن نور القمر لم يستطيع أن يعبر إلينا من كثافة الأشجار ، ولكن في الوقت المناسب انتشر علينا نور الكهرباء من النافذة التي كانت ذات مظهر جميل خلاب دخلنا البيت وصعدنا بسرعة ، بينما سارت أمامي زوجتي وأنا أرسم خطاها على الدرج وقد استمتعت بمنظر جسدها الذي ظهر واضحاً بينما كانت ترتقي الدرج على ارتفاع مني مع أنه لم يظهر لي بالجمال الذي عهدته فيه منذ فترة خلت . وعندما جلسنا في (البهو) قالت مازحة والعاطفة تفيض على لسانها . إنه عملك وبعدئذ سنذهب إلى البيادر ؛ وعلى الفور قبلت يدها ودخلت غرفتي واستسلمت للكرى على الفور ..

— في اليوم الثاني شعرت بفرح وغبطة بالغين . حتي بلغت قمة سروري ، وتركت زوجتي نائمة . وركبت عربة (إنجلو)

وسرنا نحو البلدة ، وفي اثناء الطريق، ربما شعر (انجلو) أن الواجب يدعوه لأن يحدثني ، عن وضع الريف ، ولكنني لا أفكر فيما يقول وتركته يثرثر دون أن أصغي إليه . حيث كنت أشعر بأنني شارد بأفكاري ومشاعري . وسارت العربة على الطريق العامة ، حيث تنتشر أشعة الشمس .

وكان هواء الخريف يمر على وجوهنا لطيفاً ناعماً . وكنت أتأمل منظر الريف العاري من كل مظاهر الجمال الذي يبعث على الحزن .

نعم إن كل ما في الكون قد تغير .. فأين الورود ، وأين العصافير بل أين اشعة الشمس المحرقة ؟ إنها مضت مع الربيع والصيف ولم يبق لنا من الخريف إلا تساقط الأوراق. واسراب السنونو تمر مودعة . كل ما في الطبيعة كان ظاهراً بالنسبة لي حتى أدق التفاصيل . واسترعى نظري ورقة حمراء تسبح مع الهواء تركت غصن أمها الكرمة ، بعد أن ودعتها الوداع الأخير،وعلى جوانب الحقول كان الهواء يسوق امامه الأوراق المتساقطة ويجمعها أكواماً اكداساً . وكانت النوافذ موصدة وكل شيء قد تبدل . وفجأة لفت إنتباهي على جانب الطريق حفيف اجنحة إنها (قبرة) في رحلة قصيرة ثم هبطت للراحة بجانب تلة في حقل عار. والتلة تردد صدى الحديث . حديث الفلاحين وصدى ضربات فؤوسهم . هرعوا جميعاً يزرعون القمح في الحقول الواسعة . وكان القرميد الذي يغطي بنايات

القرية كان مغطى بالطحالب الصفراء الذهبية .

في القرية كنيسة صغيرة ، إلى جانبها شجرة كبيرة من البلوط تساقطت أوراقها وثمراتها على الكنيسة لقد كنت مسروراً بهذه المناظر . حتى كان من المستحيل أن تمحى من تفكيري وستبقى في مخيلتي ما دمت على قيد الحياة .

بعد أن قطعنا مسافة طويلة في السهل ، أخترقت الطريق منحدر الجبل . وتابعت إرتفاعها باستمرار . واستمرت العربة في السير . بينما كنت اراقب الجدران القديمة المرتفعة في قمة الجبل . كانت بقية المنظر مع أنها كانت تتلألأ بضوء الشمس وللحال شعرت بسرور بالغ يسيطر علي وكأن هذه الجدران هي منبع هذا السرور . الحقيقة ليست الرحلة القصيرة كانت دافع سروري ولكن الدافع هو أنني صعدت العربة باتزان، وعندما نظرت إلى الجدران وجدت نفسي قد تغيرت عما كنت . بل كتلة من الأفكار العابرة المتشابكة . والمشاعر الفياضة أنتابتني بهذا الوقت . فأنا الآن أقف أمام عاصفة من التفكير تجعلني أثبت في الطريق إلى الأمام ، حيث تصور لي أنني أمام الأبطال القدماء والمفكرين العظماء الذين عملوا لمنفعة الإنسانية بأكملها، ووجدت أنه كان لزاماً عليّ أن أثابر واعمل بكل عزيمة ونشاط ، إذ قد يكتب لي النجاح وتكرس عصارة تفكيري بين الآثار القديمة ولربما يكتب لي الخلود بعد موتي ، لأن خلود الانسان بما تركه من أشياء قيمة، وبما قدمه

للعالم وطلبت من الله أن يمدني بيد المساعدة والعون، لكي أقدم إلى العالم أشياء خالدة كخلود اسوار المدينة القديمة التي كنت أراقبها في هذه اللحظة .

وبعد لحظة من الاستغراق بالتفكير العميق . حول أبطال الماضي الغابر وقفت أشتم هذا اليوم الموافق للسابع والعشرين من شهر تشرين الأول لسنة ألف وتسعمائة وسبع وثلاثين ، لأنني قد حلمت فيه حلماً ذهبياً ، أموت والأمل يرافقني إلى القبر . وما زال يتردد في أذني وقع حوافر الخيل وهي ترتقي التلة.وراودني شعور بالفتنة الساحرة،في هذا اليوم لذا شرحت كل تفاصيله بجلاء . وقد وجدت فيه نوعاً من الإنذار بالبشر. وعلى هذا الأمل . حملت إلى القارىء تفاصيل هذا اليوم الذي أحسبه فاتحة حياة شاقة تكتنفها المصاعب من كل جانب بالنسبة لي .

وما زلنا نتابع السير بالعربة أنا وانجلو حتى بلغنا البلدة . وكانت أبنيتها مزينة بمواد بناء تستعمل في البناء الإيطالي وبقناطر يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى ، بدت ذهبية اللون تحت ضوء الشمس. وشاهدنا الفلاحين وهم يقودون الحمير وبأيديهم السلال يسيرون على مسافة منا. لقد كان يوما كباقي الأيام . وما هي سوى لحظات حتى وصلنا إلى المدخل . وهنا ازداد إعجابي عندما تابعنا سيرنا في شارع منحدر بين صفين من المنازل . وما إن أتينا إلى نهايته حتى ترجلت على

تمدمي طالباً من (انجلو) أن يقابلني بعد ساعة . ثم ذهبت ابحث عن الأوراق التي أحتاجها . وكان الحانوت الذي أفكر به بعيداً ؛ فكان من الصعب علي إيجادها . وبعد عناء طويل وصلت إلى الحانوت. وما كان أشد دهشتي حين وجدته فارغاً من الأوراق التي أحتاجها ، لكنني وجدت أوراقاً مزدوجة . فأجبرت على شراء مائة ورقة منها، على أن أقسم كل واحدة إلى اثنتين عند الاستعمال . وبعدئذ أخذت رزمة الأوراق من المكتبة حيث وضعتها تحت إبطي وذهبت إلى أحد المقاهي وكان هذا المقهى قديماً ومظلماً وقذراً يوجد على بعض رفوفه بعض أدوات مبهمة، وقد خلا المقهى من الزبائن. وبعد فترة قصيرة تركت المقهى وعدت إلى الساحة العامة وهناك دخلت إلى مكتبة تباع فيها الجرائد واخذت اراقب ما عرض من الجرائد والمجلات، وبعدئذ بدأت أركز إنتباهي على الجرائد الإقتصادية المعروضة هناك ، وبعد هذا اشتريت جريدة الصباح ؛ ثم أخذتها معي وذهبت إلى ساحة البلدية حيث بدأت أطالعها ، وأنا على مقعد حجري . تحت الاكمام المطوية للعائلات العريقة والحلقات الحديدية لربط الخيل . وقد ألم بي الحزن لأنني كنت قد قلت لـ « انجلو » أن يتأخر بالمجيء لمدة ساعة ، لكن في النتيجة عزيت نفسي بقولي : له ما يفعل ، وعليّ انتظاره .

كانت الساحة غير منظمة ومحاطة بقصور يرجع عهدها إلى

العصور الوسطى ، منها تعرض لأشعة الشمس ، أما القسم الآخر فمظلل لا تنفذ اليه اشعة الشمس.وكانت في شبه مهجورة تقريباً . نادراً ما كنت أشاهد إنساناً يمر بها . والسبب في ذلك يرجع إلى أن هذا اليوم لم يكن يوم تسوق ولهذا السبب اقفرت من الناس تقريباً . ولقد انقضت عليّ فترة ساعة من الإنتطار لم أشاهد فيها اكثر من عشرة أشخاص ،اكثرهم من الكهنة .

قرأت الجريدة بالتفصيل ، ومع هذا لم أكن متضايقاً ما دام عملي قد سار كما يرغب له من التوفيق والنجاح ؛ إنني لم أبدأ الطباعة هذا اليوم لذا شعرت بهدوء تام ؛ وراحة تامة. وعندما انتهيت من قراءة الجريدة بدأت أراقب أصحاب المتاجر يعملون في متاجرهم حول الساحة ، وفي هذه الأثناء ارتفعت الشمس في السماء وتلاشى الظل إلى قاعدة الصخور . وأصبحت الشمس تغمر الساحة بأكملها . وعندئذ انتصف النهار . وقرعت أجراس الدير للصلاة فهرع الناس إلى الصلاة وعمت الحركة كل المدينة ، وهنا وجدت أن عليّ أن أتحرك كغيري من الناس ، وهكذا ذهبت إلى حديقة عامة كنت اتوقع أن أجد فيها (انجلو) ، وبالواقع صح ما توقعت وقد وجدته غارقاً في الحديث مع المواطنين ، وفي الحال قفلنا راجعين من البلدة إلى قريتنا الجميلة .

وفيما نحن عائدون، بدأت أفكر أفكاراً غريبة ربما بسبب

ـب الذي تعرضت له في هذا اليوم ، وتكاثرت علي الأفكار
ـجة لم أكن أتوقعها . وكنت على ما أذكر كنت أفكر بالناشر
ـي أفضله لنشر الكتاب ، وبالغلاف الذي أختاره له .
ـناقد الذي سيفضله ومن سيكتب بتقريظه . ومن يكتب
ـجريحه . وكنت أفكر علاوة على هذا كله بزوجتي (ليدا)،
ـلت في نفسي إنني في منتهى السعادة لأنني وجدتها، وربما
ـل مرة عند زواجنا . كنت أتحسب لكل عامل يدخل
علاقتنا مع بعضنا بعضاً أو يحاول خلق المشاكل فيما بيننا.
كنت اتمنى من كل قلبي أن تتوثق اواصر الرابطة التي تجمعنا
ـانة وتماسكاً . كنت أخاف المصائب لأن حياتي بأكملها
ـتمدت على مشاعرها بالنسبة لي وشعوري نحوها . كيف
ـكن أن يتغير كل شيء..؟ كيف يمكن فقدانها..؟ ولمَ الحياة
ـدها ؟ فمن المحتمل إذا ما ألمت أي كارثة بزواجنا أن تؤدي
ـياتي أو على الأصح بحياتي وحياتها معاً .

يا الله .. ! ما هذا.. ؟ لقد تألمت لهذه الأفكار، لدرجة
أتمكن أن أتحمل بعدها العذاب،شعرت بنفسي أنني أشرفت
ـى الإختناق . وكان قلبي يخفق سريعاً . فعرفت بعد هذا
ـب الذي بيننا وتأكدت من متانة الرابطة التي تشدني إليها.
كيف أنه ليس بإمكاني العيش بدونها . عرفت أنني بامتلاكها
ـي . امتلك كل ما أرغب ، فهي كل ما أريد وبدونها لا
ـتطيع الحياة، وعندما تخيلت نفسي بعيداً عنها شعرت بأني

ضعيف لا أملك القوة ، وتصورت نفسي من أكثر الناس ضعفاً ، وفجأة شعرت بحزن عميق لدرجة لم أستطع تحمله بعدها .

ومع أن الشمس كانت حارة شعرت بنفسي وكأنني في رعشة غريبة كالتي تحدث لي أيام الشتاء ، وكانت تنتابني من أخمص قدمي ، حتى قمة رأسي وامتلأت عيناي بالدموع وبدأت ابكي بكاء مريراً كالمرأة الثكلى ، التي أصيبت بوحيدها . وبدون وعي أو أي تفكير ، أمرت «انجلو» بالإسراع. فضرب حصانه . وصرخت بعنف رحماك يا الله ... ألن نصل قبل المساء إلى البيت ...؟

لكن لحسن الحظ وصلنا إلى منطقة سهلة من الطريق ، وشعر الحصان بقربه من القرية ، فأخذ يقفز بسرعة شديدة . وأخذت أراقب الطريق بقلق متشوقاً للوصول إلى البيت بأقصر وقت ممكن لأنني متشوقاً لمشاهدة «ليدا» والإطمئنان إلى راحتها . هل هي كما تركتها ...؟ ألم يصبها أي شيء ..؟ في هذا الوقت وصلنا إلى أول السهل الفسيح ، وتابعنا سيرنا حتى بلغنا البيت عندئذ ترجلت من العربة ، ودخلت الحديقة. وكانت مغطاة بأشعة الشمس. وعلى عتبة النافذة دخلت الشمس كالعادة وكأنها كانت تنتظرني هناك لسنوات خلت . إنه مشهد لا يمكن تصديقه ؛ كانت ليدا ترتدي ثوباً جميلاً فاتح اللون، وبيدها كتاب تقرأ فيه بينما كانت تنتظرني في الصالون.

تاركاً النافذة مفتوحة . وعندما سمعت صوت احتكاك العجلات العربة على صخور الطريق خرجت لاستقبالي . وقفت العربة فقفزت منها . وبعدما وصلت إلى الأرض بدأ السلام . وبعد أن انتهينا من السلام دخلنا إلى البيت، وبينا هي تسير ورائي وتتبعني قالت لي : منذ زمن طويل جـــاء الحلاق . إنه بأنتظارك في الطابق العلوي . فسألتها ملتفتاً .. — كم الساعة الآن .. ؟ — بعد الظهر فأجبت لقد كان خطأ « انجلو» وفي الحال سأذهب لأحلق ذقني .

أنزل حالاً . لم تقل شيئاً، لكنها ذهبت للحديقة . وأسرعت للطابق العلوي فخطينا أربع درجات في كل مرة . ثم دخلت غرفة الدرس . حيث كان انطونيو بجانب الطاولة ، التي عليها شفرات الحلاقة ، لقد رحب بي بأنحناء . وأضاف قوله مردداً تحية الصباح . فقلت له بسرعة جنونية : اسرع يا انطونيو... لقد تأخرنا أسرع قدر ما تستطيع ، ورميت بنفسي على الكرسي ..

عرفت أنني كنت مسرعاً بسبب الجوع ، ومن الصباح الباكر لم أذق طعم الطعام . إلا فنجاناً من القهوة . ولشدة الجوع شعرت بألم في معدتي ودوار في رأسي . والجوع جلب لي معه نوعاً من العصبية ظهر واضحاً عندما « انطونيو » بدأ يربط لي المنشفة ببطئه المعروف حول عنقي . الا تستطيع السرعة .. ؟

فكرت قليلاً ثم أخبرته أنني على عجلة ... أرجوك ان تسرع .. إن البطء كان يسرني في الماضي أما الآن فيزعجني لدرجة بالغة . ولكن انطونيو لم يسرع بل تابع عمله كعادته. وهذا ما أغاظني من جديد ولكنني لا استطيع التكرار باعتباري قلت له في مرة سابقة . وعندما أدار ظهره وبدأ يهز الفرشاة في ماء الصابون الموجود في الإناء الخشبي تابعت حركاته بعين قلقة اعد الثواني. جوعي يزداد من فترة لأخرى. وسرعتي تتناسب طردا مع جوعي ، لذا كانت تتزايـــد باستمرار ...

بعد أن انتهى من إذابة الصابون ، وبدأ يغمر وجهي بالرغوة . وقد كان لا يضاهى بتركيز كتلة من رغوة الصابون على وجه زبائنه . كتلة من الرغوة البيضاء الكثيفة ، ولكن في هذا اليوم أغاظتني مهارته وفي كل مرة يدير الفرشاة على وجهي كنت أعتقـــد أنها آخر مرة لكنني كنت دوماً على خطأ . وفي كل مرة كان يلصق على طرف فرشاته قشرة من الرغوة على وشك أن تسقط . وعندما بدأ «انطونيو» عمله من جديد وبنفس الحركة المنتظمة ليطلي وجهي من جديد . لا أعرف لماذا . لكن فكرة رقودي هناك ، والرغوة تغطي وجهي أعطتني شعوراً باليأس . والأردأ من هذا كله أن انطونيو كان يود ازعاجي ... إن آخر شك كان مخزياً وفي الحال رفضته ، لكن دون أن أظهر أن جوعي أضناني . في

النهاية تبين لي أن حركة الفرشاة مستمرة فترة أطول من التي مضت . ولكن بالحال قلت : أسرع . كم من الوقت تحتاج لإرغاء وجهي ؟ رأيت انطونيو يلقي عليّ نظرة سريعة من عينيه المستديرتين الساطعتين، ثم ودون أدنى كلمة أنزل الفرشاة في كأس الحلاقة وتناول الموسى.

لكن قبل أن يدير ظهره ، وبعد أن تكلمت ، لم يكن بإمكانه أن يقاوم ، آخر خفقة على خدي الأيمن . شعرت أن هذه الحركة منه عدم إطاعة ، لا بل يمكن تسميتها وقاحة . وهنا تجاوز غضبي حده العادي .

وقف لحظة يشحذ الموسى ثم انحنى فوقي وبدأ يحلق لي ، بخفة ومهارة أزاح القسم الأكبر من الرغوة عن خدي الأيمن ثم انبطح إلى الأمام ، ليبدأ بالخد الأيسر ، وبينما هو يتابع عمله شد بجسمه على ذراعي وأنا لأول مرة منذ بدأ يحلق لي كنت قلقاً ، من هذا التصرف . وبنفس الوقت لم أستطع تذكر اتهامات ليدا. لم أكن أشك بها أبداً إنها حقيقة واضحة. ونتيجة لهذه الشدة التي قام بها على ذراعي وكتفي استطعت أن أتحسس نعومة القسم الأسفل من معدته ، حتى أنني اشعر بالأعصاب والعرق مغطاة بثياب داخلية أشك بنظافتها وكل هذا شعرت أن نفسي تفيض بدافع من الكراهية لهذا الرجل. وعندئذ استطعت أن أتأكد من مدى كراهية زوجتي له . كانت هذه الكراهية مستوحاة من تصرفه الذي قد يكون

تصرفاً عفوياً لكنه في النتيجة يمكن أن يسبب نوعاً من الثوران الجنسي، ويصبح يمارس هذا النوع من الوحشية بدافع داخلي .

طال بي الصبر منتظراً أن يتزحزح عن وضعه المزعج لكنه لم يتحرك أبداً . وفي هذه اللحظة استطاع غضبي أن يتغلب على الصبر وبسرعة رجعت إلى الوراء.فشعرت ببرود الموسى. الذي كان في هذه اللحظة قد نزل على وجهي، وبالحال استولى عليّ غضب بالغ بالنسبة لإنطونيو ، ولا أعرف كيف حدث ذلك ولربما أشك أن اللاشعور قادني إلى هذا التصرف .

هنا وقف انطونيو فجأة مأخوذاً مستغرباً بعد أن سحب الموسى في يده . وفي الحال وقفت ورفعت يدي إلى وجهي . فوجدت الدم يتدفق بشكل غزير .. !

– ماذا تفعل أيها الحقير .. ؟
– هل أنت مجنون .. ؟
– لكنك تحركت من مكانك يا سنيور (بالدتشي) .
– أنت تحركت ... أنت تحركت بعنف .
ولكنني قاطعته قائلاً ليس هذا صحيحاً ...

ولكنه أخذ يتقدم مني مستعذراً ، حيث كانت دلائل الخوف قد بدت عليه ، وأردف يقول : كيف يمكن لي أن أجرحك لو لم تتحرك .. ؟ صدقني أنك تحركت ، لكن هذا ليس بالكثير ... إنني في غاية السرور إذا لم يحدث اكثر مما

حدث لأنني توقعت جرحاً خطيراً للغاية ، ثم انتظر لحظة يفكر فيها وذهب إلى الطاولة ، فتح زجاجة صغيرة وأخذ قطنة. ثم بللها بالكحول، ومع أنني كنت في حالة من الغضب الشديد . أخذت القطنة من يده وصرخت صرخة قوية . يا لك من غبي .

– ماذا تعني بقولك إنني كنت أتوقع أن يكون الجرح أعمق .

– إنه جرح بليغ .. وفي الحال أخذت القطنة . وذهبت إلى المرآة . وشعرت بألم شديد من جراء استعمال الكحول ، ودب اليأس في كل أوصالي . وفجأة رفعت قطعة القطن التي كانت قد تلطخت بالدماء. وصرخت: إن هذا ليس بالكثير.. أمتأكد أنت من صحة ما تقول ... ؟ إنك لا تعرف بما تتحدث ... يا انطونيو .

واشرت إلى وجهي قائلاً : انظر هنا، الأفضل أن تنعزل من البيت .

– لكن عليّ قبل كل شيء يا سنيور بلداتشي ان أنهي لك الحلاقة ... لا نعم .. !

– اذهب ولا ترني وجهك ثانية .

إنني لا أريد رؤيتك هنا ثانية ألا تفهم ما أقول .. ؟

– لكن يا سنيور بلداتشي ...

ـ كفاية اذهب ولا تدعني أراك ثانية . أبداً بالمرة ... اخرج .. ألا تفهم .. ؟

ـ هل سأحضر إلى عندك في الغد .. ؟

ـ لا غداً ولا بعد غد.. ولا في أي يوم آخر.. وكفاية.. لا أقول لك أكثر مما قلت ٠.

وهكذا وقفت أصرخ وسط الغرفة : والمنشفة ما تزال مربوطة حول عنقي، بعدئذ رأيته ينحني إنحناء ساخراًمتمتماء كما تريد . ثم خرج إلى الباب ومضى ولم أشاهده فيما بعد . وبينما كنت وحدي انقطع سيلان الدم تدريجياً . فأخذت المنشفة ومسحت الرغوة . الباقية على وجهي وتمليت نفسي بالمرأة . وهكذا كانت هذه الفترة هي الفاصل الأخير بيني وبين انطونيو ، وهكذا فصمت الروابط فيما بيننا . وأخيراً أخذت قطعة من القطن وبللتها بالكحول ، وبدأت أمسح بها وجهي حيث ظهر فيه الجرح بشكل واضح كبير .

بعد هذا بدأت أفكر في نفسي عن الثورة التي دفعتني إلى طرد انطونيو . وعرفت أن الجرح كان مجرد وسيلة لطرد انطرنيو الذي أرغبه منذ زمن طويل ، وهكذا طردته بعد أن أصبح طرده لا يسبب لي ولا لزوجتي أي أذى .

ووقفت بعد أن طردت انطونيو أمام تأنيب الضمير ، لأنني كنت منذ البداية اتصرف بدافع الأنانية الداخلية ، وما زلت على هذه الحال حتى تم عملي فاختلقت سبباً لطرد انطونيو .

مع أنني رفضت طلب زوجتي لطرده عدة مرات . وهكذا تأكدت من نفسي ، أن الأنانية تسيطر علي. وعلمت في قرارة نفسي أنني لم أسلك سلوكاً جيداً مع زوجتي، وفي هذه الأثناء كنت أرتدي ثيابي. وعندما انتهيت نزلت إلى الطابق الأسفل حيث كانت تنتظرني زوجتي ، فوجدتها جالسة قرب المائدة تنتظر حضوري ، وعندها بدأنا نتناول الطعام بهدوء ، حتى اذا قاربنا النهاية ـ قلت لها : أتعلمين يا ليدا أنني طردت انطونيو ..

ـ أصحيح ما تقول .. ؟

ودون أن ترفع نظرها عن صحنها ، سألتني قائلة : وماذا ستفعل لتحلق ذقنك .. ؟

ـ سأحاول الحلاقة بنفسي لمدة أيام لأننا سنترك هذا المكان بعد فترة قصيرة من الزمن . أليس كذلك .. ؟ ولا أدري ماذا حصل له اليوم اذ جرحني جرحاً بالغاً .. انظري اليّ وهنا رفعت عينيها بسرعة ونظرت إلى الجرح . وعلى الفور سألت : هل وضعت مطهراً على الجرح .. ؟

نعم ... لكن تأكدي أن الجرح كان بمجرد وسيلة لطرد انطونيو، وبالواقع لم أعد أستطع أن أتحمل من تصرفاته أكثر ما تحملت،إنك على حق يا ليدا ..

ـ وماذا تعني بهذا ... ؟

ـ لقد جمعت معلومات كافية حول هذا الرجل ، وقد

اخبرني عنه «انجلو» ما فيه الكتابة ، وتأكدت من أنه رجل فاسق . لا يقاوم غريزته . وهو معروف بهذه الصفة بالمنطقة بأسرها ، إنه يلتبع النساء في الشوارع فهو عامل إزعاج بالنسبة لهن . الآن تأكدت من أنك قد تكونين على حق ؛ ومع ذلك ، فقد تذرعت بالجرح لطرده .

لم تقل شيئاً، فتابعت قولي : إنه غريب لدرجة لا يمكنك أن تتصوريها . نعم إن هذا صحيح .. لكن لا أعرف ما رأي النساء به .. إنه كريه للغاية، بل لا يوجد إكره منه..

ـ هل وجدت الأوراق المطلوبة في البلدة .. ؟

ـ لا ، ليس بالضبط . ولكن اشتريت أوراقاً عوضاً عنها تسد الحاجة . وهنا تبين لي أن موضوع «انطونيو» ، لم يكن على جانب من الأهمية بالنسبة لزوجتي ، لذا غيرت محور الحديث . وتابعنا الحديث عن الكتاب ، اذ سألتني زوجتي متى سأبدأ بالطباعة . فأجبتها قائلاً : أنني سأبدأ بالطباعة اليوم . وسأعمل القسم الأكبر منه هذا اليوم لكي أنتهي منه سريعاً وبأقرب وقت ممكن .

كانت زوجتي في هذه الأثناء ساكتة لا تفوه بكلمة . واستمرت بتناول الطعام باطمئنان ، وتابعنا حديثنا أكثر فأكثر عن كتابي وعن مخططاتي : ثم قلت : سأخصص هذا الكتاب لك ، لأنه لولا حبك لم يكن باستطاعتي كتابته ، وأخذت يدها. وعلى الفور رفعت عينيها وابتسمت لي إبتسامة

تفيض بالعاطفة والمحبة الصادقة وقد لمست هذا بنظرتها التي توحي لي بكل معاني الحب والإخلاص . حتى ان الأعمى يستطيع أن يتأكد من صحة ما أقول : وما زلت أمسك يدها . لكن حماسي قد هدأ في هذه اللحظة وكانت « ليدا » تبتسم لي . كما تبتسم الأم لطفلها الصغير ، ابتسامة تدل على المحبة ، ابتسامة تنبعث من القلب ، ابتسامة تدل على الفرح . إبتسامة الحبيب للحبيب الذي لا يريد لإزعاجه . ثم لا تلبث ان تتكلم بصوت عذب جميل، يفيض بالرقة، وتقطعه النهدات كصوت الطفل الصغير ، يناجي أمه . عندما أكبر يا أماه سأعمل على مكافأتك .

وبعد هذا الهدوء ، قالت « ليدا » : وماذا ستكون المكافأة .. ؟ فأجبت بأرتباك : مهما كانت الهدية . سأجدها بسيطة زهيدة بالنسبة لـ « ليدا » لـ زوجتي .. لماذا ..

ـ اتريدين إهداء هدية أفضل ...

ـ لا ، لم اقصد ، أي شيء ...

ـ من هذه الفترة كانت ليدا تفكر بأشياء أخرى ، بعيدة كل البعد عن مدى نظرينا. بينما كنت أسحب يدي بلطف من يدها سرحت في تفكير عميق؛ وبدأت انظر من خلال الشباك إلى الأشجار النائمة في الخارج. كنت أفكر أن إنساناً سيقطع هذا السكون ، لكن لم يحدث ما توقعت . وظلت صامتة فترة طويلة حتى ليخيل إلى الناظر أنها كانت تريد أن تظل

صامتة سواء بأفكارها ام بلسانها ، أم بشفافها ، ولم تقبل بأي طريقةلتغير الموقف،ولكي لا أظهر فشليحاولت أنأصرخ فقلت : هل تعلمين أن أجل إهداء من الكاتب هو ما يقدمه لزوجته ..؟ سأهديك هذا الكتاب ليخلد حبنا إلى الأبد. وسأكتب عليه : الى زوجتي . التي لولا وجودها لما استطعت أن اكتب ما كتبت الآن .

بعد هذا الحديث التفتت إلي مبتسمة لي ابتسامة باهتة . فأضفت بسرعة، مع أن الوضع قد تغير .. لم يكن باستطاعتي كتابته لولا حضورك .

ـ وفي هذه المرة لم تبتسم لذلك ، بل قالت : إذا كنت لا ترغب في ذلك فلا نضع أي إهداء بالمرة .

وظهرت عليّ ملامح الغضب والمرارة ، لأنها بدت تجمع نفسها بجهد . ثم أخذت يدي ثانية وقالت : يا سلفيو كيف تتصور أنني لا أريد الإهداء .. ؟ ولكن العزيمة كانت واضحة هذه المرة . كانت كعزيمة أم لأبنها عندما تعود إليه ثانية بعد أن تصفعه وهي تقول : إذا كنت تريدين سأصبح جنرالا .. فأجابت هي . أنا اريدك هكذا . وأريد أن تربح معارك ضخمة ، وعظيمة اكثر من هذه التجربة . وشعرت بغضب كالغضب الذي كنت قد شعرت به (مع انطونيو) والذي عزيته للجوع . ووقفت حائراً لأقول : أظن أن حنة أخذت القهوة سابقاً ولم تعد .

١٢

بعدما انتهينا وتركتني زوجتي ذاهبة إلى غرفتها طلبا للراحة . صعدت إلى غرفة درسي وثبت الألة على المقعد. لكي أبدأ بالطباعة . بعد ان فتحتها ووضعت الغطاء على الأرض ، ووضعت إلى جانب آلة الطباعة من ناحية اليمين المخطوطة . وإلى يسار الآلة وضعت الصفائح البيض ، وأوراق الكربون، وبعد أن جهزت العمل على اكمل وجه ، أخذت صحائف بيضاء ، ووضعت بينهما صحيفة من الكربون . ووضعتها جميعاً بالآلة ، ومن ثم كتبت العنوان لكن الورقة كانت مائلة ، ولم أرتبها بإحكام ، وبالإضافة إلى ذلك نسيت أن أطبع العنوان بحروف كبيرة ؛ وأخذت الأوراق الثلاث من آلة الطباعة . ووضعت ثلاثا أخرى هي مكانها . وفي هذه المرة كان العنون تماماً في الوسط ، لكنني عند التدقيق وجدت أنني قد وضعت ورقة الكربون وجهاً لا ظهراً ، وهكذا تلفت النسختان، ولم يعد بالإمكان استعمالهما ..

غضبت غضباً بالغاً، ومزقت الأوراق من الآلة ثم وضعت أوراقاً غيرها مكانها .. ومع هذا وقعت هذه المرة بغلطتين

أو ثلاث وجه التقريب حق غدا من الصعوبة بمكان أن يقرأ العنوان.وفجأة أنتابني شعور من الخوف،ونهضت عن الكرسي

وبدأت امشي في الغرفة ، من مكان إلى إخر اراقب المطبوعات المعلقة على الحائط في الغرفة التي اعمل بها . إنها مناظر جميلة خلابة ، فعلى هذا الحائط جثم منظر جميل لقلعة « كميرسي » ومنظر آخر جميل لبلدة « ويمر » ولفت إنتباهي منظر جميل لعاصفة تمر فوق بحيرة (سناربرغ) بالإضافة إلى منظر شلالات « الراين » . وكان البيت يسوده الهدوء التام . فدرفات الشبابيك كانت نصف مفتوحة. ويتسرب من الخارج إلى الغرفة شعاع ضعيف من النور . وفي الحال شعرت بأرهاق بالغ ، ونعاس لا أقوى على مقاومته . ولذا تركت المكتب قاصداً غرفة أخرى أشد ظلمة ، وتمددت هناك على مقعد خشبي قاسي، في زاوية من الغرفة أشد ظلمة. وبينما أنا استلقي بهذا الوضع مددت يدي إلى طاولة تقع إلى جانبي . وأخذت عنها جلداً أحمر ومفكرة . لقد كانت المفكرة قديمة يرجع تاريخها إلى سنة الف وثمانية مائة وستين . إن صاحبها القديم زين كل صفحة منها بصورة جميلة لمناظر طبيعية تعكس أسلوبهم القديم للطباعة الذي كنت أبحث عنه في كل مكان . وكانت هذه المناظر مرسومة بخط شبيه بخط القلم الانكليزي وكتب إلى جانبها حكم باللغة الفرنسية . ونظرت إلى هذه المناظر وقرأت من الأخبار التي كتبت إلى جانبها ، سواء أ كانت

فكرية أو عاطفية . وفي هذه الأثناء سيطر عليّ النعاس ، بشكل لا يطاق ، وأخذ التثاؤب يتردد عليّ بين الفينه والأخرى، فأعدت الكتاب إلى مكانه على الطاولة واستلقيت على المقعد ورحت في سبات عميق .

– نمت قرابة ساعة ، وفي أثناء نومي كنت أنهض بين الحين والآخر . لأراقب المقعد، والآلة الكاتبة، وكل الأدوات التي كنت استعملها. وكانت الأفكار تقودني إلى أنه يجب أن أعمل . لكنني كنت لا أقوى على العمل وقد ألم بي الوهن . ولكن بالنهاية نهضت من النوم . لم يعد بإمكاني النوم مرة ثانية في مثل هذا الوقت .

كانت الغرفة مظلمة لدرجة لم أكن استطيع منها التحرك من شدة الظلام ، ولكن رغم كل هذا ، تلمست الطريق إلى النافذة وفتحتها . كان النور منتشراً ، لكن الشمس مالت نحو الغروب . وسقط شعاع منها إلى داخل الغرفة . وفي الحال . ودون أن أفكر بشيء آخر . جلست على المقعد وبدأت الطباعة .

طبعت صفحتين بسرعة عظيمة،ولكن قبل أن أبدأ بطبع الصفحة الثالثة ، توقفت عن العمل . وسرحت بتأملات بعيدة

وفي الواقع كنت حزيناً ، لأنني عرفت وقرأت كل ما كتبت خلال بضعة أيام . إن كل مـــا كتبت لم يكن سوى كلمات عاطفية،وتبدو لي أنها بلا معنى ، كلها أجزاء منقطعة

بدون موضوعية ، بيد أنها أجزاء مرصوفة إلى جانب بعضها بعضاً على الصفحات ، ولا يمكنني القول بأنهـــا أكثر من ذلــك .

قطع هذا الصمت الرهيب صوت زوجتي مرددة التحية ، وبعدها قالت بلطف :

– ما رأيك في فنجان من القهوة يا عزيزي ؟

فرحبت بقدومها الذي جمّع أفكاري المشتتة، وباقتراحها الذي عرضت فيه عليّ فنجاناً من القهوة ، ولربما كانت مرسلة إليّ من عالم بعيد لتخلصني من السخافات التي اعتدت عليها خلال كتابتي لأطروحتي .

وهكذا مضت « ليدا » لتحضر لي القهوة ، لكنني تبعتها على الفور إلى الطابق الأسفل ؛ فوجدتها تلبس فستاناً كانت ترتديه أيام نزهاتنا . وكانت القهوة على الطاولة . وتقدمت بجهد إلى الطاولة حيث كنت أشعر بتعب بالغ . وجلست أحتسي القهوة، وفي هذه الأثناء كنت أمازح زوجتي بطريقتي الخاصة . وفي أثناء الحديث بدت لي « ليدا » بشوشة فرحة، لأنها تخلصت من العزلة بوجودي إلى جانبها . وهذا ما سرني جداً ، وبعد أن انتهيت من القهـــوة . نهضنا من الغرفة ، وخرجنا إلى الباب الخارجي المؤدي إلى الطريق العام ...

وكما قلت سابقاً : كنت أقوم بنزهات أنا وزوجتي إلى المنطقة المجاوره . وبعد مسير بسيط على الطريق العام سلكنا

طريقاً خاصة كنا قد اعتدنا عليها ، وكنت أنا أسير في المقدمة وليدا تتبعني ، وحتى هذه اللحظة كان عقلي وسائر مشاعري تحت ضغط المرارة والحـــاجة للفهم الذي أثارته أطروحتي ، ولقد قمت بجهد بالغ لكي أتوصل إلى القول الحقيقي ، لكنني مع هذا كله لم أتوصل إلى النجاح بشكل نهائي ، لكي أزيل التفاهات القديمة التي عرقلت كتابتي بشكل محسوس .

في هذه الأثناء كنا نتابـــع سيرنا على طريق تنساب أمامنا بين المزارع بشكل متعرج،لكي تمر على هذه المزارع بأكملها. وأحياناً كانت تمر بين البيادر ، وأحياناً أخرى أمام الأكواخ المعزولة ، ثم تتعرج بين منطقتين محدودتين ، أو تتجنب حفرة بالقرب من حديقة خضار ، أو تتعرج مع صف من أشجار الكرمة على جانب حقل ..

وبينما كنا نسير كنا نمتع أنظارنا بالمناظر الطبيعية الظاهرة لمسافة بعيدة ... نعم .. إن الخريف قد كشف كل معايب الطبيعة . فها هي تبدو عارية جرداء . خالية من كل ما هو جميل. أين الزهور .؟ أين الفراشات ؟ أين الفتية الذين يمرحون في الحقول ..؟ أين النحلات التي تجمع الرحيق من الأزهار..؟ أين كل هذا .. ؟ لم يبق إلا الأشجار العارية الجرداء .

قادتنا الطريق إلى جسر قديم ، فوقفت أتأمله بينما تابعت زوجتي السير أمامي ، وكانت على ما أعتقد ترتدي معطفاً

من القماش الرمادي،مطرزاً بألوان مختلفة منها الأحمر والأخضر والأزرق ، والأصفر . عندما كنت أحدق فيها ، وهي تسير على مقربة مني ، كنت خائفاً ، بحيث تبث لي أنها وحدها التي أحبت كلمات أطروحتي . وهي لا تشكل سوى نقطة فراغ واسع . هنا قلت بلطف : « ليدا » وشعرت أن ما كنت أقوله هو أسخف ما في الوجود ، لكن مع هذا تابعت القول : إن إسمي هو « سلفيو بلداتشي » لقد أحببت امرأة وتزوجت منها اسمها « ليـــدا » . وبعد إن وصلت إلى هنا بحديثي ، فكرت فيما قلت فوجدت نفسي لم أقل شيئاً بالمرة .

راودت تفكيري فجأة عدة أفكار ، فوجدت أن الطريقة التي يمكن بها أن أتخلص من هذا الجو، هي أن أشد زوجتي من شعرها ، وألقي بها على الحجارة الصلبة في الممر . كما أنها هي بالمثل . ترسل لي بضربة من رجلها على قصبة رجلي ، وبهذه الطريقة قـــد يتأزم الخلاف إلى شيء أعظم من هذا وأمزق الأطروحة وألقي بها في النار . وأتخلص بذلك من كل التقصير الموجود فيها .

هذه الأفكار خلقت في داخلي شعوراً جديداً يفيض بالنشاط وهنا وقفت متسائلاً : ألم يكن بالإمكان أن أكون ذاتيتي..؟ وذاتية الآخرين إلا من خلال الألم ... ؟ ولكن عزيت نفسي بالفكرة . إنها كانت هكذا . وإن لم تكن كما كتبت بالضبط . ويكفيني من زوجتي أنها تحبني وأحبها . وشعوري بالفشل

لا يعتمد على الطريقة التي كتبت بها على ذاتي .

كانت زوجتي تبحث عن مكان تجلس فيه ، لكن هذا الأمر كان شاقاً لأنه لا يوجد مكان في الحقل بدون زراعة . وكل مكان له ما يلائمه . وكل ذر من التراب بها بزرة . وفي النهاية وصلنا إلى وادٍ يسمى « إس » كان يقسم السهل إلى شطرين محدثاً في الوسط بركة بدت كالمرآة الكبيرة . وكانت الضفتان مغطاتين بالعشب. وتنحدران بشكل سريع،ومياهها كثيفة خضراء ويوجد ضمنها ثلاث أو أربع أشجار من الحور. ومحاطة بجدران من الاسمنت ، وعلى جوانبها أماكن تدل على انها كانت تستعمل لنشر الملابس . وهذا يعني أنها كانت تستعمل مكاناً للغسيل ، وفي هذا الوقت استلقت « ليدا » على العشب وهي تقول : إن نقطة في هـــذا الريف الصغير يستفاد منها . أن لا يستعمل أي شيء حولها ...

وطفقنا نتكلم بهدوء في هذه اللحظة قبل غروب الشمس حيث كان كل ما في الطبيعة قد ركن للهدوء ، وفي مثل هذا الوقت يسمع الصوت لمسافات بعيدة .

واقتلعت زوجتي نباتاً صغيراً يؤكل ، وطفقت تـأكله بينما كانت مـــا تزال جالسة على ضفة النهر . وكنت أنظر إلى الظلال.ظلال اشجار الحور المنعكسة على المياه الصافيةنتحدث أحاديث مختلفة ، ومن جملة ما تحدثناه أنني سألتهـــا عما إذا كانت ترغب في الصعود إلى الجبال في فصل الشتاء .. هنـــا

بدأت « ليدا » تقص عليّ قصة حياتها التي حدثت في مصيف جبلي قبل سنتين .

لقد دام أول زواج تزوجته « ليدا » فـــترة قصيرة ، كما شرحت سابقاً ، ثم مني بالفشل الذريـع . وبعدها عاشت فترة طويلة تناهز عشر سنوات لوحدها . وفي هذه الفترة كان لديها كثير من الأحبة ، أخذت تحدثني عنهم بتفصيل وإسهاب دون أن تترك أي غموض في حياتها بالنسبة لي . وكانت متأكدةمن أن هذا الأمر لا يهمني كثيراً ، لكن السؤال الذي يراودنيهو لماذا تصرفت زوجتي هكذا ؟.. لا أدري .. ربما كان ذلك بسبب الغرور ، أو لظروفها الحالية المختلفة التي تحياها ، أنا لا أقول إن هذه القصص أفرحتني ، مع اني توقعتها. وشعرت بدهشة بالغة لم أكن أتوقعها . وهذه الدهشة على ما أتوقع هي ناتجة عن الحساسية التي لم أكن لأتوقعها بي فيما مضى .

أما بالنسبة إلى « ليدا » فانها عندمـا جلست تمضغ النبتة الصغيرة على ضفة النهر كانت تفكر تفكيراً بعيداً وقد عزلها هذا التفكير عني روحياً ، وجعلها تتحدث معي بطريقـــة لاشعورية ، وعندمـا جلست على ضفة الغدير ، كانت عرضة لشعور قوي .

والآن أخذت تعبر عن هـــذا الإحساس العميق بصوتها الدافىء المثير للحساسية ، كانت تحدثني عن أشياء واقعية،عن أشياء حدثت فعلاً ، وكنت أستمع لها مع أن مجمل ما حدثتني

كان سيئاً بالنسبة لي وحتى أن هذا الحديث بالنسبة للرجـــال الآخرين ممن أعني العصبيين منهم قد يسبب كراهية عظيمة . أما بالنسبة لي فلم تكن كل هذه الأحاديث التي حدثتني بها على جانب من الأهمية ، فكنت أستمع الى حديثها بكل بساطة ، فقد حدثتني كيف كانت تسمح أن يتقدم منها الرجـل الذي تريده ، وكيف تسمح لرجل ما بتقبيلهـــا .. وكيف تقضي أوقاتها مع الرجال .. لقد كان حديثهـــا بالنسبة لي كمنبه وكجرعة من السم أعطيت إلى مريض خطير فنجى من الموت وعاد الى الحياة .

لقد أخبرتنى « ليدا » عن مغامرة صادفتها في « الألبي » مع شاب ذى شعر أحمر ، وتابعت قولها بهذا الشكل :

– كنت في الجبال في شهر آذار ، أنزل في أحد الفنادق ، حيث لم يستطع أحد أن يصل إليه إلا نادراً . وفي ذات يوم وصلت جماعة من الرجال يلبسون في أرجلهم « قباقيب » التزلج على الثلج ، وفي حال وصولهم إلى أمام الفندق ، نزعوا القباقيب من أرجلهم ؛ وكأنهم يريدون الدخول إلى الفندق ، وكان بينهم ضابط شاب ذو وجه أحمر ظهر عليه النمش وله عينين زرقاوين لا يعتمر قبعة ولا يلبس معطفا . لكنه يرتدي قميصاً أخضر فاتحاً فقط . وعندما انحنى ليحل حقيبته رأيت ظهراً يدل على كل معاني الرجولة ، وعندما وقف ينظر إليّ ونظرت اليه ، فانتابنى الخوف من أنه لم

يفهم ماذا أعني بهذه النظرة ، لكن تبين لي أنه فهم علي .
وعلى الفور دخلت الغرفة الرئيسية بالفندق ، حيث وصل هو
مع رفاقه وجلسوا جميعاً إلى طاولة . وقد جلس هو معهم
مولياً ظهره للنافذة ووجهه للغرفة ...

وبعد أن جلست قليلاً من الوقت ذهبت إلى البار وطلبت
كأساً من الشاي ، ثم جلست إلى طاولة مقابلة لطاولتهم ،
لقد كانوا في هذه الأثناء يمازح بعضهم الآخر ويتحدثون .

لقد وقفت كالمجنونة أحـــاول استرعاء انتباهه إليّ ،
لكنه لم يفعل ذلك ، وقد أخبرني فيما بعد أنه لم يستطع حتى
إلقاء نظرة عابرة نحوي .

لقد اعتقدت أنـــه لم يلاحظني ، لكنه بالنهاية نظر إليّ
وعندئذ وضعت أصابعي على شفتي وأرسلت قبلة اليه كما تفعل
الطفلة الصغيره .. لقد رآني أفعل هذا ، ومع ذلك لم يشر
إلى أنه أدرك ما أعنيه .

لقد بدأت أشعر بأنه لم يعجب بي . ولذا خلعت معطفي،
وتظاهرت بأنني أريد نزع الحزام عن كتفي لأظهر له قسماً
من كتفي ، ولكنني على الفور شعرت بغضب وتركت الغرفة
عائدة إلى مقعدي على ظهر البيت أما هم ، فقد جلسوا فترة
أطول يشربون الخمر ، ثم خرجوا بعدها ليأخذ قباقيب التزلج
وليقلعوا أما أنا فقد جلست حائرة بغرفتي .

غابت الشمس . وكنت ما أزال في مكاني منتظرة أوبتهم

ولكن دون أن يتحقق حلمي ، وكنت في هذا الوقت أرتعش من شدة البرد .

لقد ألم بي القنوط ، وبكيت مـا بكيت ، عندها ظهر فجأة ينزل من أعلى الجبل .

تركت مقعدي وهرعت إلى ملاقاته وأنا أشعر بسعادة غامرة ، وعندها قال لي : كان علي أن أخترع بضعة أعذار ومع هذا منهم من لا يصدقون ما أقول ، على كل هذا لا يهم. هذا ما قاله إلي وكأنني أعرفه منذ وقت طويل .. ولم أجيبه إذ كنت مسرورة لدرجة لم أستطيع معها الكلام ، وخلع قباقيب التزلج على مهل ثم أخذته بيده وقدته على مهل إلى غرفتي في الطابق العلوي .

– تصور .. ! حتى أنني لا أعرف اسمه .. !

لقد أوردت القصة إيجاز ، كما روتها زوجتي لي ، بعذوبة صوتها ، بحركاتها الشيقة ، ولعلك تجد فيها من الغرابة ما لم تسمعه قبل الآن ..

وعندما انتهت من سرد هذه القصة بدى لي أنها كانت أكثر حيوية من أي إنسان مهما كان ، وانني أنا نفسي كنت بحاجة للتمرين على هذه الحيوية . كان من الواجب عليّ أن أخفي بعض الانطباعات التي ظهرت عليّ بشكل واضح ، ولكنني مع هذا لم أكن زوجاً يصغي بعقل . لتعلقه بحب

زوجته ، بل كنت أشبه ما أكون بتلة من التربة خلصت من الإذابة إلى تراب ، وذلك بهطول الأمطار في وقتها الصحيح ، فنظرت إليها وهي تجلس هناك ، شاردة الفكر ، تمضغ نصلة النبتة ، وعرفت هناك أنني لم أعد مهتماً بشعوري بالواقع المرير .

١٣

عدنا ببطء إلى البيت ، وكنت هادئاً سعيداً بقضاء أفضل أوقاتي، وتحدثت أثناء هذه الفسحة إلى زوجتي وناقشتها بكل ثقة بنفسي . وعندما وصلنا إلى البيت كانت الساعة متأخرة عن الوقت المعتاد، ورجعت زوجتي من توها إلى غرفتها لتبدل ملابسها بملابس النوم ، ولتذهب بعد ذلك إلى المطبخ حيث نجلس إلى المائدة لنتناول الطعام ، وفي هذه الفترة وضعت اسطوانة مسجلة بالمذياع ، بأربعة أنغام – وجلسنا على الكنبة فشعرت بفرح غامر وكأنني بوضع سكري مبهج .

وحالاً عندما بدأت الموسيقى بلحن جهوري جميل . وبمقدمة تتساءل وتجيب بإيقاع عذب جميل ، خيل إليّ ان وراء الأكمة ما وراءها ، وإن الأمر اكثر من اسئلة واجوبة ، بل اكثر من سؤال من شاب تجيبه شابة بصوتها الرقراق الذي يسحر الألباب، بل كان هناك وضعان : الأول سلبي ، والثاني إيجابي ، احدهما ممنوح ، والآخر ممدوح .

إن الألحان اوحت بالعلاقة الثابتة خلال الزمن الطويل ، والتي لم تأبه لعصر ، سواء أكان هو العصر الحاضر أم العصر الماضي القديم .

رقصت زوجتي على هذا اللحن ، كما رقص عليه العديد من الناس في العصور القديمـــة ، وبينما أنا أسبح بأفكاري لم أشعر بمرور الوقت ، وقد دهشت لرؤية « ليدا » تظهر أمامي بحلتها التي ارتدتها في الليلة الماضية . لقد أوقفت الفوتوغراف بينما الاسطوانة لم تنتهِ بعد قائلة بجدة : لا أريد أن اسمعه .. أنها لا تدري لماذا : بل قالت كل ما أشعر به هو أنني لا أود سماع الموسيقى هذه الليلة. وبعد أن جلست على حافة الكرسي سألتني بلطف : هل ستبدأ طباعة قصتك هذه الليلة ... ؟

وبعد هذا السؤال نظرت زوجتي إلى المرآة التي كانت في حقيبتها اليدوية ، ثم أصلحت باقـة الزهور الجميلة الموضوعة بظفائرها ...

أجبتها برضى : نعم سوف أبدأ الطباعة الليلة وسأستمر بذلك حتى منتصف الليل .. أريد أن أعمل بنشاط كي أتمكن من اكمالها خلال بضعة أيام .

وهنا وضعت يدها على شعرها وهي تقول : حتى منتصف الليل ... ؟ ألا تظن أنك ستشعر بالنعاس ... ؟

– لماذا ... ؟ إنني معتاد على المثابرة على العمل إلى ساعة متأخرة من الليل ، انني أريد الانتهاء .. وهنا وضعت يدي حول خصرها النحيل، وتابعت قولي إنني أريد الانتهاء بسرعة لأتمكن تكريس وقتي بأكمله لك . وبعد أن وضعت المرآة بحقيبتها سألت : لماذا .. ؟ ألا تظن أن العلاقة كما هي الآن

متينة فيما بيننا ؟ ، فأجبت بصوت يفيض بالرقة : لا ليست كما أرغب أن تكون .

فأجابت « ليدا » : آه لقد فهمت ، وقفزت واقفة وبدأت تسير هنا وهناك ، بطريقة تدل على الغضب مما دعاني إلى الاستفسار : ماذا تعني بهذه الحركة .. ؟ أجابت بصوت حاد النبرة انني جائعة ... ألا تشعر أنت بالجوع ؟ .

– حقاً،لكنني لا أريد تناول الطعام . لئلا أشعر بالنعاس على الفور .

– أراك مهتماً بنفسك ..؟ وهنا غضبت غضباً شديداً لأنني لم أكن أتوقع سماع هذا القول .

– ماذا تعنين بقولك .. ؟ بذا سألتها بهدوء ولاحظت أنها أغاظتني ، فوقفت على مقربة مني ثم لمستني برقة لتقول : آسفة ... إن الإنسان يصبح حزيناً عندما يشعر بالجوع ... أرجو ألا تعلق أهمية على قولي :

– حق ما تقولين ، بل هو عين الصواب . هنا تذكرت قول « أنطونيو » : الجوع يجعل الإنسان حزيناً حاد الطبع .

– حسناً ، إلى أي مدى تستحسن هذا الجلباب . ربما أرادت هنا تحويل نوعية المحادثة ، لأنه كما قلت كان نفس الجلباب الذي ارتدته في الليلة الماضية . ولقد شاهدته عدة مرات رغم ذلك قلت مداعباً : حقاً إنه جميل ويلائمك تماماً.

غيري إتجاهك لعلني أرى بشكل واضح .

لقد استدارت بكل سرور لتريني نفسها . وعلى الفور لمست بعض التغير . عن الليلة اللاضية .

في الليلة الماضية ، كانت تشد خصرهـــا بحزام هو بزي أميركي مصنوع من الحرير والمطاط . نعم كانت تضع الحزام لتحتفظ بالزي المناسب لجسمها .

– إنني لا أرغب برؤية هذا الحزام أبداً ، لأنه كان ضيقاً يشد خصرها وكأنه مشد طبي .

لاحظت ان الحزام قد اختفى ، وانها الآن أكثر بدانة منذي قبل .. وقلت لها يبدو أنك مرتاحة من استعمال الحزام الأميركي هذه الليلة .

نظرت إلي نظرة خاطفة ، ثم أجابت . لم أضع هـــذا الحزام لأنني مللته ... ولكن كيف لاحظت ذلك ... ؟ في الليلة الماضيه بينما كنت تشدين خصرك به كان واضحاً .

وهنا لم تجاوب « ليدا » ، لأن الخادمة دخلت على الفور لتخبرنا بأن الطعام كان مهيأ ، ودخلنا غرفة الطعام وبدأت زوجتي الأكل على الفور .

لاحظت أن زوجتي كانت على خلاف مما ادعته ، من انها لا تحس بالجوع أبداً . لقد صبت القليل من الطعام ، الذي قدم إليها .

عندما صببت الطعام لنفسي قلت : لقد كنت تشكين من الجوع ، ومع ذلك لا أراك تقدمين عليه برغبة ، عندما قدم اليك .

لقد نظرت إليّ بسخط ، وكأنها غضبت كما يبدو عليها من تعابير وجهها .

– لقد كنت على خطأ .. أنا لست أعاني من الجـوع . والواقع ان رؤية الطعام تسبب لي دواراً .

ألستِ بخير ؟.. بذا سألتُ بقلق ..

وهنا ترددت قليلاً ثم أجابت مسرعة وبصوت خـافت : أعتقد انني بصحة جيدة لكن ... لكنني لست بجائعة .

لاحظت أن صوتها كان خافتاً متقطعاً ثم صمتت وأخذت تجوب بشوكتها في أنحاء صحنها ، وتتنهد من أعماق قلبهـا ، واضعة يدها على قلبها .

– إنك لا تشعرين بسرور .. قلت هذا خائفاً ، ولكنها اعترفت على الفور قائلة بصوت خافت وكأنها على وشك الاغماء: لا ، إنني أشعر بحزن شديد .

– هل تريدين الاستلقاء بعض الوقت ؟..

– لا ..

– هل أصرخ للخادمة ؟..

– لا .. أعطني مما تشربه ..

وصببت لها بعض الخمرة ، فشربت منها قليلا مما أعاد اليها نشاطها ثانية .

وأحضرت الخادمة الفاكهة ، لكن « ليدا » لم تأكل منها شيئاً ، أما أنا فأكلت عنقوداً من العنب ، بينما أخذت تراقبني

كلما رفعت حبة إلى فمي ؛ ولما انتهيت من أكل المنقود ووضعته على الأرض قفزت واقفة لتقول : إنني ذاهبة للفراش ..

– ألا تريدين بعض القهوة ؟.. سألتها ذلك وأنا خائف لأنها كانت في أغلب الأوقات تصرخ بعنف ، كما تبعتها إلى غرفة الاستقبال .. فأجابت بصوت جهوري قائلة : لا ، لا أريد القهوة بل أريد النوم ..

كانت تقف على الباب عندما كانت تجيبني بضراوة وقساوة ، وهي تضع يدها من مقبض الباب .

وطلبت من الخادم إحضار القهوة إلى الطابق العلوي حيث تبعت زوجتي ، التي فتحت لي الباب . وشقت طريقها إلى السلم ، فرافقتها ثم قلت لها : الآن أبدأ عملي . فأجابت دون أن تلتفت نحوي : أما أنا فأنام

– هل أنت متأكدة أنك خالية من إرتفاع في الحرارة ..؟ ووضعت يدي على جبينها .

ابتعد عني وقالت : انك يا « سولفيو » تخلط دوماً الجد بالهزل . إنني لست بحاجة طبيعية . وهذا كل ما في الأمر .

ووقفت صامتاً والحزن قد ألم بي ، وعندما وصلنا إلى غرفة النوم أمسكت بيدها ، وكنت أريد تقبيلها ، لكنني ترددت لأقول لها : أريد أن أطلب منك معروفاً .

– وأي معروف ؟. صرخت بصوت شديد القرة .

– أريدك أن تأتي إليّ لحظة .

وقلت بارتباك : لتطبعي قبلة على أول صفحة من قصتي.. وهذا سيجلب لي السعادة والنجاح.

وضحكت ضحكة طويلة تفيض بالغرابة ، ثم دخلت بسرعة غرفة الدرس وهي تصرخ : كم أنت خرافي!.. كم أنت أبله !.. لكن سأقوم بما تشاء ..

أطفأت لها المصباح ، واختفت بالظلام وراء مقعدي.

– أية صفحة ؟.. قل لي أي صفحة تريد أن أقبلها ..

كانت تردد هذا القول كأنها أصيبت بنوع من الحمى العصبية .

اقتربت منها أسلمها أول صفحة ، التي لم يكن عليها سوى العنوان « الحب والزواج » .

أمسكت الورقة وقرأت العنوان بصوت عال وأعقبت بتعليق به من التذمر ، لم أدرك سببه ؛ ثم رفعت الورقه إلى فمها وطبعت عليها قبلة وهي تقول :

– هل أنت راض الآن ؟..

وتحت العنوان تماماً حملت الصفحة آثار شفاهها على شكل هلالين أحمرين كأوراق الزهر.

فنظرت اليها بنوع من الرضى لأقول أخيراً :

– شكراً يا عزيزتي .. ورفعت يدها وربتت على وجهي ثم سارت نحو الباب لتقول بسرعة : أرجو لك حظاً سعيداً بعملك هذا ، ثم التفتت إلي قائلة : أنا ذاهبة للنوم ، انني غاية في التعب ، أرجوك ألا تقرع باب غرفتي مهما كان السبب.

إنني أريد أن أنام الآن ولا شيء سواه .. وحتى الصباح .. عندها ..

– حسناً حتى الصباح ..

وخرجت تسير نحو الخادمة التي كانت تحمل لي القهوة وبعد أن ذهبت زوجتي أشعلت سيجارة ، وجلست على مقعدي وتناولت فنجان القهوة ، ونزعت غطاء الآلة الكاتبة .

الآن ينتابني الهدوء الفكري وبد لا في الفكر الملبد بالتعب والآراء المتضاربة ، وظهر في عقلي عوضاً عنها أفكار سليمة صحيحة مضبطة كالساعة ، بعيدة عن الغرور والتكبر والخوف . كما وكانت آلة الكتابة سليمة فعكفت على العمل أملاً في إنهاء كتابتي .

وبينما كنت أدخن ، والسيجارة في فمي . وعيناي تطوفان فوق الورقة ، بدأت الطباعة لكي أتمم الصفحة التي سبق وبدأتها .

لقد أخذت السيجارة من فمي ووضعتها في المنفضة . ثم سحبت المطبعة جانباً ، وأخذت القصة ، وبدأت وكما قلت : كنت أشعر براحة فكريه تامة .

بعد أن طبعت أربعة أسطر ، بدأت أشعر بالخطأ . وبتعبير آخر ، راود مخيلتي أن القصة لم تكن كما توقعت لها من النجاح لكنها بدت لي رديئة .

ذكرت سابقاً أنني كنت على جانب من الذوق الأدبي ،

وهذا ما يجعلني أقوم بدور الناقد العصيم . وتبين لي أن الافكار المركزة تجعل من الكتابة مسرحية .

الكلمات كانت بين يدي ، وكنت أتفحصها كما يتفحص عالم الآثار قطع المعادن ، لمعرفة تاريخ كل منها . هكذا كنت أتفحص القصة بتجرد تام لا أتأثر بشيء ، بل أنظر اليها كما ينظر اليها أي إنسان آخر لا علاقة له بها. وفي أثناء مطالعتها عرضت عــــن قراءتها كيلا أتعرّض لقراءة تسلسل القصة . لذلك كنت أقرأ فيها قطعاً متفرقة من هنا وهناك . وكلما قرأت أصبحت أشد قلقاً .

تأكدت أن كل ما كتبته كان خاطئاً. القصة رديئة للغاية. فجأة أخذت ورقة بيضاء ، وقلماً وبدأت أدون ملاحظاتي تماماً كما فعلت عندما قمت بمراجعة الكتّاب .

وبرأس الصفحة كتبت : إنها ملاحظات «سلفيو بلداتشي» حول القصة المسماة « الحب والزواج » . ثم وضعت سطرا تحتها وبدأت أدون الملاحظات .

لقد تبعت في أثناء عملي . الطريقة التي كنت أتبعها عندما أقوم بالنقد ، وهي تحليل الموضوع على دفعات من ثم أجمع هذه الملاحظات .

من الطبيعي أنني أقصد أن أكتب مقالاً عن نفسي إنمــــا أن أحقق بشكل معقول عن الدوافع التي جعلتني أعتقد بفشل القصة . كما إني أردت عقاب نفسي لاعتقادي أن القصة من

الروائع. وفضلاً عن ذلك أردت تحقيق نتيجة حول طموحي الأدبي الذي كنت أجهد في سبيل نجاحه .

– هذا ما كتبته على الصفحة .

– أولاً : الاسلوب . وتحت هذا الموضوع كتبت .

– إنه اسلوب رقراق جميل به من السلاسة والرنة والعذوبة الشيء الكثير ، ولكنه يشذ عن هـــذه القاعدة في بعض الاحيان فهو يميل إلى الاسهاب في الشرح ، عن الموضوع . في المواضيع التي لا حاجة فيها لذلك ، ويميل إلى الايجـــاز في مواضع يمكن الاسهاب فيها .

ثانياً – المرونة : لا يوجد لها أثر في القصة .

– إن ما يوجد في القصة هو سبك الأحـداث ، وليس تصويرها بقالب يظهر روح الأحداث .بل كان القصد الكتابة وليس التصوير . لذلك احتاجت إلى الحقائق الثابتة القيمة .

ثالثاً – شخصيات القصة .

– يخيل إلى القارىء أن شخصيات القصة لا يمتون الى الثقافة بشيء ، إنما هم أشخاص عاديون بدائيون . انهم اغبياء قليلو الملاحظة ؛ بدون شعور يمارضون أنفسهم ، ثم يتلاشون بسرعة بحيث لا يبقى منهم سوى مدلول اسمائهم بالحقيقة يخيل للقارىء أنهم مجرد شخوص .

رابعاً – الأثر النفسي للقصة :

– رغم اللف والدوران ، والتعابير والاصطلاحات فالأثر

النفسي بهذه القصة يكاد يكون معدوماً ، يشعر القارىء أن
المؤلف . ينتقل من موضوع إلى آخر . دون أن يسلك طرية
لكشف الحقيقة . إنه يعتني بالسفسطة والأسهاب .

- خامساً : المشاعر : تعني كلمة مشاعر . مدى تأ
ابطال القصة بأدوارهم . ويمكن أن أقول في هذا الصدد م
يلي : إنها مشاعر جافة ؛ رغم المشاعر التي تظهر جائشة في
بعض الأحيان . إن كل هذه المشاعر ، ما هي إلا مشاع
مصطنعة ، تكمن وراء التهويل والتضخيم ....

سادساً : العقدة ، لا توازن بها ولا بناء . والعقدة ظاهر
لا تحتاج إلى الإجهاد والتفكير للوصول إلى الحـل الصحيح
خيوطها قليلة ، وكلها قريبة لنهاية ظاهرة ، والتحول الفكري
فيها يسير سيراً آلياً ، بحيث لا توجد قوة دافعة .

سابعاً : النظرة العامة حول الكتاب ، إنه كتاب لكاتب
كبير رغم انه معروف بذكائه وثقافته ودقته ، فهو في هـذ
الكتاب يفتقر إلى الشيء الكثير ولكن مع هذا فان الكتاب
يحمل بين طياته مواضيع جديدة ، ومشاعر جديدةوبالإضافة
إلى هذا يخيل إلي أنه مأخوذ من عدة كتب وهذا يأتيبالدرج
الثانية أو الثالثة من حيث ميزاته .

النتيجة للنقد : السؤال الذي يراود العقل هو : هل هذ
الكتاب يستحق أن ينشر ؟

نعم ، ولم لا ؟.. يمكن طباعته ونشره بكل ثقة بعد أ

يلصق اليه الطباعة الحجرية التي يعدها فنان أو أي إنسان آخر . وبعد مقدمة ملائمة يصبح من عداد الكتب المحترمة .

رغم كل هذا يبقى الكتاب زهيداً . هذه الجملة الأخيرة تنطبق تماماً على قصتي ، فهذه حقيقة دائمة إلى الأزل ، رغم أن الكتاب قد أخرج الى حيز الوجود بسعادة تامة وحماس بالغ ..

يكفيني على وجه التقدير هذا الإيجاز . وبعد هذا أعدت المخططة إلى حافظتها . وأخذت الأوراق من الآلة الكاتبة وأقفلتها . وبعد هـــذا وقفت أتجول في الغرفة بينما أشعلت بيدي سيجارة ، فخيل إليّ ان الأحلام التي كنت أحلم بها في الماضي قد قادتني إلى مشاكل متعددة حتى أصبحت كالهموم .

بعد أن حكمت حكماً صارماً على إنتاجي الأدبي فإن الجلاء بقي راسخاً في عقلي كرسوخ ضوء القمر فوق بحر هائج، حيث تقوم قطعه كبيرة وصغيرة من حطام سفينة . وهكذا تركز تفكيري على حطام طموحي . فظهرت كل خفاياه جلية واضحة .

– هكذا كانت الأيام تمر وأنا ألازم مكتبي أكتب القصة . لقد انصرفت فترة طويلة للكتابة . واعترضتني مصاعب جمة، لقد سيطر علي هذا التفكير . فرميت السيجارة إلى الأرض ، التي لم تمض إلا فترة قصيرة على اشعالها . وبحركة لاشعورية رفعت يدي لأضغط بها على صدغي .

لقد ثبت لي أن فشل الكتاب سيجر فشلاً أوسع . بل إن حياتي بأكملها ستتعرض للفشل .

كما واني تحققت من أن وجودي بأكمله يعارض هذه النتيجة، لدرجة صعب علي تصوير شعوري .

لقد بدا لي وكأن جميع الآراء القيمة قد تبعثرت هنا وهناك . كما شعرت بأنني أهوى إلى نقطة بطلان وسخافة علاوة على ذلك ، لقد عارضت تصوير شخصيتي من خلال ما ورد في الكتاب .

نعم . لم أكن أرغب في أن أظهر ضعيفاً صغيراً أو عاجزاً ومع ذلك فقد عرفت أن التصوير كان صادقاً لأنني أعارضه .

أمام هذا اليأس ، وهذه الأفكار المتزاحمة شعرت بوهن ألم بي بشكل واضح . حتى انني لم أعد أتمكن من الأنفراد داخل الغرفة ، وشعرت بأننى أسير بلا شعور بل كأنني ورقة صفراء ذابلة تساق أمام دوامة عابثة من الرياح .

لم أنتبه للحركة التي قمت بها كما وأنني لم أنتبه للأفكار التي داعبت مخيلتي .

ودون أي شك ، فقد راودتني فكرة الاستغاثة بزوجتي لأنني كنت أعتقد أن وجودي إلى جانبها ينقذني من هذه الأفكار التي غمرتني ، وهكذا ، وجدت نفسي بعد بضعة دقائق أمام باب الغرفة التي ترقد فيها زوجتي . وعلى الفور رفعت يدي وطرقت الباب .

– لاحظت أن الباب كان مفتوحاً قليلا ، وترك بدون أن يوصد . ولذا اعجبت. لماذا ترك بهذا الوضع؟. أين التحفظ والباب كما هو الآن .

– لم يجب أحد على ضرباتي . ثم أعدت الكرة وضربت الباب بعنف . ومع ذلك فالنتيجة واحدة . وبعد أن أنتظرت فترة قصيرة دفعت الباب ودخلت .

– كانت الغرفة مظلمة ، فأضأت المصباح . وكان أول ما لفت انتباهي بهذا الضوء الخافت ، هو حلة زوجتي الملقاة على السرير . أكامها ممتدة منظمة . والسرير مرتب

– لقد ظننت أنها لم تكن قادرة على النوم فنزلت إلى الحديقة . هذا بالاضافة إلى نوع من المضايقة النفسية قد اصابني كان من المفروض أن تدق باب غرفتي لتعلمني ... لماذا تذهب وحدها ؟..

– نظرت الى الساعة . فعرفت أنها تشير إلى مرور ثلاثة ساعات بين هذه اللحظة واللحظة التي قبلت فيها زوجتي أول صفحة من قصتي ، لكن الأحداث التي توالت دعتني أفقد الشعور بمرور الوقت . فكان يخيل إلي أن الثلاث ساعات قد مرت كما تمر فترة وجيزة من الزمن ، وبعد هذا تركت الغرفة ونزلت على السلم .

– لقد كان الزجاج الأزرق والأحمر – زجاج غرفة الاستقبال مضاء . حتى بدا أن كل من في البيت لم يناموا .

دخلت إلى الغرفة متأكداً أنني سأجد زوجتي هناك . لكن الغرفة كانت فارغة إلا من الأثاث .

وكان الكتاب التي تقرأ فيه زوجتي موضوعاً على الطاولة ومقلوباً وجهاً على عقب ، وكأن زوجتي وضعته هكذا وهي لا تزال وسط مطالعتها ، وإلى جانب الكتاب كانت توجد منفضة للسجائر امتلأت بأعقاب السجائر . وكل هذه الأعقاب ملطخة بأحمر الشفاه .

كان واضحاً أن زوجتي نزلت السلم بعد أن تركتها ، وقضت الوقت تقرأ وتدخن في غرفة الاستقبال ، بعد ذلك يجب أن تكون خرجت تتنزه في الحديقة . ولم يكن قد مضى طويل وقت على خروجها من الغرفة ، لأن هواء الغرفة ما زال مشحوناً بالدخان ، مع ان النوافذ مفتوحة . ربما كان بامكاني اللحاق بها ما دامت قد خرجت منذ فترة قصيرة ، لذا أسرعت أفتش في الحديقة أمام البيت .

لقد عدت بتفكيري الى الوراء . فتذكرت نزهاتنا على الطريق في ضوء القمر الجميل ؛ وفجأة تراكمت عليّ الهموم فتغلبت عليّ رغبتي وطرق مخيلتي أنه يجب عليّ في هذه الليلة أن أنفذ غرامي مع « ليدا » على البيادر وسط هذا الكون الذي ينعم بالسكون ، وتحت أشعة القمر المنيرة .

ومن المؤكد أن ما أوحى لي بذلك كان محركاً طبيعياً عادياً منطقياً . وكنت هذه المرة مقتنعاً وبأنه يجب عليّ أن

طلق العنان لنفسي لتسير حسب ما تريد دون قيد أو أشرط
ومثلي بذلك مثل الفلاح الذي تعب من جراء عمله طيلة النهار،
فعاد إلى البيت يطلب عناقاً مريحاً مع زوجته .

بعد ما حل بي ما حل من مشاكل ومصاعب اعترضت
سبيلي فقدت أملي أصبح من المفروض عليّ أن أقبل ظرفي ،كما
هو الحال عند الآخرين .

بعد هذه الليلة كنت واثقاً من نفسي بأن أكون الانسان
اللبق الذي تمثلت فيه صفات الذوق الأدبي الذي ينظر الى
الأمور بشكلها الطبيعي ، فيدرك حقيقة نفسه قبل أن يدرك
حقيقة الآخرين ، والانسان المحب لزوجته والمحبوب منها .
قد تكون زوجتي الموضوع الذي أحاول تدوينه بقصائدي
وقد أعيش غرامي فيما يكتبه قلمي ، رغم أنني لا أجيد
التعبير عنه . إن النساء يحببن الرجال الناجحين الذين أهملوا
كل طموحهم إلا أنهم لم يهملوا ما يسرهن .

– وهكذا كنت أتابع سيري مطرقاً برأسي إلى الأرض
أغرق في تأمل عميق . بعدئذ رفعت رأسي من الأرض ، فلاح
لي شبح على مسافة بعيدة مني ، وكان هذا الشبح هو شبح
« ليدا » نعم إنها ليدا زوجتي بثوبها الأبيض الجميل برقبتها
العارية وشعرها الذهبي الجميل ، وبعد لحظة تلاشت من أمامي
وراء رابية من الأرض . ولم يعد بأمكاني مشاهدتها .

أجل إنها ليدا ... ! ليدا في طريقها إر الغربة ..

— لقد سرني تفكيري بأنها كانت تسير إلى نحو البيادر الى المكان الذي أرغب فيه بتنفيذ غرامي معها .

وكأنها كانت تنفذ موعداً دون أن تعلم أن هذا الموعد كان لي وعددت السير فقطعت المنعطف ، واستطعت رؤيتها ثانية . وعندما تحولت إلى طريق فرعية ، تقود إلى ممريين المنتزه و الحقول .

كنت بين الحين والآخر ، أصرخ إليها مفكراً باللحاق بها لأحضنها بين ذراعي .

كنت سائراً على الطريق ، بينما هي كانت على مسافـــة بعيدة مني في الممر الفرعي ، فأسرعت وراءها على نفس الممر في هذا الوقت كانت قد وصلت إلى الرابية التي يجثم عليها بناء المزرعة . لقد كانت تسير مسرعة . ولأول مرة عندما مرت بين ظلال الأشجار المظلمة،وجهها العابس أثار بيشعور غريب.

وهكذا تابعت سيري إلى أن وصلت بناء المزرعة . هناك كفت عن المسير ، نتيجة أفكار لم استطع تفسيرها . لقد استطعت أن أشاهد « ليدا » تتسلق المنحدر الشديد العميق نحو البيادر حيث أكوام القمح .

وبينما هي في طريقها إلى البيادر صادفتها انخفاضات في الطريق فزلت قدمها ، وأوشكت على الوقوع إلى الأرض لولا أنها تمسكت ببعض النباتات . واستمادت قواها وتابعت سيرها

بسرعة حتى ليخيل إلى الناظر ، كأنها أشبه ما تكون بعنزة شاردة تفتش عن الكلأ .

ولم تتوقف عن المسير إلا بعدما وصلت القمة . واسترعى إنتباهي في هذه اللحظة رجل يحاول أن يتربص بها . لقد أراد أن يوقفها ، وانحنى ليمسك بذراعها . فظهر لي وجهه فعرفت أنه (انطونيو) .

– لقد أصبحت على بينة مما يجري . لقد انتابتني رعشة ودهشة . لم أرَ لها مثيلاً من قبل ، منذ ثلاثة أسابيع عندما دخلت غرفة زوجتي لأراها مهجورة وقد طلبت مني زوجتي طرد انطونيو الحلاق .

– هذه الدهشة الممزوجة بكآبة مريرة كادت تختفي وتجرح لي قلبي ، ولكنني لم أرغب في النظر اليها، ولولا أن احترامي لنفسي الذي جعلني أنظر اليها بألم .

لقد ظهر البيدر وكأنه مسرح سينمائي . تدور فيه مأساة تجرح قلبي . ووجه إليه ضوء خافت وهو ضوء القمر .

وفي مشهد من هذه المسرحية رأيت« ليدا » تقاوم الرجل وهو يحاول ضمها إلى صدره . وبينما استدارت قليلا تحاول التخلص لاحظت على وجهها علامات الأسى والحزن . تظهر بشكل واضح .

كان « انطونيو » يحاول ضمها اليه بينما هي تقاومه وتبتعد عنه ثم أنني لا أعرف كيف أدارت له ظهرها وطفقت تلف

وتدير نفسها محاولة التخلص ، وإبعاد فمها عنه . ولكنها أخذت تقاوم مقاومة المستميت ..

ظل هذا الجهاد فترة قصيرة بينهما ، وكانا في بادىء الأمر الواحد وراء الآخر ، ثم تغير الوضع فأصبحا جنباً إلى جنب وتمسكه بذراعيها من صدره محاولة صده ودفعه إلى الوراء ، بينما كان ذراعاه حول خصرها ، ورأسها قد ألقي إلى الوراء، بيد انهما انزلقا الى الوراء وأصبحا وجهاً لوجه . وفي هـذه المرة سحبت رأسها الى الوراء ، فأمسك هو بخصرها ورفـع ثوبها فأبان ساقيها بشكل واضح .

ولأول مرة أحسست أن هذين الساقين ساقا رُاقصة ذوا لون أبيض ، مشدودان بأعصاب متينة ، يرتكز على أخمصيهما قدمان مستطيلا الشكل . لقد وقفت بسرعة بينما وقف هو بهدوء محاولا معانقتها.

لقد انتشر ضوء القمر عليهما فظهرا وكأنهما يقومان برقص عادى . لقد كان منتصباً دون حركة بينما هي تدور حـوله . إنها لرقصة دون موسيقى ودون ايقاع . وبالنهاية لا أدر مـا حصل ؛ أهي أرغمته على فقدان توازنه ؟.. أم هو فعل هذا مختاراً ، فقد وقعا الى الوراء معاً ، واختفيا في ظل أحـد الأكوام .

لقد تأثرت لرؤيتهما يختفيان وراء أكـوام القش لأنني في هذه اللحظة كان بامكاني مشاهدتهما بوضوح لأن ضوء القمر كان منتشراً بشكل جيد ، ولا يعيق عن النظر
لأول مرة خيل إليّ بأنهما غير زوجتي والحلاق اللذين رأيتهما بل إن ما رأيت لم يكن سوى شبحين حسبتهما يرقصان تحت ضوء القمر .

لقد وضعت زوجتي بتجربة قاسية ، لقد تذكرت أنه في الليلة السابقة . أوحى لي ضوء القمر بالحب التائه على البيدر ، وسط السكون الذي يلفنا من ناحية ، وشعرت بدافع داخلي وكم كان شعوري مصيباً .

اقد راود تفكيري شك بأن محاولتي الوقوف إيجابياً إنما هي على حساب كرامتي المجروحة . لقد خدعت بمرارة . لقد خدعتني زوجتي بالحلاق وهذه الخديعة وقعت بيني وبين زوجتي . وهذا التفكير ساقني الى شعور مرير ، لقد عرفت لأول مرة بعد أن رأيت «ليدا» بين ذراعي «انطونيو» بأنني أقف أمام الدور الذي حكم عليّ فيه وهو دور زوج لزوجة

خائنة ، وبنفس الوقت كنت أشعر بأنني غير قادر على قبو
هذا الوضع ، بالإضافة إلى ذلك لم أكن زوجاً كباقي الرجال
بل كانت علاقتي بزوجتي كما أريد وليس كما يفرضها قانو
الزواج ، وهكذا يجب أن تبقى . يجب عليّ أن أبقى ض
المنطق والإدراك . وكانت هذه دعوتي، ولن يستطيع الحد
أن يسيطر عليّ ليغير هذه الدعوة وحينما عدت للبيت، بدأ
أركز ذهني على الأحداث التي جرت بيني وبين زوجتي وبـ
انطونيو .

كان من المؤكد أنه رجل فاشل لكن كان من المحتمل أ
لم يكن في بادىء الأمر قد قصد السوء بتصرفاته، فأول احتكا
له بزوجتي كان عن طريق الصدفة ، هذا بالإضافة إلى أ
زوجتي لم تكن راضية عن تصرفاته التي أطلقت عليها ا
الحاجة للإحترام عند الحلاق ، ورغم ذلك فقد أخفت حز
في بادىء الأمر . وهي تخفي حقداً بالياً .

وبالواقع فانها عندما طلبت مني طرد الحلاق طلبت أ
أدافع عنها وأن ألومها أكثر من أن ألوم الحلاق ، انني لم أقـ
القصد ، وسبب ذلك أنانيتي التي دفعتني إلى الاقتناع التام
إنها لم تستطع تمييز الانانية بسلوكي ، كما أنها لم تستطـ
التعبـــير عن الأسباب التي دعتها الى أن تطلب مني طـ
« انطونيو » بل أخفت في نفسها كل مظاهر الألم .
هكذا تحملت «ليدا» وضعاً سمحت فيه للحلاق بالاستمر

بالمجيء إلى البيت كل يوم ، ومرّت عدة أيام على هذا المنوال، حتى كأننا في هدنة مصطنعة لكي أنهي عملي . لقد كان من جراء ذلك نزاع وإثارة لبعض المشاكل . وبعد ثلاثة أسابيع أنهيت عملي وفي هذه الأثناء كانت زوجتي قد وصلت إلى ما تريد لتحقيق رغبتها الخفية .

في هذه الأيام كنت أنزل الى القرية أنا وزوجتي وما ذلك إلا رغبة في تعريف زوجتي إلى أهل القرية ، ومدى احتقارهم للحلاق .

لقد وصل « انطونيو » الى البيت وأخفق في إيجادي عندئذ تقابل مع زوجتي على السلم أو في غرفة الدرس ،فكان بالنتيجة أن هجم عليها بعنف ولربما هي تصورت ذلك .

على أية حال لقد نشأ تفاهم قوى فورى كامل بينهما،ومنذ ذلك الحين تغيرت تصرفات « ليدا » واتسم سلوكها بعدم الليونة .

وهكذا كانت على موعد مع « انطونيو » بنفس المكان الذي حاولت به في الليلة السابقة ، إشباع شهوتي منها . وبعد أن طرد منها.وبعد أن طرد « انطونيو » من البيت أصبحت تتصرف تصرفات غريبة وليست كزوجة تحب زوجها .

لقد كانت متأكدة بأنى في عملي تلك الليلة ، حيث تذهب لموعدها.وقد مثلت في حيلتها هذه دور الهرة مع الفأر عندما أخبرتني عن مغامرتها مع الضابط (الفيلبني) وقد أوحى لها

بالقصة لقاؤها مع « أنطونيو » ذلك اليوم .

وعندما حان المساء غيرت ملابسها ولم تلبس الحزام الأميركي لتكون أكثر سرعة ، أكثر عراء ، وعندما كنا نتناول الطعام لم تحاول إخفاء غضبها محتضرة الخداع الذي في مثل هذه الحالات يلطف الأوضاع .

وبينا كنت متوحداً في غرفة الدرس كانت بدورها تجلس في الطابق الأرضي ساعات ثلاث. وهي في هذه الأثناء تدخن السيجارة تلو الأخرى وتعد الثواني والدقائق وعندما دنا الوقت أسرعت لتنفيذ موعدها .

إن الرقص الذي مثل أمامي كان نتيجة تفجر عظيم لشهوتها المكبوتة ، وبقي علي أن أعترف بالحقيقة وهو أنني تأكدت من سلوك « ليدا » الخادع . فتارة نجدها تفيض بالشهوة حتى إذا ما أصبحت كالنهر السائب بالصحراء .

لقد حدث كل هذا بينها وبين « انطونيو » مع هذا لم تتغير علاقتها معي ، لقد كنت متأكداً من أنني إن لم أقل شيئاً ستستمر على حبها لي ، كما كانت في السابق .

بل وأكثر ، وإنها ستقوم بخطوات تتخلص معها من « انطونيو » في اليوم الثاني ، هذا إن لم تكن فعلت ذلك .. إن هذه الفكرة لم تكن لتريحني بل زادتني غماً وكآبة . لقد كانت برهاناً آخر على عدم قدرتي ، على رضائي ، وعلى عجزي .

لقد كان الانتاج الأدبي وزوجتي بالنسبة لي العاملين الاساسيين اللذين ترتكز عليهما حياتي ، وهما عاملان لعاطفة عظيمة تجيش في قلبي ، وتوقعت لهما نهاية فاشلة . بالنسبة للقصة لم تكن ذلك الإبداع الادبي النادر ، وبالنسبة لزوجتي ليست مثال الطهر والعفاف والحب الصادق الذي تتصنعه لي .

بينما الأسى يملأ قلبي عدت من التنزه الى البيت فارتقيت اتهرج ، وعدت الى عملي ، جلست والقلم بيدي والورقة أمامي حيث كتبت في أعلاها « أعز ما لدي ليدا » . لقد كانت رسالة وداع لزوجتي كتبتها والدمع يذرف من عيني .

لا أدرِ كم بكيت ، بل كل ما أذكر أني كنت أكتب والبكاء المرير يملأ عينيّ ، ويتساقط الدمع على الكلمات فيزيل بعضها .

لقد كنت أريد أن أعلمها أن كل شيء قد انتهى فيما بيننا ، وأن من الأفضل لكلينا الانفصال ، لكنني عندما كتبت هذه الأشياء شعرت برابطة متينة تشدني اليها ، وازداد ألمي وذرفت عيناي دمعاً غزيراً ، يعبر عن الحيرة الملمة بي والأسى الذي استولى علي ؛ لقد شعرت بأنني متعلق بها لدرجة أن الأمر لا يهمني مهما كان تصرفها ، وإن كانت تخادعني . وأكثر من ذلك فقد شعرت بألا فرق لديّ إن هي قامت بالمغامرات مع من تشاء شرط أن تحتفظ لي بنصيبي من حبها .

أخذت أتصور كيف تكون الحياة بدونها ، عرفت أنني

رغم التفكير بالانتحـار لسنوات خلت ، فان الوقت الآن يدعوني للانتحار الفعلي ، ومع ذلك تابعت كتابـتي وبكائي إلى أن أنهيت كتابة الرسالة ووقعتها .

عندما عدت لقراءتها ثانية أحسست بأنني لا أملك الشجاعة التامة لإرسالها ، وهنا أدركت مدى ضعف شخصيتي المبنية على المرارة والأنانية واعترفت بذلك بالحال .

لقد عرفت بأنني بعد تلك الليلة ، سأكون أكثر إعتدالا، على الأقل سأقوم بتغيرات من شأنها إصلاح ذاتي . لقد عرفت الكثير عن نفسي خلال تلك الليلة ، لقد بدا لي أنني عرفت بها أكثر مما عرفته في السنوات الماضية عن حياتي . وهذ ما هدأ من ثوري النفسية .

تركت المقعد ودخلت إلى غرفة النوم وغسلت عيني المتورمتين من البكاء ، ثم عدت إلى غرفة الدرس ووقفت أمام النافذة انظر للحديقة أمام المنزل .

وقفت هناك مدة ربع ساعة دون أن أفكر بشيء ما بل ساد تفكيري هدوء ورصانة تامة ، حتى أن الهدوء خ على روحي .

وفي هذه المرة لم أكن أفكر «بليدا» ، وقد ذهلت عند رأيتها تظهر على أحد جوانب الحديقه ، سائرة نحو البيت وكانت لكي تسير بسرعة ترفع بكلتي يديها ثوبها الطويل وبدت تركض على الطريق المضاءة بنور القمر مما جعلني أ

أن حيوانا مفترساً تصدى لها ، وقد ملأ جسدها بالجراح فتلطخ الثوب بالدماء .

هذا الشعور أثر عليّ لدرجة تصور لي أنهـــا لتحول الى حيوان ، ورغم هذا الشعور لم أستطع إخفاء الابتسامة الطويلة ، وبعد أن ركضت مسافة طويلة ، اقتربت مني وقـــد رفعت رأسها وعينيها نحوى ، وأنا ما زلت أقف أمام النافذة .

لقد نظرت إليّ فوجدتني أحدق اليها فتقابلت نظراتنا ، ولقد تأكدت في حقيقة نفسها أن هذا المشهد لا يخلو من الكآبة فأطرقت برأسها الى الارض ، ودخلت الى البيت ، بينما انسحبت أنا من أمام النافذة لأذهب وأجلس على المقعد داخل الغرفة .

١٦

بعد لحظة فتح الباب ، ودخلت الى داخـل الفرفة . لقد عرفت ان هذه الكآبة الظاهرة عليها ما هي إلا لتغطيـة واقعها ، وهنا لم أتمكن من الابتسام ثانية.

كانت ما تزال تمسك مقبض الباب عندما سألت : ماذا تفعل .. ألست مستمراً بعملك ؟..

وبدون أن أرفع رأسي أجبتها : لا ..

– خرجت أتنزه في الحديقة ؛ إذ لم أستطع النوم.وأخذت تشرح لي ما لم أسألها عنه : ما بك ؟..

وكانت بنفس الوقت تقترب نحو المقعد،وتنظر الىالاوراق المبعثرة ، فأجبتها بجهد ، وضبطت أعصابي : لقد قمت هذا المساء باكتشاف ... اكتشاف مهم .. سيلعب دوراً مهماً في حياتي .

فنظرت إليها وكانت ما تزال تجلس على المقعد تحدق بالآلة الكاتبة ، عابسة يغمر وجهها الإنكماش والغضب ، وبعد هذا صرخت بصوت عال وقالت : ما هو الاكتشاف ...؟ تأكد لي أن « ليدا » على استعداد للنقاش . لقـد ذكرني

وضعها ببعض الحشرات التي تنتصب على قدميها الخلفيتين عندما تقع في خطر مهددة بقتل عدوها ، وهذا الوضع يسميه علماء الطبيعيات « الوضع الخيالي » ، خيل إليّ أنني أسمعها تصرخ بصوت عال : نعم : لقد أسلمت نفسي للحلاق ، وأنا أحب الحلاق .

– حسناً ، إفعلي ما تريدين ، ثم تنهدت وتابعت قولي لقد اكتشفت ، عند قراءة القصة بأنها قصة حقيرة ولا أمل لي بالشهرة ككاتب .

– رأيتها ما زالت تقف ساكنة هادئة ، وعند سماعها ما لم تكن تتوقع بدت لي مرتابة ، لا تصدق ما سمعت أذناها ، وعندها وبصوت يفيض بالعنف أخذت تصرخ: ماذا تقصد..؟

فرددت عليها :

– إنني أخبرك الحقيقة ، لقد كنت أخدع نفسي ... بينما كنت أكتب القصة كانت تبدو إلي كإحدى الروائع ، لكنها بالحقيقة تافهة ... وأنا لست سوى رجل بسيط عادي .

وهنا ضربت يدهـا على جبينها ، ثم اقتربت لتجلس إلى جانبي ، وكان من الواضح أنها تقوم بجهد للعـــودة إلى الدور الذي كانت مجبرة على تمثيله ، قائـلة : يا « سلفيو » لم تؤكد ذلك ؟..

إنني الآن متأكد مما أقول ، وكثيراً مـا كنت أفكر

بالانتحار وبينما أقول هذا وعلى حين غرةرفعت رأسي ونظرت اليها .

وفي هذه الأثناء وبينما كنت أتحدث عنالقصة كنت أفكر في « ليدا » ، وقلما كانت تؤثر علي رداءة القصة . لكنني لم أستطع نسيان الطعنة في قلبي عندما رأيتها تداعب«انطونيو» وما زالت الآثار ظاهرة عليها ، لقد كان شعرها محلولاً ، وما زالت بعض قطع القش عالقة به ، وباقة الورد التي كانت تزين بها شعرها وقعت على البيدر . لقد تلاشى لون شفتيها إلا من بعض البقع الحمراء المنتشرة هنا وهناك ، والذي كان سبباً لإظهار وجهها بهذا المظهر القبيح ، كما كان ثوبها ممزقاً ، وعلى الركبة كانت توجد بقعة من الوحل ناتجة عن وقوعها إلى الأرض .

وهنا تأكد لي ان « ليدا » على معرفة بهذا الوضع ، بيد أنها كانت تتعمد أن تظهر هكذا ، وإلا لكان من السهل أن تذهب الى غرفتها وترتب نفسها ، وتلبس عوضاً عن ثيابها الممزقة ثياباً أخرى جديدة ..

شعرت بهذا الموقف وكأن « ليدا » تجيب : لماذا تتأخر بقتل نفسك ؟..

ترجمت هذا كله بأنه ناتج عن الانحراف عن الحق .. لأنني لم أستطع مقاومة الاغراء فقلت : بالنسبة لي هذه القصة على جانب من الأهمية .. ومع هذا أعرف الآن انها قصة فاشلة.. ولدي البرهان على ذلك .

وفي هذه المرة أدركت ولربما كانت هي تدرك وتحـــاول خداعي ، فنظرت الى الأرض بارتباك ، وكانت تضع يدها على خصرها ثم أنزلتها الى ركبتها لتغطي بها بقع الوحل .

وبهذه اللحظة وقعت بارتباك إذ كان من الصعب عليهـــا إعادة توازنها إلى طبيعته لتلعب دورها المعتاد كزوجة محبة مخلصة . كنت خائفاً من أن أتحدث حديثاً غير لائق ، فقلت في نفسي : في هذه المرة سأقول لها الحقيقة ، ثم تخيل إليّ أنني أسمع صوتهـــا تتساءل : لماذا الفشل ، يبدو إنك لم تفكر بي ..؟

لقد صبرت على الشعور بالدهشة الذي سببته لي كلماتها ، وقد سألتها بعد ذلك : ماذا يمكنك أن تفعلي لي ..؟ ربمـــا تستطيعين منحي السجية التي أحتاجها .

ـ لا ..

بذا أجابت بطريقة لا تخلو من الخداع ، وأضافت قائلة : لكنني أحبك. ثم مدت يدها نحوي تبحث عن يدي ، محدقة بي طيلة الوقت ، بعينيها اللتين ظهرتا أكثر نقاوة وإثارة حيث ارتاح شعورها وهدأت عصبيتها . فأخذت يدها وقبلتها ثم ركعت أمامها ، قائلاً : إنني أحبك أيضاً ، لكن يجب عليك معرفة هذا ... لكنني أخشى أن الحب ليس كافياً لإبقائي حياً ..

كنت أحدق في ساقيها اللذين رأيتها قبل وقت قصير

عاريين على البيدر . بينما كنت حائراً بمعاني كلماتها، واستطعت أن أستخلص مــا معناه : لقد أخطأت لأنني سرت وراء رغبتي ، لكنني أحبك ، وهذا كل ما يهمني .. آسفة لن أفعلها ثانية .

وهكذا كان كل شيء كما تنبأت له أن يكون . وهنا لم أشعر بأنى قادر على رفض حبها ومهما وهبتني منه شحيحاً . وتابعت تقول : عندما تسيطر عليك نوبات اليأس فعليك أن تحاول التفكير بي ... وعلاوة على ذلك فنحن نحب بعضنا بعضاً وهذا هو الأمر المهم .

– أتريدين أن أفكر بك ؟ وهل أنت تفكرين بي دوماً؟

كنت مقتنعاً من أنها لم تلجأ إلى المراوغة ، من المحتمل أن تفكر بي دوماً . حتى وقبل قليل عندمــــا كانت تستسلم لأنطونيو على البيدر .

لقد ظهر على وجهها الغضب والحزن من جراء الطريقة التي اتبعتها معها في الحديث ، الطريقة التي لم تمنعها من مخادعتي . مع ذلك فكرت بإقناع نفسي بأنها بالفعل تفكر بي ، وكأنها كمن يفكر بأمر مستعص .

ربما كانت تشير إلى عزيمتها ، لكنّ هذه العزيمة قادتها لأن ترمي بنفسها في أحضان انطونيو . ولهذا أرى أن كلينا على نقيض خلقي ومنطقي مع الآخر .

إنني لا أعلق أهمية على العزيمة ، قدر اهتمامي بالسجية

الخلقية التي هي مصدر الحب ، والتي بدونها لا يوجد حب ولا أدب ، وعلى النقيض من ذلك فإن « ليدا » كانت تكبر العزيمة ، وتعتبرها أفضل ميزة لها ، بينما رفضت السجية ظناً منها أنها غير كافية لإثارة الحب والإنتاج الأدبي .

لقد شرحت الوضع قائلاً: إن الإنسان يحب ما ليس لديه.

لكن ما رأيك بالأدب .. ؟ هل يمكن خلق مقطوعة أدبية دون غريزة .. ؟ وهل هو إنتاج عزيمة فقط .. ؟

لقد كانت تحلل كل ما أقول ، وعندها قالت : تعال إليّ .. أتعرف ماذا سنفعله الآن .. ؟ سأذهب وأخلع ثيابي وأستلقي على سريري .. وأنت يمكنك اللحاق بي لتقرأ قصتك..وسنرى إن كانت حقاً على هذا المستوى من الرداءة.

وعلى الفور بعد أن انتهيت من كلامها نهضت بحركة خفيفة، أظهرت معالم جمال جسدها الفضي الجميل .

ووقفت كذلك شاعراً بان الأمر لا يحتاج إلى كل هذا من المشقة للمعرفة بأن القصة كانت رديئة للغاية ، وإنه ليس بالإمكان العمل على إصلاحها . وحاولت أن أتكلم ، لكنها وضعت يدها على فمي صائحة . امضي الآن ... ما زال هناك متسع من الوقت للحكم .. إنني ذاهبة إلى غرفتي ويمكنك أن تتبعني بعد فترة،وقبل أنأتمكن من الاجابة كانتقد خرجت.

ووقفت وحدي في الغرفة ، وفجأة امتدت يدي إلى المخطوطة ، وهكذا اعتقدت بأن عزيمتها كانت تنمو ، ولم

أجد مجالاً للشك ، بأنها عزيمة جديرة بالثقة .

هل يمكنني أن أتوقع بأن هذه العزيمة ستنتصر على الإغراآت الآخرى ؟

إن المستقبل وحده كفيل بالرد على هذا السؤال .

أشعلت سيجارة ووقفت بدون حركة الى جانب المقعد ، وعندها شعرت بأن الزمن يمر ، وقد مضى عــلـيّ وقت ليس بالقصير ، وهكذا زايلت الغرفة والمخطوطة تحت ذراعي ، ثم ذهبت الى غرفة « ليدا » وعندما وصلت شرعت أطرق الباب فأشارت إليّ بالدخول بصوتها العذب الجميل .

كانت مستلقية على سريرها وترتدي ثوباً للنوم الجميـــل المطرز بألوان جميلة زاهية .

وكانت الغرفة مظلمة ، ما عدا رأس السرير ، وكان منارأ بقنديل يوجد الى جانبه ، و « ليدا » تتكىء على الوسادة بينما امتدت ذراعاها الى الامام وأمسكتا بورقة تقرأ مـــا كتب عليها .

لقد ظهرت عليها دلائل الجمال بجدائلها السائبة فوق كتفها تكللها باقات الورود ، وباقات أخرى تكلل صدرها حـــتى بدت جميلة للغاية . ولقد أعجبت بها كل العجب عندما نظرت اليها ، عندما فكرت بوجهها النير الجميل الذي كان قبل وقت ملطخاً بعار الشهوة .

وبينما هي تبلسم ، صرخت لي تقول : أريدك أن تبلسم . لقد أصغيت بكل جوارحي اليك .

فأسندت ظهري الى أحد جوانب السرير . وقلت : إنني أقرأ لك لأنك أنت راغبة بذلك .

– لقد سبق وقلت لك أن القصة رديئة .

– لا يهم أبداً ... فأنا أصغي إليك .

وشرعت بالقراءة من أول صفحة في القصة متابعاً إياها حتى أتيت عليها بأكملها ، دون توقف إلا في حالة إلقاء نظرة خاطفة على زوجتي ما بين الفينة والفينة . كما كانت بدورها تصغي إلي بكل جوارحها .

وعندما قرأت كنت أؤكد لها رأيي الأسبق . لقد كانت القصة قيمة ، رغم أن القيمة لم تكن الميزة التي أتوخاها .

إن هذا الإنطباع العدائي لم ينقذني من متاعبي ، وكنت أتساءل دائماً : ماذا ستقول زوجتي في القصة ..؟ عند نهاية القراءة ظهر لي أن لديها منفذين .

الأول : أن تصرخ على الفور : يا « سلفيو » ماذا تقصد ؟ إن القصة رائعة الجمال .

والثاني : هو الافتراض بأن القصة لا بأس بها ، الأول كان خداعاً ، وذلك بمحاولة منها لتجعلني أدرك أن القصة جميلة . بينما هي تدرك حقيقة فشلها ؛ ولا خلاف في انها ترمي

بذلك إلى أهداف بعيدة ، لذلك ستكون العـــلاقة رديئة فيما بيننا .

الطريق الثانية : هي طريق الحب ، حتى ولو كان هذا الحب من النوع الذي أظهرته سابقاً ، والذي هو مبني على العزيمة والعاطفة وكان موقفي يتحدد منها على الشكل التالي : فإن هي قالت : القصة جميلة ، صممت على أن أقف صارخاً وإن قالت القصة رديئة ، فيجب أن أطلعها على حقيقة نفسها فأقول لها : لست أنت إلا إمرأة عاهرة ...

لقد قرأت القصة بأكملها وهذه الفكرة تراود ذهني ، وكلما اقتربت من النهاية أبطأت في القراءة لأنني كنت أخشى ممـــا سيحدث .

وفي النهاية ثابرت على القراءة حتى أتيت إلى آخر جملة فقرأتها وقلت : هذه القصة ، وهذا كل ما كتبت ونظرت نحوها .

وتلاقت العيون ، وعندما نظر أحدنا إلى الآخر ، شعرت بأن وجهها قد تغير ، ودلائل الخداع قد ظهرت عليه .

كان من الطبيعي أن تفكر بالتغرير بي وبأن تصرخ قائلة : إن القصة جيدة ، وبهذا تظهر بمظهرها الحقيقي وتعود إلى المراوغة والكذب. ولكن هذه الفكرة تبددت بالحال ليحل ، مكانها حبها إليّ ، الحب المبني على الصدق والاحترام .

تنهدت قليلاً ثم نظرت يمينة ويسرة ، وبعد هذا اردفت

تقول : والفشل يبدو على حديثها ، ربما تكون على حق إنها لم تكن كما توقعت ... لكنها مع ذلك ليست بهذا المستوى من الرداءة، كما تعتقد الآن لكن على كل حال . ومن المستحب سماعها .

تغير الجواب بين شفتي وأجبتها بمرح. ألم أقل لك هذا...؟

ولكنها استمرت تقول : إنها مصاغة بدقة : ولا يتوقف الأمر على أن تكتب بجودة .

ـ لكنها أضافت : كان من الواجب أن تعتني بها أكثر .. فإن أعدت كتابتها ، فستكون في النتيجة أفضل مما هي عليه الآن ، وتصبح كما ترغب لها أن تكون .

ـ وتابعت قولها : ان العزيمة هي التي تخلق الانتاج الحسن وعليك أن تتجنب كل شيء وتركز في كتابتك على الإيحاء . وإن لم تتقيد بهذا العامل فإن مصيرها الفشل .

صرخت بمودة .. بهذا يكمن ضعفك ، إنك لا تهتم بالعمل ولا تحسب حساباً للفشل ، في حين إنهما في الواقع عنصران مهمان ، وبهذه الطريقة تكتمل الأشياء . ـ إن الأعمال ما هي وليدة معجزة .

واستمر النقاش ما بيننا وقتاً طويلاً ، وكل منا يدافع عن وجهة نظره الخاصة : ويدافع عنها بأبلغ الأساليب التي يعرفها ، وبالنهاية طويت المخطوطة، ووضعتها في جيبي قائلا : حسنا ، حسنا ، دعنا نترك التحدث عن القصة .

وخيم السكون فترة من الزمن ، وكنت في هذه الأثناء أنظر إلى زوجتي بينما هي تطرق برأسها إلى الارض حتى قطعت السكون قائلا : ألا تمانعين ان يكون زوجك من الكتاب الفاشلين .

فأجابت على الفور على: إنني لا أفكر بك ككاتب مطلقاً. وكيف كان تفكيرك بي إذن ؟..

– لا أدري .. قالت ذلك وهي تبتسم واضافت : كيف يمكنني الإجابة على هذا السؤال ؟.

– لقد عرفتك جيداً الآن .. لقد عرفت جوهرك وأنت ستبقى على هذه الحال سواء أكنت كاتباً أم لا ..

– لكن لو طلبت منك أن تحددي رأيك بوجه الدقة . فماذا تقولين ؟..

فرددت قليلا ، ثم قالت برصانة : الانسان لا يستطيع ان يبدي رأيه بمن يحب ، لأن العاطفة تعمي العيون ، وتضلل الألباب عن الوقوف على الحقيقة .

وهكذا لبثنا نتحدث حول النقطة الاساسية ، لقد كانت إحتجاجها تعبر عن حبها إلي ، هذا الحب الذي أزعجني ، فأخذت يدها وقلت : إنك على حق .. – وأنا أيضاً ..رغم كل ما أعرفه عنك لا أستطيع الحكم عليك . لأنني أحبك .

وظهرت إشارات الذكاء على وجهها ، وصرخت بصوت

عالٍ : أليس الأمر كذلك ؟.. عندما يحب الانسان إنساناً آخر يحب كل مزاياه ، حتى سيئاته .

كنت أرغب في القول لها في هذه اللحظة بكل اخلاص إنني أحبك رغم كل تصرفاتك ، أحبك بما أنت عليه الآن ..

أحبك حيث تجلسين على السرير بكل رصانة بثوبك الجميل بضفائرك الجميلة ، بباقات الزهور التي تزيدها جمالا . أحب عينيك البراقتين الجميلتين .

– أحبك والحب يعمي عيني ، أحبك كراقصة تجيدين فن الرقص ، أحبك ترفعين رداءك وتغرقين في اللـــذة مع « انطونيو » سأحبك دائماً ، إنما لم أقل شيئاً من هذا ، لأنها علمت بأنني أعرف كل ما ذكرت ، وكل شيء اصبح في منتهى الوضوح فيما بيننا ، بل قلت عوضاً عما كنت ارغب في قوله : ربما سأكتب في يوم من الأيام القصة التي ارغب في كتابتها ، وذلك عندما أشعر بقدرتي على التعبير عن نواح معينة .

– إنني ارغب في إعادة كتابتها بعد مضي بعض الوقت .

وقبلتها قبلة الوداع ، ثم تركتها متوجهاً إلى غرفة النوم . ومرت لحظات، فإذا بي أستلقي على الفراش وأغرق في سبات عميق ؛ وفي نومي هذا كنت أشبه ما أكون بطفل حكم عليه بالعقاب من أبويه ، فبكى حتى ألم به العياء ، وبعد هذا كله سمح عنه فغرق في سبات عميق .

وفي صباح اليوم الثاني ، تأخرت في النهوض من النوم ،

وعندما نهضت حلقت ذقني وذهبت إلى المائدة حيث كانت « ليدا » تنتظرني من أجل الافطار ، فتناولنا الطعام معاً . وبعدهـا اقترحت على زوجتي أن نقوم بنزهة قبل الغداء . ووافقت زوجتي على الاقتراح ثم خرجنا معاً. وعلى مقربة من المزرعة ، كانت نزهتنا ، ومن هناك تسلقنا قمة جبل آخر كانت توجد عليه آثار قديمة لكنيسة صغيرة . وعندما وصلنا هناك تجولنا داخل الكنيسة . وبعدها جلسنا على مرتفع متوسط العلو يطل مناظر خلابة .

لقد ثبت لي إن الكنيسة ترجع لعهد قديم، مستدلاً بذلك من الآثار الموجودة على الباب الخارجي التي لم يبق منها إلا النزر اليسير كأجزاء من الباب الخارجي ، وآثار البرج .

كانت ساحة الكنيسة الخارجية معبدة بحجارة رمـــادية اللون ، تنمو فوقها الاعشاب ، ومن خلال هذه الابواب القديمة المحطمة يمكن رؤية الاشجار بشكـل واضح ، وبواسطة أشعة القمر .

بعد ذلك نظرت الى الكنيسة فـاستطعت أن أرى وجهاً منحوتاً على أعمدتها ، وقد استنتجت من خلال نظرتي إلى هذا الوجه أنه يرجع إلى عهد بعيد ، ولذا صعب علي تمييزه بشكل واضح .

وفيا كنت أراقبه شعرت بـذهول بالغ للشبه الذي بينه وبين زوجتي عندما كانت عابسة في الليلة الماضية .

نعم ، لقد كان نفس البؤس الذي اعترى زوجتي يظهر على هذا التمثال القديم . وحولت نظري الى « ليدا » فوجدتها تحدق بنفس المشهد .. وأخيراً حولت عينيها نحوي لتقول : إنني كنت أفكر بقصتك أثناء الليلة الماضية ، وعلى ما أعتقد توصلت إلى حقيقة فشلها وعدم إتقانها .

– ولم ذلك ؟..

– لقد حاولت تصوير نفسك وتصويري ، ألم تفعل هذا ؟

– نعم ، إلى حد ما ..

– حسناً ، إن الحقائق كانت خاطئة .. لكي أبدأ : ان الذي أقصده هو أن القارىء يشعر بأنك عندما كتبت القصة لم تكن تعرفني جيداً ، حتى ولم تكن تعرف نفسك ..

– ربما لم يحن الوقت للتحدث عن علاقاتنا ...

– وبنوع خاص عني أنا .. إنك لم تتوصل إلى إظهاري على حقيقتي لأنك جعلتني رمز المثالية ..

– هل من شيء آخر ؟..

– لا ، ليس هناك شيء آخر .. وأعتقد أن من الواجب عليك بعد أن نعرف أحدنا الآخر أكثر ، عليك أن تعيد كتابة القصة ، كما قلت لك هــذا في الليــلة الماضية ، وأنا متأكدة من أنك عندها ستكتب قصة جميلة ..

لم أقل شيئاً ، بل كنت أنظر إلى كتفها ، وأتأمل وجهها الشرير العابس ، حيث خلصت بعد هذه التأملات إلى النتيجة

التالية : على كل كاتب ، قبل أن يبدأ كتابة قصة حول فئة معينة من الناس أن يكون على علم بكافة صفاتهم ليستطيع تحقيق موضوعية قيمة شاملة ، وإلا كان الإخفاق نصيبه .

وأجبت . إن هـــذا يحتاج إلى وقت طويل .. وأنهيت حديثي بهذا القول الجميل .

انتهت

الحبيب التعس

حياة الانسان أشبه ما تكون بسفينة تشق عباب الماء إلى نهاية محتومة . وفي أثناء عبورها في البحر تتعرض لمصاعب وأزمات: فلربما تنهار أمام أمواج البحر وتهوي للهلاك بمن فيها.

وهكذا على مقربة من بيتنا وأمام ناظري كانت تدور حوادث حياة « ساندرو » الذي كان يعيش في نفس المدينة التي أعيش فيها .

كان ساندرو يعمل جاداً لارساخ معالم الحب بينه وبين زوجته ، وما ذلك إلا بالاحترام المتبادل والخدمات الجلى التي يقدمها « ساندرو » لها .

لقد بدأ « ساندرو » حياة حب كانت موضع إعجاب من أحس بها. انه يحسد حقاً على الهناء وصفو العيش الذي ارتشفه « ساندرو » في بداية عهد زواجه . كان هذا تعليق العديدين من اصدقائه ، بل كان ساندرو وكأنه أصبح مضرب مثل في حبه لزوجته « إلينا » .

لم يمض اسبوع على هذه الحالة حتى كانت الصدمة القاسية .

كثيراً ما حاول « ساندرو » كسب مودة زوجته التي طفقت لا تعيره اهتماماً . وهنا تتكسر سهـــام الصدمة في أحشائه إلى أن مل الحياة ولم يعديطيق صبراً على هذه الحال، لقد صمم على ترك المدينة إلى جزيرة في البحر تقع على مقربة من الشاطىء .

نعم ، لقد صمم على الرحيل إلى جزيرة . واستمر في حياة مفعمة بالقلق إلى ان اقبل شهر حزيران فشد الرحـــال إلى الجزيرة ، وعندما وصلها لم يفكر في السكن في الفنادق لأنه كان يعلم عنها الكثير ، ولأنه كان يثق بأنها تعم بالضوضاء . ولهذا كله قرر السكن في اطراف المدينة حيث الهدوء التام . لقد استأجر غرفة عند سيدة كانت تشرف على ترتيبها بنفسهـا . كما كانت تشرف على ترتيب بضع غرف اخرى . كان المنزل يشرف على حديقة جميلة ، بهـا من الأشجار أجملها ، وفيها من الثمار اطيبها ، حتى بدت كأروع ما يكون من المناظر الجميلة . ويلي هذه الحديقة منحدر جميل تنتشر فيه بنايات كثيرة جميلة شيدت على احدث طريقة في البناء . وبين هذه البنايات ينتشر كثير من الحدائق والحقول المزرعة بأشجار الزيتون المعمرة، حيث يرجع زمنها إلى قرون غابرة، وفي الحقول الأخرى توجد اشجار كثيرة من الاجاص اشتهرت بجودة ثمرها ونكهتها .

وبعد هذا كله فللجزيرة نهاية محدودة. فعلى مقربة من هذه

الحقول الغناء يتهادى البحر إلى شاطىء جميل ، وعندما يقف « ساندرو » امام باب غرفته وينظر إلى البحر متأملاً جماله وروعته . انه يرى مياهه الصافية كأنها الزجاج او كالماس المتأجج تحت ضياء الشمس .

يا له من منظر جميل يستمتع به « ساندرو » فيغرق في احلام جميلة ، بينما يتأمل جمال البحر ، وكثيراً ما كان يصعد إلى سطح غرفته ليزداد انعشاقاً في تقييد جدران الغرفة ، وبينما هو على هذه الحالة يتنعم بالهواء الطلق ويستمتع بالمناظر الخلابة فخيل اليه كأنه يسكن الجنة ، وليس بالكثير هذا ، إنه يعيش في اعلى قمة سعادته .

في الليلة الثانية بينما كان « ساندرو » يستمتع بمنظر البحر والحقول الجميلة وقع نظره على فتاة جميلة لم ير بجمالها قط تسكن الغرفة المجاورة لغرفته . إنها جميلة ... جميلة جداً وجمالها جعل من الجمال الذي ترويه الأساطير حقيقة واقعة . انها كعروس البحر في أساطير الاغريق وهذه المناظر الثلاثة الجميلة وهي منظر البحر ومنظر الحقول الخضراء ثم منظر الفتاة الحسناء شغلت تفكير « ساندرو » حتى أصبح كانه كتلة متحركة من الأفكار . والواقع لقد صدق من قال (أحب من الجمال الماء والطبيعة في فصل الربيع ، والشكل الحسن) بل هي السعادة كلها تكمن وراء الاستمتاع بهم جميعاً . لن تنتقص السعادة — سعادة المرء — الا بنقصان أحدها أم عند فقدانها جمعاء .

هنا ضاق «ساندرو» ذرعاً، ولم يعد يعرف كيف يتصرف أمام هذه الفتاة الحسناء . نعم أحبها من دون أن يكلمها .. لكن هذا لا يكفي . فعليه أن يعمل جاهـــداً للتوصل إلى حديث معها وهنا وقف بحيرة أمام تحقيق ما يصبو اليـــه واستلهم كافة قواه العقلية للتوصل إلى حل للمشكلة ، أنه يريد أن يتحدث معها ، فها هو يستلهم الله قائلا : ساعدني يا الله كيف الوصول إلى ما أريد ؟. ما هو السبيل للوصول إلى حديث معها .؟ هل هي مستعدة للاجابة على اسئلته ؟. وأي تواضع منها أن ترد له التحية ؟. كل هذه الأفـكار كانت تجول في ذهن « ساندور » ولكن البعيد الاحتمال . والذي لم يفكر به هو أن تكون هي البادئة في الحديث .

ربما يكون عامل التواضع قد زاد جمالها جمالاً ... ولربما يحدث عكس ما كان يتوقع .. بالواقع صح الإعتقاد الأخير . وها هي تقف مقابلة له وتسأله بضعة أسئلة فيجيب عليهـا باندفاع وحماس شديدين .

السؤال الأول . كان لمعرفة ما إذا كان استحم . فأجاب «ساندور» على السؤال بكل لطف . نعم لقد استحممت .

لقد ذهل «ساندور» بعد هذا السؤال ، لقد شعر بعاطفة حب طاغية نحوها ، إنها عاطفة قوية جامحة لم يشهد مثلها من قبل ، إنه يجابه الحب هذه المرة باندفاع تام . ها هو يتصور صوت الفتاة الشقراء تتكلم إليه . إن هذا السؤال لا زال

يتردد صداه في أذني « ساندرو » سيبقى إلى الأبد .

لم يعد ساندرو يشعر بالمتعة في الجلوس على السطح إلا إذا كانت الفتاة الشقراء جالسة على الشرفة المقابلة .

شعر « ساندرو » أن لا قيمة لكل المناظر المحيطة به إن لم تكن الفتاة واقفة على الشرفة المقابلة له . وهنا يبدو له أن وجودها واستمرارها في البقاء عنصران أساسيان يدفعانه إلى الشعور بالجمال الخارق . وهنا نرى أنه ينهض من غفلته الفكرية محاولاً الكشف عن العوامل التي جعلت من شخصيتها الشخصية الفريدة في مزاياها البارزة ، هذه المزايا التي لم يتمكن من تحديدها بعد .

وهكذا ظل « ساندرو » على هذه الحال ، ولم تمر إلا فترة قصيرة حتى وجد نفسه غارقاً في دوامة من الأفكار والتأملات ، وبقي على هذه الحالة حتى وصل إلى درجة صعب عليه بعدها الاستمرار في التفكير على هذه الحالة . وقرر بعدها العودة الى جمال الطبيعة المحيطة به لعل في ذلك الراحة له .

لقد شعر « ساندرو » بأن حياته لم تكن مجدية اذا استمرت هكذا ، لذا قرر أن ينهج طريقاً آخر من الحياة وهو الحياة الجميلة المنظمة التي ستعيد اليه حيويته ونضارته . ولقد وضع برنامجاً يسير عليه طيلة أيام الصيف .

كان يقصد البحر عند الصباح ، وما أن يصل هنا إلا

ويستلقي بالحال على الرمال ليتخلص من اعياء المسير ويركن الى الراحة ، ويستمر على هذه الحالة الى أن ترتفع الشمس الى قبة السماء وتنعكس على الأرض أشعتها اللافحة ، فترتفع حرارة الماء ، وعندئذ يخلع ملابسه ويغطس في الماء بين الفينة والأخرى ، ثم يصعد الى الشاطىء ويستلقي تحت أشعة الشمس أو إلى جانب صخرة كبيرة فيستظل بها .

هكذا مرت بضعة أيام ، كان « ساندرو » يقضيها بين الماء والشاطىء ، بعيداً عن كل متاعب الحياة ومشاكلها حيث يسرح بأفكاره كيفما يشاء دون تحديد أو تقييد ، ويظل على هذه الحالة الى المساء ، فيعود عندئذ الى البيت حيث يستسلم للنوم فور وصوله الى غرفته .

رغم كل ضروب التسلية ، ورغم كل مجالات اللهو ، كانت العاطفة تراوده بين الفينة والأخرى فيتذكر حبيبته ولن تبرح من مخيلته أبداً .

فيؤلمه البعاد – بعاد حبيبته ويقع في صراع لا حدود له وكلما يقوم بعمل – ومهما كان نوعه – كالسباحة أو الأكل ، أو الاستحمام بالشمس . في هذه الأثناء كان ينجح في دحر الأفكار عن نفسه ، الأفكار التي كانت توسعه ألماً لكنه في ساعات فراغه كان يتعرض لمرارة الضجر ويعاني منه الأمرين وكأنه على موعد معه . وعند المساء حيث كان يجلس داخل غرفته منفرداً . فتنتابه أفكار كثيرة فيصاب بهذه اللحظة

بنوع من الذهول مقرون بالخجل .

قضى اسبوعين وهو على هذه الحالة . يتعرض إلى المزيد من الصراع الفكري واليأس والملل .

وفي أحد الأيام بينما كان على هذه الحالة تراءى له فجـــأة قدوم ساعي البريد وكأنه يحمل له رسالة .

ترى ماذا تحمل الي هذه الرسالة ؟. ومن المرسل ؟. ومن أين وردت ؟.

في فترة قصيرةمن الزمن راودت أفكاره كل هذه التساؤلات وعلى الفور وصل ساعي البريد وسلمه الرسالة وتلاشى الضباب وظهرت الحقيقة ووضحت لعيني « ساندرو » ..

كانت الرسالة من سيدته التي سكنت قربه لم تبعد مسافة كبيرة عن مكان إقامته. لقد حملت له هذه الرسالة اسم«إلينا» وعنوانها وكانت هذه الرسالة عبارة عن دعوة منها باستئناف العلاقات بينهما من جديد .

لقد قرأ الرسالة واعاد ، لعدة مرات إنه مسرور لدرجة بالغة . إنه يفكر فيما يحب . بل ما هي الأفكار التي يشرحها بالرسالة إلى حبيبته ؟. بأي طريقة يستطيع أن يعبر عن حب جديد عظيم .

وبينما استلقي إلى فراشه طلباً للراحة . أخـــذ يفكر « بالينا » فلم يستطع النوم ، ولذا نهض إلى المنضدة فأخذ قلماً وورقة ، وشرع يكتب رسالة إليها ، واستمر في الكتابة

فترة طويلة ، وبعد أن انتهى من الكتابة ترك الرسالة على الطاولة واستلقى في الفراش فغرق في نوم عميق. وعند الصباح الباكر استيقظ من نومه وأخذ يعيد قراءة الرسالة التي كتبها في عشية الأمس . لقد ضمن رسالته هذه كل شوقه وحنينه التي كتبت إليه تكاشفه عن حبها العظيم له .

لم يمض أسبوع على رسالة « ساندرو » التي بعثها إلى حبيبته حتى استلم جواباً عليها. نعم إنها كتبت له رسالة جميلة تضمنها حبها إلى حبيبها وخفايا شوقها المستعر في صميم قلبها . وهذا ما دعا « ساندرو » إلى إصابة حبيبته على الفور . طالباً لقاء قريباً .

هكذا كان « ساندرو » ينتظر يوماً بعد يوم إلى أن مرت فترة طويلة من الزمن ، وظل على هذه الحالة يقاسي لوعة الحب والحرمان إلى أن مر اليوم الذي طلب فيه لقاء مع حبيبته ولكنها لم تحضر، وفضلاً عن ذلك لم تجاوبه على الرسالة التي أرسلها اليها ما عساه أن يكون أصابها ... ؟ ما هي العوائق التي تمنعها الحضور حسب الموعد المحدد ... ؟ هل تحولت بحبها عنه ، إلى حبيب آخر . . !

وأما هذه الظروف الحرجة التي تمر بحياة « ساندرو » كان يتغير مع تغيراتها . من مصائب كثيرة . إلى فسحة من الأمل إلى أن يقضي طيلة أوقاته بين الحزن العظيم ، والفرح الشديد . وأمام هذه التيارات الفكرية المتضاربة نراه يركن إلى الهدوء

والسكينة والفرح العظيم . ها هو فجأة يستلم رسالة من حبيبته تعلمه فيها بأنها ستصل في الغد الباكر إلى المكان المحدد . في تمام الساعة التاسعة صباحاً .

وعندما أقبل الظلام وسكن كل إلى بيته حاول «ساندرو» النوم مراراً وتكراراً ، ولكنه لم يفلح . وظل مستلقياً على السرير فترة قصيرة ثم لم يلبث أن نهض ، وأخذ الرسالة من درج طاولته وبدأ في قراءتها . ومرت بذهنه عدة تساؤلات عما سيحدث في الغد، هل ستوافيه حبيبته حسب وعدها ..؟ ألن تفعل كما فعلت في المرة السابقة ..؟ هل هي تحلم بأن تلتقي به كما يحلم هو ..؟ ثم بعد هذا التفكير قصد السرير طلباً للنوم ولكنه عبثاً يحاول . وظل كما هو وعاد إلى هذه الحالة بعد فترة قصيرة من الزمن ، ولبث هكذا إلى أن انبلج الصباح فعاد إلى ثيابه يرتديها على عجل ليقصد المكان المحدد، وكان الموعد على الشاطئ، فتابع سيره إلى هناك ، وعندما وصل كان منهوك القوى من عناء المسير ، فجلس على الفور يراقب البحر والقوارب التي تصل إلى المكان، وكان كلما أبصر قارباً ، قال : لربما تكون في هذا القارب إلى أن مضت فترة طويلة من الزمن وهو على هذه الحالة ، وبين اللحظة والأخرى كان ينظر إلى الساعة المشدودة على معصمه ، ثم يهز رأسه قائلاً : لماذا التفكير بهذا الشكل ..؟ ما زال هناك متسع من الوقت لوصول القارب الذي يقلها .

ولم تطل به الحـــال في الجلوس على الشاطىء ، لكنه قرر العودة إلى البيت ، وبالفعل عاد إلى البيت وصعد إلى شرفة غرفته يراقب البحر ويتفحص ما إذا كان من خطر على حبيبته، ولكنه تأكد من أن البحر هـادىء ولا خطر عليها.

إن هذا التفكير والتفحص من قبل « ساندرو » جدد الإطمئنان في نفسه ، وجلس على مقعده مرتاح البال دون أن يحسب لأي مكدر حساباً .

وكالعادة ، بينما هو يجلس على شرفة غرفته وقفت جارته على الشرفة المقابلة له ثم بادر بالقول بسرعة : كم هو جميل هذا اليوم .. ؟ وكأنها متأكدة من أن «ساندرو» سيغادر المنزل لذا بادرته بهذا القول لعله لا يفكر بعد بالذهاب من البيت ويفكر بها . رغم هذا فقد دخل « ساندرو » إلى غرفتة بعد أن قال لها يبدو لي أن هذا اليوم من أجمل الأيام . نعم إن «ساندرو»أحب هذا اليوم لأنه اليوم الذي يجتمع فيه بحبيبته، ولذلك أضاف قائلاً : حقاً لا يوجد يوم أجمل من هذا اليوم .

وبعد ان استبدل ثيابه للمرة الثانية نزل إلى الغرفة ليقضي بعض الوقت لأنه كان يتوقع ان الوقت سيطول به لوصول قارب حبيبته ، لقد كانت القاعة مهجورة، لا يوجد فيها أحد والطاولات عارية ، لكنه لاحظ جماعة قليلة من النـــاس في طريقهم إلى الكنيسة فرحين باشعة الشمس الجميلة ، وشاهد أن

أصحاب الحوانيت يرفعون أبواب حوانيتهم، ثم جلس كل منهم أمام حانوته ينتظر زبائنه ليبيعهم ما يريدون .

فجأة ظهرت أمامه أمرأة تكاد تكون عارية ، تضع على عينيها نظارتين شمسيتين ، وتتأبط حقيبة ، لقد قطعت المقهى لتنزل الى البحر لمسافة بعيدة لقد بدا له هادئاً تداعبه الأمواج القليلة . المنتشرة هنا وهناك وبعد لحظات قليلة أطل عليه قارب حبيبته يسير بسرعة في القنال الذي يفصل الجزيرة عن تلال اليابسة ، لقد كان القارب يجري ببطء تاركا تموجات وراءه في البحر الرقراق . وما زال «ساندرو» يراقب القارب بكل تحركاته حتى وصل إلى الميناء ، فبدا له أن جماعة من ركابه قد هبطوا منه إلى اليابسة . واستقلوا عربة خيل قاصدين المنطقة التي يسكن فيها ساندرو ولكنه للأسف الشديد خاب أمله عندما نزل إلى المقهى وأنتظر إلى أن وصلت عربة الخيل . فنزل كل من فيها ولم تكن حبيبة ساندرو موجودة في عداد الركاب .

لذلك ترك المقهى وقصد الميناء، فوقف هناك أمام مدخله. انتظر هناك ، وكلما أقبلت عربة يعلق أملا بأن حبيبته ستكون في هذه العربة . إلى أن مرت عدة عربات وهو لا زال على هذه الحالة منتظراً قدومها . لكن في هذه اللحظة غمرته أفكار شتى ؛ ماذا عساه أن يكون أصابها . . .؟ لماذا أبرقت إن لم تكن تنوي الحضور . .؟ هل تعمل على مخادعته

وتعذيبه وتركه يتلظى بلوعة الانتظار ..؟ ولكنه مع هذا كله عــاد إلى الهدوء وعمت السكينة قلبه ، وهدأت كل الإضطرابات التي تكتنفه . إن الأمل يملأ قلبه لكنه لم يستطع إخفاء عصبيته في هذه الأثناء . لقد وقف يسحب سيجارة تلو الاخرى من جيبه ليمتص منها القسم القليل ثم يرمى بها إلى الأرض . كان ذلك بسبب القلق لعدم رؤيته من انتظر بفارغ الصبر . لقد ثارت بــه الأحاسيس والهواجس فزعاً عليهــا .

وفي هذه الأثناء وصلت السيارة الثامنة تقل ثلاثة أو أربعة ركاب ، ومع ذلك فقد فشلت في إحضار حبيبته .

دونما تفكير ، سار « ساندرو » على الطريق عائداً إلى غرفته ، وبينا هو في منتصف الطريق رأى حصاناً يجر عربة ويسير نحوه ، وبينما هو ينظر للعربة إذا بسيارة تحاول المرور عليهــا لتقف فجأة أمــامه ، وتقل حبيبته .

وفجأة صرخ ساندرو اليها بصوت عالٍ مرحباً بقدومها مبدداً من نفسه معالم اليأس والهلع . اما هي فقد التفتت اليه وما زالت بكبريائها التي كانت الدافع لهجر ساندرو اليها وللبلدة التي تعيش بها .

ظهرت وكأن اللقاء لم يسرها لتقول : اذن انت هنا !

نعم لقد كنت انتظرك بذا اجاب ساندرو وهو ما زال يقف بجانب السيارة ودون الدخول اليها .

ثم تابعت القول ان سبب مجيئها متأخرة كان بسبب ازدحام الركاب ، ثم التفت اليه بنظرة متسائلة : لماذا لا تزال واقفاً ؟ لماذا لا تدخل الى السيارة ؟ علينا الذهاب الى الفندق اولاً .

صعد « ساندرو » وأقلعت السيارة تحمله حبيبته إلى الفندق . وفيما هما على الطريق قال « ساندرو : لقد حجزت لك غرفة أرجو أن تنال استحسانك .

وهل هو فندق مشهور؟ بذا سألت الحبيبة بابهتها المعهودة

ابتسم « ساندرو » وقـــال : انه لفندق مشهور حقاً ، لكنه في الحال ندم على ما قال – لقد ظهرت وكأنها جملة بلهاء تخرج من فيه – ثم أضاف . وهل ستمكثين طويلاً ؟

لا أعرف تماماً ؛ فالأمر يعتمد ...

يبدو أن « ساندرو » ندم على سؤاله لذلك قال : طبعاً ، إذا أحببت المكان فستمكثين طويلاً والا فتنصرفين ؟

– تماماً ؛ بذا أجابت حبيبة « ساندرو » ثم أضافت : انك تبدو فرحاً اليوم رغم اني لا أعلم السبب لذلك .

عض ساندرو على شفتيه حتى نزف الدم ، ولم ينطق بأي كلمة الى أن وصلا الباحة فسأل السائق كم يريد . نقده مـــا طلب ثم انتبه ساندرو الى ان الاجرة مضاعفةفصرخ بالسائق: إن هذا لكثير .

– تعال إلي .. لم هذا الجدل الطويل .. قالت حبيبـــة

ساندرو وهي تنظر حاقدة ، وهذا ما دعا ساندرو لنقد ما طلبه السائق وعض على شفتيه .

لقد قطعا الباحة ثم تسلقا شارعاً بين البيوت البيضاء . كان ساندرو يحمل حقيبة امتلأت بثياب حبيبته بينما سارت الحبيبة أمامه تنظر الى المشاهد الخلابة بأبهة وإعجاب .

وبين الفينة والاخرى كانت تقف لتنظر الى قمة الجـزيرة تتأمل بناءها . وبعد أن قطعا البيوت أتيـــا الى سور مخضر حيث على قمته وقف الصبيه والبنات يرقبوننا حيث نسير .

— انه حقاً لمكان جميل .. ذلك كان تعليق الحبيبـة على ما رأيناه من أماكن جميلة .

ورغم أن أقوالها كانت مبسطة وتخلو من الفلسفة كان لها التأثير الاكبر من أقوال ساندرو الخارقة النامية .

كان ساندرو يحاول النطق بمستوى مفهومها وإدراكهـــا عندما قال : انه لمكان رائع وكأننا بحلم .. حلم الاثنين معاً

بعد هذه الفسحة الطويلة وقف أمام المـــنزل حيث أنزل ساندرو الحقيبة من يده ، واخذ مفتاحاً حديدياً من جيبه وأدخله ثقب المفتاح المخضوضر القديم . لقد دخلا ، اطلا على شرفة البيت .

— كما تلاحظين ، اضاف ساندرو ، لقد كان هذا البنـــاء ديراً يضم الاتقياء ورجال الدين حيث تقام الصلوات والابتهالات ثم تحول الى بيت مع مرور الزمن تمتلكه عجوز تدير شؤونه

لقد حجزت لك غرفة مقابل غرفتي ، لكن في هذه اللحظة يمكن ان تدخلي غرفتي .

لقد دخل الاثنان معاً حيث خفت لتوها إلى المرآة بينما جلس ساندرو يرقبها من على حافة سريره ، كم كان سعيدا في مراقبتها حيث لم يستطع امعان النظر بها ، وهما على الطريق خوفاً من اظهار حقيقة شعوره نحوها .

لقد كانت ذات عينين زرقاوين تسطعان في وجهها مضفية عليه رونقاً وجمالا ، هذا بالاضافة الى جدائل خلابة مسترسلة على كتفها تبعث على الراحة النفسية لكل من نظر اليها . اما القد المياس فقد بدى كعود الخيزران استقامة ورشاقة .

كانت الرحلة لحبيبته شاقة وطويلة مما دعاها للاستراحة ، وبعد بعض الوقت نهضت ثانية تنظر بالمرآة وتتمتم للحن اعتاد ساندرو سماعه عندما كانا يحبان بعضهما وقبل الفراق .

لقد بقيت تتمتم ووضعت يديها على وركيها ثم أنطلقت بالأغنية بصوت جهوري ، لقد أثار هذا الصوت ساندرو واندفع لرؤيتها .

في هذه اللحظة أطرقت برأسها إلى أسفل ، وأدارت ظهرها كأنها تريد بذلك عرض كتفيها على ساندرو . لقد عرفت أن غنجها لا يقاوم ، والحقيقة تقال أنه عند اقترابه منها لم يستطع تمالك نفسه بل أندفع بكل قوته يمسك بذراعها وهنا لم يكن بد من ان تتوقف عن الغناء لتقول :

عليك أن تسلك مسلك الرصانة .
كان لهذا التحذير أثره السيء في أعماق ساندرو فصرخ قائلا : ان شئت الذهاب إلى غرفتك فهاك هي الطريق ، وما ان سار ساندرو نحو الغرفة وسارت هي وراءه حتى أطلت من النافذة الابنة الشقراء التي سرعان ما فتحت فمها للتحدث إلى ساندرو ، إلا أنها فوجئت بمرافقته لحبيبته فاحجمت عن ذلك.
– من تكون ؟ سألت حبيبة ساندرو .
– لا أدر .
– دونك وهذه الاجابة ، انك تعرفها جيداً. إنني اراهن على انك تكلمت معها سابقاً .. لقـــد كان في صوتها نخز لا يدعو للحسد .

ورغم هذا فقد اجاب ساندرو ضاحكاً منذهولاً لشكوكها لعدم وفائه لها . ثم عرف انه يقع في مخادعته لنفسه فوقف حائراً حزيناً .
هذه غرفتك . قال ساندرو بايجاز هنا وقفت الحبيبة لتقول : لا ادري ان كنت سأقضي الليلة هنا ام انني سأسافر بعد ظهر هذا اليوم ، من الواضح انها كانت تعيسة بإجابتها هذه مقدار حب ساندرو وتعلقه بها .

اما ساندرو فقد أدرك ما تعني ، وبما ان اليأس كان يستولي عليه فقد اجاب قائلاً : افعلي ما تشائيه ، لقد مللت المراوغة والخداع .

وللتو وقفت حبيبته على نواياه فأسرعت قائلة : وهل حقاً انك غاضب ؟

لا ، قال ساندرو محاولاً وضع ذراعه على خصرها ولكنها ابتعدت عنه بالحال .

ما زال هناك متسع من الوقت ... اعطني الوقت الكافي لاعتاد على ذلك .. وعلى كل حال فإنني لست متأكدة من بقائي هنا .

– ما رأيك بالاستحمام ؟ بذا سأل « ساندرو »

– لا بأس بذلك .

– بعد ان جمعنا كل ما تحتاجه على البحر بحقيبة صغيرة سرنا سوية بعضاً من الوقت ، ثم دعوتها للسير أمامي . كنت أقصد بذلك النظر اليها دون أن تلاحظني . ولكن يبدو أنها لاحظت ما كنت أقصده فطلبت مني السير جنباً إلى جنب .. انني لا أستطيع رؤيتك تسير خلفي لتثبت أنظارك بي .

– لم أكن أنظر اليك ، أجاب « ساندرو » . وهكذا قطعا الساحة وسارا إلى البحر . لقد استدار الممر الى حدائق مليئة بالأشجار وعلى جوانبه تنساب الأعشاب الخضراء وتحيط به البنايات . لقد قال « ساندرو » ان البنايات كانت قد اشيدت منذ خمسين سنة . بعد أن قطعنا هذا الممر أطل البحر حيث تنتشر الصخور على شواطئه .

– اين الحمام ، بذا سألت حبيبة ساندرو وتوقفت تنظر إلى حدود البحر .

– انه هناك ، قال ساندرو ذلك مشيراً إلى بعض الاكواخ البعيدة المشادة بين الصخور على محاذاة المياه في أسفل الجزيرة.

هكذا نزلا الى طريق منحدرة ثم أسرعت في سيرها قليلا قائلة : أسرع .. فأسرع ، ثم ركضت بكل قوتها حيث لحق بها ساندرو . لقد أصبح البحر قريباً وقد ظهر هادئاً يكاد يخلو من الامواج ، وعندما وصلا شاطىء البحر لم يك سوى نفر قليل من البشر مطرقين برؤوسهم الى أسفل ومكللين رؤوسهم بمناشف تحميهم من حرارة الشمس .

لقد قاد ساندرو حبيبته الى الحمام لتخلع ثيابها ، وبعد أن أقفلت الباب عليها لبضعة دقائق خرجت بثوب الحمام البني اللون .

بعدئذ دخل ساندرو بدوره ليخلع ثيابه ويخرج بثوب السباحة . بعد أن فعل ذلك سار خلف حبيبته على الشاطىء جنباً إلى جنب،حيث الشمس الحارة ترسل أشعتها على الحجارة المتراكمة على شاطىء البحر ، فشعر ساندرو بحريق ينال منه قدميه أخذ ساندرو يتراقص من شدة الالم بينما كانت حبيبته أكثر انتباهاً وحذراً ، إذ انها سارت عبر زاوية هادئة يظللها فيء الصخور . لقد جلست وطلبت من ساندرو أن يمسح لها ظهرها بالزيت .

أخذ ساندرو الزجاجة وصب قليلا منها على يده ، وأخذ يدلك ظهر المرأة النحيف ، لقد كان ظهرها منحنياً لدرجة انه استطاع لمس عمودها الفقري تحت جلدها .

بعد أن انتهى من مسح ظهرها أخذت بدورهـــا تمسح ذراعيها وصدرها ثم وضعت حراماً على الصخور واستلقت على ظهرها ،

إن جسدها الذي تماوج عندما مشت،أضهر وفاقاً وتناسب الآن حيث كانت مستلقية دون حركة . لقد ظهرت كتفاها المريضتان من أعلى ثم تضيقان عند خاصرتها ، أما وركاها فمتلئان ومستديران ورجلاها متناسقتان من الفخذ وحتى أخمص القدم دونما الطنحة أما فخذيها فقد أظهرا تراخياً في البشرة مما دل على أنها ليست صغيرة السن .

كان « ساندرو » متمدداً على معدته رغم أنه شعر بأنه ليس بوضع مريح،لقد دفع وجهه نحوها ليسألها : بم تفكرين؟ ثم أردف قائـــلا ، لم أكن أتوقع رؤيتك ثانية ، لقد كنت مصمما على عدم الاجابة على رسالتك البتة لمعاملتك الي بعثت .

وهنا انتاب « ساندرو » شعور بالارتباك لأنه كشف عن أمور كان عليه تخبيتها . ثم اختتم قوله مهدداً : انني أعرف سر الجفاء .

– لماذا ؟ بذا سألت حبيبته

– لأنني أظهرت لك حبي وعلى جناح السرعة ... وقد اخبرتك بذلك عدة مرات .

لقد فتحت حقيبتها وتناولت سيجارة قدمتها إلى «ساندرو» لكن هذا الاخير رفض السيجارة . وكان لهذا الرفض أثره

على حبيبته التي شعرت من شدة الألم بنعاس يسيطر عليها .
قالت : إنني أشعر بالنعاس ، دعني أرتاح هنيهة ، ثم وضعت رأسها بين ذراعيها وأطبقت عينيها .

لاحظ « ساندرو » ان سيجارة ما زالت تعلق بين شفتيها فاخذ يسأل : كيف يمكن الرقاد والتدخين بآن واحد ؟

– سأدخن قليلاً ثم أنام بعدها . بذا أجابت .

– سأدخن قليلاً ثم انام بعدها. بذا اجابت حبيبة ساندرو بكل تؤده .

عاد ساندرو يقول : إن ذلك مضر لصحتك . فثارت الحبيبة لتقول : ولماذا كل هذه الثرثرة ؟ دعني اتمتع بسكون تام لأتذوق بعدها دفء الشمس.

لقد صر ساندرو على أسنانه والتفت يمنة ويسرة ثم القى بنظرة شذر عليها كادت تحل قواها . ثم اعلن عن عزمه على النزول إلى الماء .

أما حبيبته فكانت ما تزال تقطب جبينها دون التفوه بكلمة واحدة : فكر ساندرو بطريقة يعيد انتباه حبيبته اليه فلم يجد سوى الوقوف على رأس صخرة عالية والتظاهر بالقاء نفسه عنها رغم انه لم يكن يجيد القفز .

لقد تسلق صخرة عاليه ، ووقف منتصباً كأنه يتأهب للقفز ، لكنه قبل أن يفعل ذلك نظر الى الماء وأمعن النظر فأحدث له ذلك دواراً في رأسه وهبط الى الصخرة فاقد

الوعي ، كل ذلك والحبيبة كانت غائبة في عالم التفكير، لذلك لم تشعر بكل ما حدث لساندرو .

مرت دقائق طوال دون ان يستعيد ساندرو قواه ، ولما استعاد وعيه عاد يفكر كيف يمكن استرضاء حبيبته فلم يجد سوى الوسيلة الأولى . فقرر أن يعيد الكرة ثانية ، وفي هذه المرة مدّ يديه وصرخ اليها وقفز الى الماء، لكنها رغم الصراخ لم تأبه لما يفعل ، وبعد ان هوى الى الماء مطبقاً عينيه ويداه فوق رأسه لم يجد بدأ من السباحة والعودة الى الشاطىء ثانية.

لقد ظهر له أنه سلك طريقاً طويلا ولكنه عندما خرج من الماء لاحظ انه لا زال بجانب الصخرة التي قفز عنها فخرج إلى الشاطىء ليجد حبيبته وبجانبها سلة مليئة بالصفد وولداً قد طال شعره يجلس القرفصاء يكسر لها الصفد بسكينه ، ثم يعصر الليمون عليها .

– هل رأيتيني ؟ بذا سأل ساندرو وهو يلهث صاعـــداً اليها على حجارة تلتهب من حرارة الشمس . وأضاف : لقد قفزت من أعلى الصخرة ..

رغم كل ما قاله فانها لم تحفل بقوله ، بل تناولت صفدة من الصبي والتهمت الحيوان من جوفها .

– هل تريدين النزول بقارب الى البحر ؟

فأجابت بكل حياء : دعنا ننزل .

أسرع ساندرو الى حافة المياه وصفق بيديه الى حـــارس

الحمام الذي جاءه بقارب صغير ، وهنا صعد الى القارب ومد ذراعه لمساعدة حبيبته ، لكنها فضلت مساعدة الحارس لها فقبضت على يده وقفزت الى القارب .

أخذ ساندرو المجاذيف وأخذ يجذف بكل سرعة في بادىء الامر لاخراج القارب من مرساه .

بعدئذ اراد الالتفاف حول صخرة مستديرة عالية ، فقد عرف أن خلف هذه الصخرة لم يكن يوجد مستحمون ، كما انه لم يكن حمامات هناك ولا شيء سوى الصخور والبحر .

لقد كان هذا البرزخ بعيداً اكثر مما قدر له ساندرو ، وعندما وصل اليه وجد ان الصخرة محاطة بضفاف غمرتها الاعشاب ، كما وان مياه البحر تجري فوق هذه الضفاف ذهاباً واياباً ، كما وجد سرداباً تكسوه الصخور سار اليه بقاربه وهناك حاول مغازلة حبيبته .

اما هي فقد سألت: لماذا جئت الى هنا ؟ فاجابها بصوت خافت : لكي ننفرد لوحدنا .

لم يعجبها هذا القول ، وانما أخذت تفكر بوسيلة للتخلص من خدعة ساندرو لها ، وهكذا سألت :

— كم الساعة الآن ؟ أظن اننا قد تأخرنا والاجدر بنا أن نعود من حيث أتينا لأتمكن من العودة الى قريتي .

هنا التفت ساندرو إلى ساعة يده ليعلمها الوقت ، ولما علمت ان الوقت كان قصيراً مشت في القارب تضرب برجلها

فتعثرت وهوت الى الماء ، ثم عـــادت تمسك بطرف القارب للمودةاليه عندما لف ساندرو ذراعه حولها يحاول مساعدتها .
وفجأة رأى ساندرو نفسه منكباً على تقبيلها دون ايما إنذار . وكان من البديهي في بداية الامر أن يتحسس وكأنها تبادله القبل ، ولكن بعد أن استفاقت لما هو فاعل حاولت سحب شفتيها ، ولكن ساندرو كان أكثر فطنـــة فقد لف ذراعه حول عنقها محاولاً منعها من الابتماد عنه .
كل هذه الحركات أثارت حبيبة ساندرو فانتفضت بكل قواها واستطاعت التخلص من بين يديه .

لقد قالت بصوت فظ لاهث يجب علينا أن نعود . لقد أعلمتك منذ البداية ان هذا السلوك لا يناسبني ... فأنا فكرت في البداية في البقاء هنا فقد قررت الآن ... انك فعلت ما يدعوني للتصميم على الذهاب .

– بل كذابه انت ، بذا أجاب « سندرو ، انك منذ اللحظة التي قابلتك بهـــا وأنت تصممين على الذهاب . منذ الدقيقة التيوصلت بها لم تفعليشيئاً سوى التحدث عن الذهاب.
– نعم ، ولكن ربما كان بامكاني البقاء لو لم تسلك هذا المسلك ، أما الآن فقد انتهى كل شيء وأنا مصممة على العودة في الحال .
– إذن لماذا تبادلني القبلة ؟
– هذا ليس صحيحاً . لقد أمسكت بيدي .

ولم أستطع الأفلات منك ، وهنا خيم السكون برهة ووجل ، وكانت المرأة تفكر بعمق بينما ساندرو اخذ يجدف عائداً الى المرساة ، لقد ظل طويلاً ساكتاً ثم انفجر قائلاً لا بأس في أن تعودي ولك الخيار بذلك ، لكنه اود ان ألفت انتباهك بأنه ليس لك من حاجة بالبقاء على هذا النفور ، ولو خلال الساعتين المتبقيتين على ذهابك، لقد كنت تهوين السباحة دعينا نترك ما حدث ولنستحمي الآن ثم أخرجك الى الشاطىء .

كانت الاجابة على طلب ساندرو نظرة عرف من خلالها انها اغريت بقوله ها هي تتابع القول لا بأس من البقاء شريطة ألا تحاول عمل اي شيء آخر .

اوقف ساندرو القارب وانتصبت هي بداخله ثم وضعت قبعة مطاط على رأسها مصففة بعض الخصال خصال شعرها المتدلية واخذت تنظر الى البحر .

وهنيهة ، وبعدها استجمعت قواها لتقفز الى البحر بكل ثقة ، لقد أحنت رجليها ثم قفزت : الى الماء بادئة برأسها أولاً فكان اخر ما رآه ساندرو فخذيها السمراوين مخترقان المياه الزابدة .

يبدو ان المياه الباردة اسرعت في حث حبيبة ساندرو على الخروج سريعاً . ولذا امسكت حافة القارب تحاول الصعود اليه ، ولما سأل ساندرو إن كانت تود العودة كان

الجواب بالنفي . لذا فقد اقترح عليها ان ينزل هو بدوره ليستحم .

بعد ان القى بالجداف داخل القارب . قفز الى الماء ، ولم تكن قفزته تلك موفقة إذ سقط على معدته فأصيب بألم شديد، ومع ذلك فإنه تابع السباحة واثقاً من ان من اراد معرفة شيء ما يعاني ألوان العذاب .

صعد ساندرو ، بعد ان اكتفى بقدر من السباحة ، فصعد الى القارب ليجلس بجانب من احب ، وبعد ان ساد الصمت فتره قصيرة ابتدأ القول من جديد :

لو شئت لاخذتك بين ذراعي واثبتك تحت الماء حتى تغرقي ... ولا احد يستطيع المجيء لنجاتك . كان ساندور ينطق بمثل هذه العبارات والابتسامة تملأ فمه وتعم قلبه . اما هي فقد عرفت ان ما يقول غير ما يغمر لها في صميم فؤادة ، لقد ادركت أنه يود بدء نوع من الغزل الجديد ليشق بذلك طريقاً لأقناعها بالبقاء معه .

لقد كان حدسها مصيباً ، اذ بعد الأخذ والرد بما فكه وطاب من ايات المحبة والعاطفة اندفع بكل ما أوتي من قوة يرجو من احب البقاء ليوم اخر على الأقل .

وهكذا بين الأمل والفشل انكب ساندرو على التفكير بما عساه ان تكون النتيجة الى ان ادارت وجهها اليه لتقول :

لا تمازحني في البحر فانا لا أستطيع تحمل هذا المزاح .

– انك تعتبر في هذا مزاحاً اليس كذلك ؟

وعندما لم تجبه حبيبته أمسك ساندرو بطرف القارب ثم قفز اليه وجلس بين المجدافين . عندها تكلمت قائلة اتبعني بقاربك فانا انوي السباحة حتى الحمامات . فأجابهـا قائلاً : ليكن ذلك .

وقفزت من القارب وبدأت تسبح بينما لحق بها ساندرو يجدف بقاربه ، لقد قطعا مسافة طويـلة انهكت قواهما والسباحة الطويلة كادت تقطع انفاسها وتنهك قواها ، كما وان حرارة الشمس قد احرقت ساندرو . ولكن عناد كل منهما دعاهما للاستمرار ، ولو أدى إلى فقدان حياة كل منهما .

ومضت لحظات سمع ساندرو خلالها صوت استغاثة فألتفت اليها ليرى انها تكاد تغرق في البحر ، فأندفع اليها بكل قواه وما هي إلا ثوان حتى كان ينتشلها الى القارب بجانبه . ثم تابع التجديف إلى أن وصل بقاربه لبركة صغيرة استطاع عندهـا إيقاف القارب لينظر اليها تعبة منهوكة .

بعد تركيز القارب والاطمئنان اليه عمل ساندرو بكل قواه لاسعاف حبيبته ، فبين التدليك والتشجيع استطاع ان يعيد اليها قواها ، ما هي الا لحظات حتى اطلت عليه ببريق عينيها ونضارة وجهها والابتسامة الخضراء على جبينها ، فاثارت له القلب من جديد ،

عاد « ساندرو » من جديد لأمل كاد يفقده : أمل اقناع

حبيبته بالبقاء . ويخيل للقارىء أن ساندرو كان يعاني نزاعاً نفسياً ، فهو يبدو تارة فرحاً طروباً لسماعه كلمة ود ومحبة ، ثم ينقلب رأساً على عقب لمجرد التحول ، تحول الحديث من الهزل إلى الجدية ، فبعد أن استفاقت حبيبته لم يهدأ له بال إلا بالوقوف على رأيها النهائي ، فنراه يتساءل : لماذا تصرين على الذهاب ؟ إن بامكانك قضاء ليلة هنا لنستحم ثانية عند الصباح ، ثم تغادرين بعد الظهر .

لقد كان ساندرو يخشى الاجابة بالرفض بعد هذا كله ؛ ففكر في العودة للقارب لاقتلاع أحـــد مجدافيه ليضرب به رأسهـــا . لكن كم كانت دهشته عندما ارتأت اليه مشيرة بالموافقة . ثم أشارت اليه بالاقتراب منها حتى إذا مـا فعل غمرته بكلتا يديها وطبعت على فمه قبلة . لأول مرة وبعد اشتياق طويل استطاع ساندرو أن ينال ماربه . لقد أحس بعذوبة قبلتها بالنهاية .

بعد أن ابتعدا سألها ساندرو غاضباً :

– لماذا تتصرفين هكذا ؟

– ليس هناك سبب البتة سوى انها رغبتي في أن أفعل ذلـك .

كان يبدو أن الجو أخذ بالتغير ، وأخذ الحنان يحل مكان الجفاء ، فقد أقبل الغيث بعد الجفاف ، هكذا كان تعليق

ساندرو أم على الأقل هكذا كان شعوره لهذا التبدل الطارىء فبعد العناد الطويل والتصميم القاطع على الرحيل حلت الليونة والرضا في البقاء مع ساندرو .

ورغم ذلك كله وقف ساندرو صامتاً حائراً ، لقد ملأه الأمل والفزع – أمل تجديد العلاقة – علاقة الحب التي أسف لفشلها في البداية ، وفزع من أن لا تكون إلا خدعة لا تخدم إلا لوقت قصير ، لقد أحس «ساندرو» كذلك المرء الذي كان يطارد يراعة ، وقد سهل عليه ذلك في بداية الأمر حتى إذا ما اقترب منها ولت الادبار فكان الفشل نصيبه .

وبينما كان ساندرو يحلل ما دار بخلده من أفكار شتى عاد إلى التجديف ثانية حتى اقترب من الشاطىء لـــيرى البشر منتشرين جماعات ووجدانا، لقد عج الشاطىء بالرجال والنساء والأطفال ، انه لمنظر ممتع حقاً أن يرى المرء الآخرين بغاية لمسرة .

ومهما تكاثرت نوعية الأفكار التي راودت عقل «ساندرو» فقد كان شغله الشاغل الاطمئنان إلى بقاء سيدته معه ولو لوقت قصير – ليلة مثلاً أم اثنتين ، لذلك نراه بين الفينة والأخرى يتحول أوتوماتيكياً ليتساءل :

– وهل أنت مصممة على الذهاب اليوم ؟

أما هي فبين الغنج والدلال سمعها ترد : سأرى كيف

تسير الأمور بعد تناول طعام الغداء ، ويبدو انها كانت تحس بسعادة نفسية في إبقاء ساندرو حائراً في أمرها .

والحيرة دون شك تولد الكراهية واليأس ، لذلك يتراءى لي أن ساندرو واليأس قد ملأ قلبه أمسك بالجداف وتابع التجديف بقاربه ، أما هي فقد حدقت بالأفق البعيد بعد أن أدارت ظهرها له .

ونتيجة لذلك كان ساندرو قد مقت حتى التطلع اليها ، إلا أن عينيه كانت تعلقان بها عنوة عنه ، فيجد نفسه بعد أن استفاق محدقاً بها ، لقد كانت تجلس والسيجارة تكاد تختفي بين شفتيها ، كما كادت الشفقة تختفي من قلبها لتقول :

– ان الغرفة التي استأجرتها لي لا تناسبني .

– أوافقك على رأيك .

بذا أجاب ساندرو ، وأضاف : انها ليست الغرفة اللائقة بمقامك . وانني لأرجو المعذرة وآمل أن أستطيع استئجار غرفة لائقة بك في احد الفنادق لو قدر لي أن أعرف ما تنوين فعله – لقد أشار ساندرو إلى حينها بالبقاء أم الرحيل ليعرف كيف يتدبر الأمر .

وهنالك أماكن للنزهات ؟ لقد كانت هواية حبيبة ساندرو السباحة والنزهات ، ولذلك شاءت بسؤالها الاطمئنان إلى تيسير كل ما تهوى .

هناك مجالات واسعة للقيام بنزهات إلى أماكن وافرة . وأظن انك لا تملين العيش هنا البتة . ان قدرة الخالق قد أبدعت في إضفاء كل معالم الجمال فوق الجزيرة ، إن من عاش عليها لخيل اليه انه في نعيم الجنة .

بعد نزهة طويله في عرض البحر عاد ساندرو وسيدته إلى الشاطيء الرقراق ، وكان بانتظاره الحارس الذي عمل على إنزالهما . لقد دخل ساندرو الحمام لاستبدال ثياب البحر ، كما فعلت هي أيضاً . بعدئذ اقترح عليها إبقاء ثياب الحمام عند الحارس ، عندما رفضت هي قائلة :

– ولكن ما عساه أن يفعل لو شئت السفر اليوم ؟

كان لا بد هنا لساندرو اهمال قول سيدته ، فتظاهر بعدم الاكتراث لما تقول . لقد قال : إذن لك ما تشائين .

هكذا فقد أخذ ساندرو وحبيبته السيارة التي اكتسحت الطريق بين الجنائن والورود إلى أن وصلا المكان المنشود، وبعد أن ترجلا من السيارة أخذ ساندرو يتساءل : هل يمسك يدها، وهل يدعها تتأبط ذراعه ؟.. لقد عاد بذكرياته للأيام القلائل الأولى حيث الود والعاطفة ، كان الشغل الشاغل لهما ، فكان إذا ما يمسك يدها تأبطت ذراعه وضغطت بكل قواها ثم تنظر اليه بعينين ملؤهما الحنان والحب ،وبالنهاية لم يجد بدأ من أن يمسك بيدها قائلا : ما أجملها بقعة نحن عليها اليوم ! لقد زاد جمالها يا من أحببت !

ورغم انها لم تتفوه بكلمة إلا انها أدارت له ظهرها مفكرة فيما يفعل .

وهمس ساندرو قائلاً :

– ما بك يا « الينا » ؟

– انك لم تتغير يا ساندرو .

– وماذا تقصدين ؟

– إن ما أقصده هو انه ليس بالوقت ولا بالمكان المناسب لإبداء العواطف .

وفي هذه الاثناء كانت تمر بجانبهما عربة أقلت رجلا وامرأة وهما في مقتبل العمر ، وقد تشابكا الايدي وأحنت الشابـــة رأسها على الرجل ، فكان بذلك طريقاً لساندرو لابداء رأيه صراحة إذ قال :

– يبدو ان الوقت والمكان يناسبان لمن هم كهؤلاء .

من الواضح ان « ساندرو » قصد بذلك توبيخاً مبطناً لحبيبته .

كان بهذا الوقت قد استأثر الجوع « ساندرو » وحبيبته الينا» فقررا دخول أول مطعم يصلان إليه . وها هما يدخلان المطعم ، وقد ظهر انه خصص لأصحاب الذوق .

جلس « ساندرو » قبالة الينا ينظران إلى لائحة الطعام ، وقد خيل اليهما ان كل ما في المطعم لا يكفي لسد جوعهما

وانهالا يطلبان اصنافاً عدة مما لذ وطاب ، بهذه الآثناء اقتربت ابنة صغيرة تحمل زجاجة خمر لذيذة . فطلبت « الينا » تذوق بعض الخمرة وكان لها ما ارادت :

– إنها لخمرة منعشة أليس كذلك ؟ بذا سأل « ساندرو » فأجابت « الينا » والعاطفة تملأ منها القلب : نعم انها رائعة حقاً الشكر لك لاهتمامك الرائع بي .

بينما كان « ساندرو » يخشى على حبيبته ان تفقد وعيها من جراء احتساء الخمرة ، كان ان وقـــع نفسه تحت شدة وطأتها لقد أحس بدوار برأسه وبدأ يمارس حركات لم يجرؤ عليها لو كان يقظاً ، لقد وضع يده على وجه « الينا » وأخذ يتحسسه ، ثم انطلق بحديث ثم عن حبه تارة . وعن الأمو الذي يحز قلبه تارة أخرى .

لقد شعر ان « الينا » قد تحس بالملل فاقترح تلاوة قصته عليها ، وقد بدأ بقصة هزلية بعد أن لمس منها التشجيع على ذلك فقال :

هناك سيدة أحبت رجلا ... ولما لم يكن الحديث يروق لها قاطعته بقولها عرفت ذلك فستحول « ساندرو » لقصة أخرى يتلو غرام رجل وطريقة إظهاره لغرامه ، يبدو أن القصة لم ترق لها أيضاً مما دعاه أن يحول لقصة أخرى أكثر ايجابية .

وفجأه ، ظهر ساندرو يتحول بحديثه ليقول :

هل حقاً تحبينني يا « إلينا » ؟ وقد اتبع سؤاله هذا بقبلة طبعها على شعرها ، لقد أحس أن : « إلينا » ترتعش ، فظن ان ذلك ناتج عن سرورها بقبلته ، في حين أنها جلست دون أكتراث لذلك وقد أحنت رأسها فوق الطاولة والسيجارة ما زالت بين اصابعها .

بعد ان ثارت عاطفة ساندرو احتضن « إلينا »وهناالتفتت اليه لتصرخ بغضب وحدة ولتضرب بيدها على ظهره وتقول : لا تلمسني ، أرجوك لا تلمسني ، وقد صرخت «إلينـــا» بقسوة وعنف فشلت له اللسان ووقف صامتاً ينظر الى عينيها المحمرتين وجبينها المقطب ، ثم ازاح ذراعيه وابتعد عنهـــا ليجلس في الكرسي المعد له . بعد هذا نهض ليقول : لا مانع من الابتعاد عنك وعدم احتضانك فأنت لست اهلا للحب والمداعبة ..

ـ لا ، بل أنا لا استطيع تحمل أمتداد اليدين إلي ـ ثم اجهشت بالبكاء . لقد عز على ساندرو رؤية الدموع وقــد ملأت العينين الزرقاوين فاحتار من امرها ـ ما عساه أن يفعل كي تبادله الحب والاستجابة ، لا أنه ليس هنالك من وسيلة فالطبــع قـــد غلب التطبــع ؛ أنها لم ولن تحب ، فالقسوة والعناد طبيعتها . ها هي تقف منتصبة لتقول بحدة متناهية : دعنا نرحل .

لقد كان على ساندرو دفع فاتورة الحساب فنادى النادل، لهذا الغرض ؛ وفي هذه الأثناء جلست الينا مثبتة نظرها إلى البحر رغم أنها لم تستطيع رؤية ما حولها بسبب الدموع التي ملأت عينيها. بعد أن دفع ساندرو الحساب؛ انتصبت في الحال وخرجت من المطعم دون الانتظار لمرافقته،لقد أسرع المسكين للحاق بها ، وبعد هنيهة زمنية استطاع الوقوف بجانبها ليقول معتذراً : لو كنت أعلم أن هذا يمس مشاعرك لما فعلت ما فعلت .

إنني أفضل دفن حبي وعواطفي على ايذاءك . أظن انك تعذرين لي تصرفاتي الناجمة عن حب مجرد خالص لجمالك .

كان لا بد هنا ان تبادل « إلينا » العاطفة بالعاطفة إذ نراها فجأة تعتذر عما بدر منها نتيجة لعصبيتها التي لا تطاق وأضافت : ليس الدافع لأثارة عصبيتي سوء تصرفك ، بل أنها عصبيتي تحتم علي هذا السلوك .

مسكين ساندرو لقد وثق بقولها وتحول من الانفعال إلى الرضى ـ وعين الرضى عن كل عيب كليلة ـ لقد نسي أو تناسى على الأقل الحياة المريرة التي يعيشها مع « إلينا » لقد امتلأ قلبه بالأمل لمجرد سماع كلمة عذبة من « الينا » واقتلع من قلبه كل معالم الحقد والكراهية .

جميل أن يحيا المرء بقلب ناصع البياض وجميل أيضاً أن

يختبر الحياة بتجارب عدة يمر بها ، انما للصبر حدود ، واللين والعنف حدود ايضاً . ما عسى أن تكون النتيجة النهائية ؟ هذا ما سوف ينتهي اليه ساندرو .

يبدو ان « الينا » أحست باللوعة الجارحة لقلب ساندرو وبدأت تخامرها الوساوس والشكوك مما قد يخفي لها القدر ، فكان ان عملت على ارضاء مشاعر ساندرو بغنجها ودلالها قبالته :

عندما وصل الأثنان معاً إلى الغرفة المعدة وقفت تتأبط ذراع ساندرو مشيرة إلى أنه لن يكون بعد اليوم دافع للقهر والأزدواجية . أنها ستكون الحبيبة المستعين بقلبها كل عاطفة ومشاعر وأحاسيس بل أنها ستكون ملاك الرحمة لساندرو ، وليست بشيطان الجحيم كما مثلت في الأونة السالفة .

خيل الى ساندرو ، بعد ان لمس هذا التحول بتصرفات « الينا » ان الفردوس سيكون مأواه ، فدخل الغرفة مفعمل القلب بالأمل في عناق إلينا والاستمتاع بحبها كما يشاء ويتمنى لقد خلق هذا الشعور اللسان الطلق المعبر في ساندرو ، لقد بدأ يعتذر لحبيبته عدم تمكنه من تهيئة غرفة تليق بحبهما ، ثم أردف قائلاً : رغم كل مساوىء الغرفة فهناك حسنة واحدة هي بعدها عن الضوضاء والضجيج مما يهيء الجو الملائم لحبنـا ومشاعرنا الملتهبة .

فجأة ، وقفت « الينا » تقول انها تعبة للغاية ، وانها تود

الرقاد المبكر ، عندئذ أقفل ساندرو الغرفةوعاد يقف وراءها وكأنه يتحفز لعناقها وتقبيلها . لكنه قبل أن يفعل ذلـــك تساءل ان « إلينا » غاضبة عليه .

لقد أظهرت « إلينا » أن لا شيء يدعو للحنق والغضب، بل ان جميع تصرفاته تبعث على الاطمئنان . ان الدافع الآن لابتمادها عنه هو نعاسها المتزايد . لقد هرعت « إلينا » إلى سريرها واستلقت عليه للرقاد .

– ماذا عليّ أن أفعل ؟ سأل ساندرو ؛ هل اتركـــك وشأنك أم انك ترغبين في البقاء في غرفتك ؟ انـــك الآمرة الناهية ، وما علي سوى الطاعة العمياء .

عند هذه الرقة لم تمانع «إليناء » في بقاء ساندرو فيغرفتها فأخذ يرقبها في سريرها . انها تضع ذراعيها فـــوق عينيها تتثاءب وتتمايـــل ، ونتيجة تقلباتها من جنب لآخر ظهرت قراين قوامها فأثارت فيه العاطفة فاستلقى بجانبها ، ومع ذلك لم تتحرك البتة بل تظاهرت انها في سبات عميق . هل يترك ساندرو حبيبته وشأنها أم ماذا يفعل ؟

لم يتمالك ساندرو نفسه بل قفز منتصباً ثم نادى عليهايقبلها بعنف وحرارة .. ماذا وراء هذه القبل ؟!.. يكاد الجواب يكون واضحاً جلياً إلا وهو العودة للعنف .

وقفت « إلينا » بوجه ساندرو متذمرة حانقة قائلة : إنني

أود الرقاد ... لقد أعلمتك ذلك مئات المرات لم لا تدعني وشأني .. ماذا يمكن أن أفعل للتخلص ؟

هذا بالإضافة إلى همسات تفوهت بها « الينا » فأثارت ساندرو ليصفع منها الوجه بشدة .

يبدو انه طفح الكيل ، فلم يستطع أن يتحمل أكثر مما تحمل من « إلينا » فقام ينتقم وبعنف هذه المرة ، لقد أتبع الصفعة بدفعة عنيفة ألقتها على السرير وقد ارتطم رأسها بالحائط . بعد هذا كله قال لها : اعلمي جيداً أن ليس بامكانك التحرك من هنا البتة .

ولما رأت « الينا » الشرر يتطاير من عينيه صرخت مستغيثة بأعلى صوتها .. عندها أسرع لاقفال النافذة خشية أن يسمع المارة شجارهما . وفي هذه المرة كان الصراخ يرتفع أكثر فأكثر ؛ لقد صممت أنه مصمم على قتلها . لقد انقض عليها كأحد الجوارح ينهش منها الاطراف مؤكداً ان لا إفلات لها في هذه المرة . ولما رآها على وشك الإغماء أسرع يفتح النافذة والباب ثم أمرها بالخروج الى حيث لا رجعة .

ودون شك كانت «الينا» تخشى التحرك لئلا تثير «ساندرو» أكثر فأكثر ، فيكون بذلك حتمية نهايتها . لقد انتظرت صرخة أخرى تدعوها للخروج عندما هرعت خارج الغرفة والتجأت لغرفة مجاورة وأقفلتها .

لقد انتظرت اللحظة المواتية لهربها ، ولما أحست بشرود « ساندرو » ولت الأدبار فكأن بذلك الفراق الأزلي حيث اراح الاثنين معاً . ان حالة كهذه لا يستطيع الابقاء عليها الاخوة الشياطين .

بعد أن استفاق « ساندرو » من كبوته نظر من النافذة إلى البحر الهادىء والذكريات تمزق احشاءه . وما هي إلا برهة حتى أطلت الابنة الشقراء الجميلة تدعوه للسباحة بكل ما أوتيت من رقة وحنان . يبدو ان الابنة كانت على إطلاع بمـــا يحدث « لساندرو » فأرادت تخفيف مصابه بعاطفتها ونبلها نحوه ،ولذا نشأت علاقة طيبة تحولت إلى حب فزواج. فضم هذا الزواج الذي امتلأ بالاتزان والعقل والحب لقد انهى « ساندرو » قوله : الحياة طريق شائكة ان هي خلت من الحب . الحب وليد العقل والعاطفة عندما يخلو المرء من العقل والعاطفة وتسيطر عليه طبيعة الشر فلا جدل ان جهنم مفضلة عليه من هنا يمكن الايجـــاز لشخصية كل من « ساندرو » و « الينا » .

لأول مرة اسكتت به الحكمة والتروي والبصيرة ها هو يطيل باله رغم الصدمات والقسوة ورغم الفخ الذي لا يطاق الذي مارسته « الينا » لقد عمل على المعالجة الدائمة وعمل على التفاني للابقاء على رابطة الحب بينه وبين حبيبته ، ولكنه عندما استأثر به الضجر وشعر أن من الصعب معالجة الفالج عرف أن

خير ما يفعله بتر العضو الفاسد الذي نغص عليه هناءة عيشه .

أما « الينا » فانها غضوبة شكسة لا يهنأ لهــا بال إلا بالتنكيل حتى بأعز من لديها ، حبيب ، وما أجملها كلمــة. الحبيب هو من اتسم بطابع الاخلاص والتفاني ،بروح الانسانية المثلى ، وبالعاطفة الجائشة التي تنير الطريق للحبيبة فيؤمنان بذلك الحياة المثالية المجدية . ليس الحبيب بغنجه ودلاله ،لا ، وليس بكبريائه وعجرفته ، انه بدماثة خلقه ، باتزانــه ، باستقامته . هكذا يبدو الحبيب ، بل هكذا يجب أن يبــدو كل حبيب مخلص .

أما الروح التي اتسمت بها « الينا » فهي تبعد كل البعــد عن المزايا المتعددة الآنفــة الذكر . انها أشبه بالحريص على القسوة والمشاكسة ، وعلى العناد والشقاء .لقد غلب فيها عامل الشر عامل الخير . لذلك كل ما تنتهجه ليس إلا إلحاق الضرر بالغير حتى وإن كان حبيبها .

ماذا كان على ساندرو أن يفعل ازاء هذه الحقيقة المريرة، أيتركها وشأنها لتوه ؟ أم عين العدالة والاستقامة كان قــد أتبعها في المصالحة والصبر والاستكانة ؟

الاجابة على السؤال الأول تبدو واضحة . إن الذي فعله ساندرو كان عين الصواب ، إذ ليس من الحكمة أن يثور لتوه ويضع حداً فاصلاً لعلاقته مع « إلينا » فيهدم بذلك حباً كان ينتظره .

من هنا نأتي الى الشطر الآخر من السؤال لاثبــات ما إذا كان سلوك ساندرو مثالياً : المثالية التيأظهرها ساندرو في شد إزر رابطة الحب والعمل الدائب لعدم تصدع جداره لا شك انه يحسد عليها . لقد ربط ساندرو بتصرفه الحكيم بين روية العقل وحماس العاطفة.ورغم ذلك كله نجد انه لم يوفق بما كان يصبو اليه ، ذلك انه كان يسبح في بحر بينما « الينا » سبحت في بحر آخر .. البحر الهادىء لا يمكن مقارنته ببحر نخرت عبابه الرياح فعلت أمواجه فأزبد وأرغى .

انتهت

العاهر العجوز

هي « ماريا تريزا » وقد أضناها العياء فبدت شاحبة مكفهرة كأنها خيال ليس إلا . ناهيك عن العزلة ، عن الغنى المادي الذي ابتعد كلية عنها فأدمى منها القلب في نهاية عمرها. والأمر الامرّ هو تهرّب المجتمعات الراقية منها مما آل بها إلى الحضيض .

لماذا عانت « ماريا تريزا » إذن الحرمان وما هو السبيل الذي اتبعته هما العاملان الاساسيان لإظهار حياتها .

قد ينطق العنوان بمزايا « ماريا تريزا » ليصف بدقة السبيل الذي اتبعته . ففي ريعان شبابها لم تأبه « ماريا تريزا» بالمثل العليا بل سلكت طريقاً شائكة ، هي طريق الدعارة المستمرة والمتاجرة بجسدها . لقد كانت السعادة بالنسبة لها في جمع العدد الوافر من الرجال حولها .

ومضت السنون تلتهم نضارتها الى ان وجدت نفسها ورقة

مالت الى الجفاف واصبحت على وشك التساقط .

لماذا عانت «ماريا» في شيخوختها ؟ يبدو ان رعونتها التي جرفتها لطريق السوء هي نفسها اوصلتها لعذاب الحرمان ـ الحرمان من المركز الاجتماعي فبقيت في عزلة تامة ، والحرمان من المادة التي هي وسيلة العيش الهنيء .

ورغم كل الأخطاء التي تعرضت لها في صباها ؛ لم تدرك « ماريا » أن عليها التحول عن الطريق التي سلكت والتكفير عن الذنوب التي اقترفت ، بل استمرت بالاصطياد فكان آخر فرائسها شاباً من ريعان العمر ، كيف بدأت مغامرتها مع هذا الشاب هي المنطقة التي تتحول الآن اليها علنا نعمل على ايفاء شرحها والتدقيق في تصويرها لنتتبع الخطوة بعد الأخرى وحتى النهاية .

هو شاب مراهق عز عليه رؤية انثى دون مغازلتها . لقد تعرف إلى « ماريا » حيث كان يقضي ليلتـــــه في أحد الأندية الليلية حيث كانت تعمل .

شأنها وشأن كل العاملات في المقاهي تتصنع الابتسامة ، فكان بذلك أن اصطادت الشاب . فمنذ تلك اللحظة والدم يغلي في شرايين عروقـه طمعاً في التعرف إلى هذه العجوز المتصابية ، ولما لم يرق له رؤيتهـا في المقهى ضرب موعداً لزيارتها في بيتها .

في اليوم التالي وبعد أن دفع الشاب بباب الغرفة وقف

على عتبة الباب وجال النظر هنا وهناك إلى أن وقعت عينه عليها فصرخ اليها ، وأسرع يحتضنها ، شأنه شأن ذاك الذي أراد أن يدخل الى صلب الموضوع دونما مقدمات ، لقد انهال الشاب عليها يقبلها بحرارة متناهية ويزفها أجمل عبارات الحب وأرسمها أنه طيش الشباب الذي ما إن اشتدت وطأته حتى عميت منه البصيرة والبصر فأصبح يرى في عينيها الغارقتين في نفق بصيص نور لحياته تزينها تجاعيد وجه العجوز التي ظهرت وكأنها الجداول تصب في السهول فتخصب تربتها وتخضر مزروعاتها .

ما أحكمه قول بل ما أحكم من قال : « وعين الرضى عن كل عيب كليلة .. » فكيف إذاً بعين الحب – حب الشباب المراهق المندفع المنجرف وراء غرائزه الجنسية وعواطفه التي لم تنضج بعد .

بعد اشفاء غليله واشباع نهمه ترك البيت يجر نفسه الى حيث اتى . مضت الأيام وتكاثرت الزيارات فأطفأت النار المتوقدة واتزن بعدها الشاب ، لقد بقي على علاقة عاطفية بالعجوز لكنه اخذ ينظر اليها من خلال مجهر النقد ليرى الشوائب العديدة التي تعتريها .

انه اليوم على موعد ايضاً . كعادته ، رفع الباب ثم نظر الى خليلته ودخل الغرفة . حدق بها متأملاً فرأى أن كل ما تصوره وهو سائر على الطريق ينطبق مع مظهرها اذ

بينما كان لا يزال على الطريق كان يتصور ان «ماريا تاريزا» على ابواب شيخوختها ، نهمة شرصة ، تلتهم كل من وقع بصرها عليه .

بالإضافة إلى ما ذكر آنفاً فان جسدها كان قد بدأ بالنحول رويداً رويداً فبدت وكأنها صورة كاريكاتورية لا أكثر ولا أقل ، ورغم هذا التأمل لم يتوان عن مجالستها . لقد وجد فجأة نفسه يجلس على الاريكة ويجلسها فوق ركبتيه .

لقد ذهبت الأوهام لتحل محلها الحقائق المؤلمة . هاهو الشاب يشعر بامتعاض نفسي لمجالسته عجوزاً . انه يفكر بالابتعاد ولكن دون جرح لهذه العجوز العاهرة . انه السلوى الوحيدة لها ، بل الحبيب الأخير ، وما أصعبه من فراق . لقد أخذ يفكر بطريقة مجدية فلم يجد بدأ من أن يصرح لها علانية لهذا صرخ بأعلى صوته : « ماريا » ... وكان على وشك البوح بما يخفيه لها وبما يحز في قلبه ويشغل منه الفكر .

لقد جئت أصارحك بما يدور في خلدي ... لقد كان على وشك القول بأنه قد مل مداعبة العجائز لكنه نظراً إلى وجهها وقد رأى فيه ما يثير حنانه فوقف حائراً متردداً إلى أن قال : وماذا يهمني عمرها ما دامت تبدو بهذه النضارة والحيوية .

يبدو أن خروجها من الحمام قد أضفى نضارة على وجهها خاصة الماكياج الذي كان شغلها الشاغل .

يبدو أن الشاب عاد وأشفق عليها لذلك فهو يحاول اقناع نفسه لقبولها على علاتها ، لكنه بعدما يمعن النظر بها وبعد اشباع غريزته كان يعود لضراع فكري . ولهذا فاننا نراه يشفق عليها تارة ويقرر الابتعاد عنها تارة أخرى .

« انهـا المرة الأخيرة التي بها ترين وجهي » قال هذا في قرارة نفسه بعد أن تحسس جميع أطرافها ليصاب بخيبة أمل كبيرة. لم تكن هناك النعومة بل كان الجلد ينساب دونما عضل يشده . لقد أصبح كالأوراق الذابلة دونما نياعة في أي من أجزاء جسدها . لقد أحس بكل قرف نفس ينتابه بوفرة . نعم ، ليس هناك مما تحسسه يثير حماسه بل على العكس فقد انهـــا تخمد به نار الحب المستعرة بشبابه وتقتل منه الشوق والعاطفة انها متداعية الوركين وقد حل الظلام على وميض وجهها فاكفهر ؛ أما صدرها فقد ظهر كبير الحجم لا يطاق .

رغم كل هذا كان عندما ينظر الى وجهها يرى بها الانسانة التي لا تزال تصلح لحبه .

ها هو يهدأ ثانية وتزول العواصف النفسية التي اجتاحته ، وما ذلك إلا بعد أن تأمل وجهها ليجد به ما يثير حنانـــه وعواطفه ، فينقلب لتوه ليصبح الحمل الوديع .. انه يدعوها للتنزه قائلاً : لقد حان موعدنا للذهاب في نزهتنا ، وكأنـــه بذلك يريد حثها على النهوض عن ركبته ، حتى إذا ما فعلت نهض بدوره وتهيأ للخروج معها .

ها هي تنهض بغنج أشبه بذلك الذي تظهره فاتنات المسارح لتغدق عليه بوافر نظراتها ولهيب حركاتها ثم تقول بعدها : ياه ! انه الدفء وكل الدفء في بقائي بقربك . انها لأجمل نزهة أقضيها في بستان شبابك ورقتك وعطفك .. ثم أردفت قائلة : لا ، لا اريد أن أخرج هذا اليوم بل اني اريد تناول العشاء في البيت ، إذ ان هناك سرا أريد البوح به اليك . وهنا ابتسمت وكأنها فرحة بنفسها رغم انها كانت ابتسامة تضليل وخداع لتغرر بها الشاب .

كان من الطبيعي أن يوافقها الشاب على البقاء في البيت للاطلاع على سر دفين في قلب العجوز الدهرية المتصابية. ترى ماذا تخفي في قلبها ، بل أي سر دفين تريد البوح به ؟..

وبينما هو في اضطراب فكري تتقاذفه الأفكار الجمة سأل الشاب ما عساه أن يكون هذا السر . أما هي فقد ترددت ، ثم حاولت إخفاء ما كانت تنوي قوله . انها تتحول لموضوع آخر برقة ولباقة لتقول انها تنتظر هاتفاً ضرورياً بالنسبة لها. وبينما على هذه الحال إذ بالهاتف يرن فأسرعت العجوز نحوه ، أما الشاب وقد أفقده دم الشباب البصيرة والتبصر ونهشت الغيرة منه الكبد فأخذ يتساءل :

ترى من المتكلم ؟ لا شك أنه حبيب اليها. لو صح حدسي فسأحطم منه الرأس بل سأقضي عليه. ثم وقف منتصباً ليقول بنبرة دكت ركائز البيت : من المتكلم ؟

لقد أدركت العجوز سر غضبه فأرادت له الاثارة إذ قالت : لا بد وأن يكون رجلاً أحبني حباً شديداً . هذا ما قالته « ماريا تريزا » وهي ترقب الانفعالات البادية على وجه الشاب الحبيب .

– ومتى كان ذلك الحب ؟

– منذ سنوات خلت ، إنما التقيت به البارحة وما أجمل لقياه . مـــا أجمل العودة الى ذكريات ماض غابر حمل معه الشباب فبدت الحياة زاهية زاهرة .

لقد التقيت به وتعرف الي رغم طول البعاد فأخذ يتحدث الي بحماس بالغ عما كان وعما يجب أن يكون بعد هذا اللقاء العفوي الجديد ، ثم أضافت : انه أصبح غنياً . ربما يكون نتيجة جده ونشاطه ولربما يكون بطريقة الوراثه. لقد عرفته شاباً ينتسب لعائلة عريقة غنية .

انها الغيرة نهشت الحبيب قلبه فامتنع عن الاصغاء لمـــا تسرد . لقد انتابه ألم أسكنه وأسكتة فوقف شارداً متأملاً . ثم استجمع قواه ليقول : يبدو أن « ماريا » كانت لها عز ماض حيث ريعان الشباب . ولا شك في انهـــا كانت تنعم باحباب غير قلائل .

ولما كان ما قاله الشاب يتلى على مسامع « ماريا » ثارت ثم دفعت باب الغرفة لتخرج منها . أما الشاب فقد وقف بحيرة

من أمرها . وما هي إلا هنيهة وجيزة إلا ودخلت « ماريا » إلى الغرفة ثانية تحمل معها طبق الشاي. بعد أن جلس الاثنان إلى المائدة سألت « ماريا » الشاب عن القدر الذي يريده من السكر فأجابها بقبلة طبعهـــا على شفتيها وكان بذلك يمتص رحيقاً يغنيه بعدها عن إذابة السكر بالشاي .

كانت هذه العاطفة ناتجة عن يقينه بأن ليس هناك حبيب آخر وإلا لما بقيت على مودتها له، ولم تسرع بالذهاب لتحضير الشاي والعشاء معاً .

نعم لقد تبددت أوهامه بأن هنالك من يغازلها فتبخرت بذلك منه آثار الأنانية والحسد ، كما تتبخر المياه من الثوب المبتل .

أما « ماريا » وقد ملأ قلبها الحنان فعـــادت تسأله : كم قطعة سكر تفضل إذابتها بالشاي ؟.. لقد تنهـد طويلاً ، ثم قال بعدها : قطعتين يا حبيبتي . أما وقد أخذ القطعة الاولى بقبلته الاولى كان على « ماريا » أن تقدم له الاخرى بقبـــلة ثانية فيحلو بذلك الكأس ويزداد حلاوة ، وبالفعل كان هذا ما فعلته « ماريا » .

وبعد العشاء كان الظلام قد بدأ ينشر حلته فنهضت «ماريا» تضيء مصباحاً لانارة الغرفة المظلمة . لقد وضعت المصباح على طاولة صغيرة بجانب الهاتف ، ثم عادت تجلس ثانية قرب الشاب

الذي ما زال يجلس الى المائدة ينظر في كوبه الفارغ . لقد حملت اليه حافظة صور جمعت الكثير من ذكريات شبابها .

لقد غصت الحافظة برسوم الشباب ممن كانوا على علاقة معها ، ويبدو ان « ماريا » أرادت إظهار رسمها في سن الصبا وإظهار العديد من الشباب الذين تهافتوا على لقاءاتها .

لقد ذهب العديد منهم ، والباقون منهم قد شاخوا ، فلم يبق سوى الذكريات تكدسها في حافظة الرسوم .

لقد كان تعليق الشاب على ما رأى قوله: حتماً، العديدون منهم غدوا بمثابة أجداد . لقد حمل هذا التعليق اللؤم المبطن، ورغم ذلك فقد أجابت « ماريا » عليه بالصمت ، دون أن تتلفظ بكلمة تظهر تضايقها من عدم لباقته ونظرت اليه نظرة ازدراء فكانت بذلك الطعنة الدامية لقلبه .

أما الشاب فقد أخذ يعلل سبب سكوتها ، لقد قال في نفسه : لو كان بها ذرة من العنفوان لما وقفت صامتة بل كان عليها الرد على التحدي والاهانة ، ثم صمت قليلاً ليعود للقول: بلا ، لقد شدت الصور من يدي لتضعها ثانية في الحافظة ، ثم أردف قائلاً : إن هذا ليس بسبب عفتها وتوبتها ، بل لقد هان عليها أن تفقد كل شيء حتى طهارتها للابقاء على صور من أحبت . انهـا لعاهر قذرة ولو قدر لأصحاب هذه الرسوم العودة للحياة ثانية لما توانت هذه العجوز من الاستلقاء بجانب كل منهم تداعبه ويداعبها .

هذا بالاضافة إلى الكثير مما نعتها به من صفات الرذيلة ، وبعد كل هذا وقف الشاب ، بعد أن حمل مجموعة الصور بين يديه ، ليقول : ان هولاء الرجال وتلك السنين يقرون أيتها العجوز الشمطاء ، وماذا ؟ لا شك أنه إقرار بأن شبابك قد ولى وان شئت دعينا نبدأ محاكمة . لقد نصب نفسه حاكماً وأعلن ابتداء جلسة علانية قال بها مخاطباً « ماريا تريزا » :

أيتها السجينة ، هل تعرفين هذا الرسم ؟ لقد أشار هنا الى صورة كان يحملها بيده وقد مثلت « ماريا تريزا » . يجب أن تكوني في الثامنةعشرة من العمر حيث كان شعرك ما زال بعذوبته يملأ جبينك ، وأناقة شبابك تشير الى أنك كنت في ريعان الشباب ، هذا بالاضافـــة إلى أن التبختر والسير على رؤوس الأصابع ليست سوى مظاهر يدعيهـا من كان في عنفوان شبابه ، أما نظراتك الصاخبة بأعين براقة فلا تشير إلا لأبهة الشباب وجماله .

ثم ادار نظره الى صورة الرجل الذي لف ذراعه حولها ليقول : ومن هو فارس احلامك هذا . يبدو انه كان لطيفاً للغاية ثم سحب بعض الصور الاخرى لرجال عديدة لعرضها على العجوز المتصابية كأنه بذلك يعطي البراهين القاطعة على ادانتها .

وقفت «ماريا» بكل جرأة تعدد اسماء الرجال : ان هذا السيد «ب» وقد كان ممثلاً وما زال يعمل في دور السينما ؛

والثاني كان ثرياً وقد قتل بالحرب ؛ اما الثالث ، وهو السيد «س» فقد كان صاحب بنك. وبالنهاية اشارت الى رجل بدين وهنا يقاطعها الحبيب الشاب ليقول ومن هو هذا ؟ هل كان خادماً ؟

فأنطلقت العجوز قائلة : ان هذا الرجل ، هو اكثرهم ثراء لقد شاد لي قصراً ، لذا كان مفضلاً لديّ. لقد قالت هذا وهي تسبح بالغنج والدلال ..

ثم نظرت والأمل يشع بعينيها وكأنها ارادت استعادة ذكريات الشباب . ثم تتنهد لتقول : كان يمكن لي ان أكون اغنى اغنياء البلدة لو احتفظت بما قدم إليّ .. وتردد هذا القول تكراراً حازمة عليه .

لم يتفوه الشاب بكلمة واحدة ، بل وقف صامتاً أمام دناءة هذه العجوز التي لم تدرك من الحياة سوى المادة . لقد تأوهت على ما قدم اليها من حلى وجواهر ، ونقود وقصور ، ولم تتأوه لفقدان عفتها وطهارتها .

لا أدري ما الدافع لفقدان العجوز اتزانها بل وقدرتها ، فقد وقفت ترتجف من أعلى رأسها حتى اخمص قدميها ، ثم اقتربت من الموقد تدفىء نفسها ؛ لقد أصابتها الحمى النفسية وسيطر عليها شبح الفقر والهزيمة ، فسقطت إلى الحضيض .

وهنا أعلن الشاب عن انتهاء المحاكمة . وقبل ذلك كان

يسأل : هل لديك ما تضيفين ؟

وقفت المتهمة صامتةدون اجابة . إزاءهذا الموقف نعلن : بأنك متهمة بكبر سنك ، بتجاعيد وجهك والبشرة ، بالشيب ، بذوبان العاطفة والذكريات معاً - كما وانك متهمة بفقدان البيوت ، الاحباء ، الحفلات ، الثياب والابتسامات .

وبينما الشاب الحبيب يتلو قرار الاتهام كانت « ماريا » في سبات ذكرياتها فبدت كالسفينة الضالة تجوب البحار دونما مرشد ولا دليل . ثم يبحث الشاب بالغرفة فيعثر على حافظة أخرى تمثـــل ارتالاً من الشبان النضر الذين قضوا حتفهم على الطرقات ثم مجموعة رسائل ذات عناوين مختلفة وقد بهتت ألوانها لمرور الزمن عليها .

أخذ الشاب ينظر لهذه الادوات بالإضافة الى مسدس عثر عليه بين مجموعة الاغراض الاخرى ، كان الشاب ما زال يحمل المسدس بيده عندما صرخ : وماذا يفعل هذا هنا ؟

- انه للدفاع عن نفسي ؛ بذا أجابت « ماريا » بعـــد أن أزاحت المسدس جانباً ، وعلى كل حال انني أشعر بأنـــي سائرة الى نهاية مؤلمة .

لقد قالت ذلك بكل إصرار ، بينما جالت عيناها لتجمع بين الشاب والمسدس معاً ، ثم فتحت عينيها وكأنها أرادت أن تتغرر حتى بالموت نفسه .

ثم تتحول « ماريا » بحديثها لتقص على الشاب قصة رجل قضى في ظروف غامضة منذ سنتين :

انه شاب وسيم ، بهي الطلعة ، أحبني وأحببته ، وقد بلغ منا الحب درجة لم أستطع مفارقته ؛ لقد كان يبادلني المشاعر هذه بل وأكثر منها ، فخيل الينا أن الحياة زهوراً فأخذنا نمتص من رحيقها ما استطعنا ولم نأبه لمصاعب الحياة .

كان كل همنا التمتع والهناء .. وكيف يهنأ لنا بال إلا بالاجتماع سوية نبث أشواقنا ولواعج قلوبنا . كان لنا ليال حمراء نقضيها معاً ننعم بسكون الليل وهمسات الاحباء .

لم يطل هناؤنا فقد حل الشقاء بدل السعادة ، والبؤس محل الرخاء . لقد كانت ليلة سوداء ، أمكنت جرف حبيبي . انها الغيرة نهشت قلوب الارديا فتربصوا به وقضوا عليه . كيف وأين فهذا ما لم أستطع معرفته ؛ ثم أنهت قولها مطرقة الرأس ومتحملة عناء التنهدات العميقة : وهكذا سأواجه نهايتي. لقد أرادت « ماريا » أن تشير بقولها لفظاظة الشاب الذي كان قد هز لها المسدس .

هنا بدأ الشاب يقهقه ثم يصرخ بعدها : ما هذه الأفكار الجهنمية !. ثم القى بالمسدس الى الأرض وجلس يحتضنها بكلتا ذراعيه .

لقد حلت الرأفة في قلب الشاب وتلاشى غيظه ، ويبدو

انه اشفق على انسانة قضى معها ليالي ممتعة فأخذ ينظر بعين العطف ليرى بها ما يحلو اليه من جديد ، ها هو بعد الصراخ والتنكيل يعود ثانية لأحتضانها طالباً المعذرة عن سوء تصرفه ومتودداً عله يحضى بعطفها ويزيل معالم الحقد المتأجج في قلب ماريا من جراء تهديداته وتهكمه .

ثم يتابع الحبيب الشاب قوله بدهاء ليغمز مطمئناً الى انها لن تموت بظروف غامضة ، بل انها ستموت على فراشها وبعد العمر الطويل . بعد هذا القول اندفع نحوها يريد عناقها ولكنها لم تأبه لنداءاته العاطفية واندفاعه نحوها بل دفعته بعيداً عنها ، ثم صرّت على اسنانها لتقول : انك لست انسان وتكاد تكون مصالح الانسانية تخلو منك تماماً – بل انت حيوان مفترس .

يظهر انها اصيبت بالعصبية التي افقدت منها الصواب فأخذت تفتش عن مسكن لثورتها ، وهـا هي تعود ثانية تحمل زجاجة من الكنياك . وما هي إلا جرعة أو أخرى حتى كانت « ماريا » قد تناولتها وإذا بجرس الهاتف يدق فلم يرق لها الكأس عندها ، بل أسرعت بعد أن وضعت الزجاجـة جانباً تجيب على المكالمة الهاتفية :

– من المتكلم ؟ أجب بالحال .. كانت ماريا تسأل بصوت متهدج يشير الى ما تعانيه من الفشل والبؤس . ثم عادت تسأل من جديد : من المتكلم ؟ ألست بالسكرتير ؟ بعد هذا وقفت

صامتة ترقب بحرص لترى ما عساه أن يكون الجواب .

– بل ماذا تقول ! الا استطيع مكالمته ؟ وهل حقاً تقصد ما تقول ؟

يبدو ان الرجل قد اقفل الحديث بينما استمرت « ماريا » تتظاهر باستمرار المحادثة وكأن شيئاً ما لم يحدث كهذا . ثم اقفلت السماعة بكل هدوء ورصانة . لقد حاولت تغطيه فشلها ولكنه مهما كانت المحاولة دقيقة متزنة ومهما برع الممثل في ابدال الحقيقة لا يمكن للحق إلا وينجلي؛ لقد دلت ملامحها على شؤما يحز في قلبها ، بل وكأنها كادت تشتغل . رغم هذا كله كانت ماريا تحاول تغطيه الحقيقة بالتصنع والرياء

بعد أن عادت « ماريا » الى حبيبها الشاب سألها إن كانت قد حصلت على ما أرادت . لقد شخصت « ماريا » بعينيها ونظرت اليه بغرابة ولكنها لم تجب على سؤاله . يبدو انها لم تك تتحمل عندها الاسئلة . انها بعصبية رعناء وقد وجدت ان خير علاج لها الادمان على الخمرة .

ها هي تحتضن الزجاجة بين ذراعيها من جديد ترتشف الجرعة تلو الاخرى بنهم ولذة . انها أرادت أن تقتل كل الوساوس التي تنتابها ، بل وكل الذكريات المؤلمة ، فلم تجد سوى الخمرة ، والخمرة وحدها .

بعد أن كالت ما طاب لها أعلنت ماريا عن وجوب البدء

بالعشاء . وهنا انتهز الحبيب الشاب الفرصة للانقضاض عليها فأمسك بذراعها وجذبها نحوه يقبلها ، لقد بادلته القبلة بعاطفة متأججة حتى خيل إليه أنها ترتجف ، ثم نظر إليها ليرى وجهها وقد طفح بالشوق .

إنها المرة الأولى التي يجلس بها الشاب على العشاء مع ماريا رغم طول معرفته بهـا ، ولما لم يكن لديه فكرة عن قدرة « ماريا » على تهيئة الطعام وترتيب المائدة ، خيل إليه ان العشاء سيكون بسيطاً كما لو دخل لأي مطعم كان . لقد ظهر المطبخ وكأنه لم يستعمل بعد – فالأواني تتلألأ براقة ، انه نموذج المطابخ المنتظمة ، وهنا كانت المفاجأة للحبيب الشاب : إن كل ما بالمطبخ يشير إلى روح التنظيم والترتيب ، كما أنه يحث الناظر اليه على الشهية ، ولكم كانت « ماريا » فخورة بأن تشير إلى أن كل تنظيم في المطبخ قامت به وحدها ، كما ان تحضير الطعام تمّ دون أي مساعد لها على الاطلاق .

وقفت « ماريا »، وبحركات تنم عن ثقة واعتزاز ، أخذت تعدد أصناف الطعام المؤلفة منه المائدة – البفتيك ، الحساء ، السبانخ والخبز المحمص بالاضافة إلى البطاطا ، ولما جاء دور الحلوى اعلنت انها تعد أنواعاً عديدة ، إلا أنها ما زالت على الموقد .

لقد نهضت « ماريا » وأسرعت إلى المطبخ وقد لحق بها الحبيب علها يتمتع برؤيتها تحضر الحلوى ، لقد ذهل إذ رآها

تضع مقادير معينة في القدرة من كل صنف ثم ترفع الملعقة إلى فمها تتذوق صحة مـــا فعلت . وخلال هذه العمليات وقع منديلها وقد أصبحت عارية الرأس عندها . فوقفت تحمل الملعقة باحدى يديها وتعرض نفسها لحرارة البخار لتكسب الدفىء إلى جسدها .

بعد الانتهاء من تحضير الحلوى كان الاقتراح الذي تقدمت به « ماريا » هو العودة ثانية إلى الغرفة ، لقد وجدا أن المصباح ما زال يسطع بانواره المنعكسة على جدران الغرفة المرصعة « بالبورسيلين . وجلس الشاب الحبيب بينما أخذت هي تسير ذهاباً واياباً وسط الغرفة. لقد أخذ يحدق بها وكأنه لم يصدق عينيه : انهـــا ليست « بمريا تريزا » التي احببت ، بل هي انسانة أخرى . إن ماريا تريزا لم تعتد لف نفسها بالمريلة لتقف أمام الموقد تحضر الأكل دونما أية مساعدة . انها انسانة كان هما الوحيد التحدث عن شجاعتها كإنسانة .

لقد أكلا بكل هدوء حتى دون أن ينظر الواحد منهما للآخر . بعد ذلك رفعت « ماريا » رأسها لتقول : إن الرجل الذي كنت أتكلم معه بالتلفون اعتاد على حبي حق العبادة .. وعند سماع الشاب لقولها عاد الحسد يلهب قلبه — انه ، في هذه المرة ، حسد اقترح بالقنوط والشعور بالشفقة . لقد أشفق عليها عندما رآها تهوي إلى الحضيض بعد أن كان لها أيام تنعم بأدوار مختلفة — لقد ضحكت وبكت ؛ رقصت

وأحبت ، وتنعمت بكل أيامها الحلوة التي بدأتها في ريعان الشباب .

وهنا تعود « ماريا تريزا » تتابع حديثها عن الرجل وحبه فتقول : رغم حبه الجنوني لي ، فقد بخل عليّ بنقوده ، بل انه بخل عليّ بكمية ضئيلة طلبتها منه . لا يكاد المرء يعرف أن حبيباً لا يتفانى بحب حبيبته فكيف يمكنك تصديق ما أقوله لك ، إنما هي الحقيقة المجردة أقولها لك لتقف على مدى الخداع الذي تتعرض له إنسانة مثلي ، إنها ليست المرة الأولى التي بها أذهب ضحية المراوغة بل هناك المرات العديدة التي تعرضت لها لصدمات قاسية ومؤلمة .

وهنا قاطعها الشاب متسائلاً : وهل أنت حقاً بحاجة ماسة للنقود ؟

لقد أجابت على سؤاله بابتسامة نمت عن سخط وازدراء ، ثم أردفت تقول :

ألا تعتقد انني بحاجة للنقود ؟ انني أؤكد لك انني بحاجة ماسة لأي مبلغ كان ... كل ذلك والبؤس بادٍ على وجهها .

ولكن ما هي حاجتك للنقود ؟ وعاد الشاب يسأل : هل هي لشراء الثياب أم للسفر ؟ وهنا تهز « ماريا » رأسها معلنة عن المضايقة التي تنتابها لمثل هذا السؤال : لا ، انني احتاج للنقود لأترك المدينة والذهاب إلى قرية نائية أستقر بها ، لقد

مللت الحياة بين البشر ، لذلك فهي تطلب العزلة بعد الآن .

انها ، لهذا ، تفضل الرحيل إلى القرية لتسكن ببيت وضيع مؤلف من غرف قلائل وحديقة وزهور .

لماذا لا تذهب لمسقط رأسها – للقرية التي ولدت بها ؟ يجب أن يكون هناك سر لذلك . أخذ الشاب يفكر قبل أن يقاطعها قائلاً والابتسامة تعلو جبينه: أتريدين حديقة وزهوراً؟

– نعم ، انني أريدها حديقة تنعم بباقات الزهور .

– بل لماذا ؟ أليس هذا إجحافاً بحق وضعك المادي ؟

ولما أدركت « ماريا » ان هذا الحبيب الشاب أيضاً لا ينوي منحها النقود صرخت بأعلى صوتها : سأعيش بدون نقود ، بل لن أشرح فقري لأي مخلوق آخر ، لقد أصبحت بعد الآن أدرك القول وأبعاده ، وما ترد يدي لهذا القول إلا ليكون عبرة لمن اعتبر ، أما القول فهو : « إن قل مالي فلا خل يصادقني ، وإن زاد مالي فكل الناس خلاني » .

لقد انتهى العشاء وقد نهضت « ماريا » تجمع الصحون كي تنظفها . أما الشاب فقد جلس يرقب « ماريا » تقضم أظافر يدها غيظاً وسخرية ، وبعد الانتهاء من عملها رقدت في سريرها ، وقد أضناها التعب ، انها تحاول بذلك استعادة نشاطها . أما الحبيب الشاب فقد وقف ينظر اليها .

لقد تمنى لها نوماً هانئاً ثم تأهب للخروج ، لقد بقي طيلة شهرين على علاقة بها ، ولما لم يعد لديه نقود فقد كان عليه تركها . وبينما هو يهم بالخروج نظر إليها فرآها باكية ، لقد كانت تبكي بهدوء دون ولولة وقد انسابت الدموع من عينيها كالدم الغزير ينزف من جرح بليغ .

هنا انحنى الشاب ليزيح لها ذراعها عن عينيها ويصرخ مودعاً . وقبل الوداع سألها عن سبب بكائها، لقد كانت تفكر بالمكالمة الهاتفية ، ثم أطبقت عينيها لتقول بمرارة : انها المرارة بعينها أن تمد يدك لكسب قوتك .

لم يعرف الشاب ما عساه أن يجيب لقد حدق بوجهها ، ثم أجال النظرة على كتفيها ثم فوق جسدها أجمع . انه لم يشأ البقاء أكثر ، بل سارع يودع « ماريا » بصوت عال وترك الغرفة .

– نراكم غداً ، كان جواب « ماريا دون أن تفتح عينيها .

ها هو الحبيب الشاب ينزل الغرفة ، ثم البيت بعد أن هبط السلم ، لقد أدرك انها المرة الأخيرة التي يزور بها العجوز المتصابية ، ان هذا النوع من الحب المصلحي ، وان عمر فلن يعمر طويلاً . يخيل للقارىء ان بهذا القول لسان حال الاثنين معاً .

انتهت

المهزلة الانسانية

للروائي الفرنسي الكبير : بلزاك

ست وتسعون قصة متباينة الألوان والأحجام والأساليب، تضم نحو ألفي شخصية من مختلف الطبقات والمهن والأعمار والأجناس ، وتمتد في المكان من المدينة بأحيائها الراقية والفقيرة إلى الريف بقراه الكبيرة والصغيرة .. وتعرض صراع الناس مع الناس ، وتفاعل الفرد مع المجتمع ، وتحلل العواطف ، وتتعمق النفوس ، وتصور الحقائق الخفية تحت المظاهر الخالبة، وتمخر بالقارىء خضم الحياة المضطرب المائج .. تلك هي « المهزلة الانسانية » التي أودعها « بلزاك » فلسفته وفنه وخلاصة خبرته وتفكيره ، الأثر الجليل الخالد الذي استنفد ملكات أديب عالمي .

التاجر والموظف والفلاح والطبيب والصحفي ورجل المال والقاضي والوزير ، الطفل والصبي والفتى والكهل والشيخ ،

والعذراء الغريرة والعانس الحاقدة والأم الفاضلةوالزوجة الشقية والمرأة اللعوب ، كل أولئك يتعاقبون على مسرح الانسانية الشاسع الارجاء،يتبادلون الأطماع والأهواء والاحن والخطوب، يفجأ بعضهم بعضاً بالخيانة والغدر ، ويضحي بعضهم لبعض بالحب والسعادة ، ونشهدهم في بيوتهم وشوارعهم ومنتدياتهم ومحال أعمالهم ، كأنهم جميعاً في ساحة قتال رهيبة ، يدبرون فيما بينهم حواراً مضحكاً محزناً ، ولا يكف امرؤ منهم عن الكر أو الفر حتى يلفظ أنفاسه ويخلي الميدان ، وحتى يسدل الكاتب على مأساته الستار الاخير .

وقد أطلق بلزاك على هذه المجموعة من القصص التي أراد أن يتعقب فيها آثام عصره عنوان « المهزلة الانسانية» معارضاً الملحمة الشهيرة التي تعقب فيها « دانتي » آثام عصره ولكنه اتخذ مسرحها من الفردوس والجحيم وسماها « المهزلة الالهية».

وقسم بلزاك قصص مهزلته الانسانية ثلاثة اقسام : دراسات أخلاقية ، ودراسات فلسفية ، ودراسات تحليلية ، أكبرها القسم الاول الذي يتفرع الى : » مشاهد من الحياة الخاصة » و « مشاهد من الحياة في الأقليم » و « مشاهد من الحياة الباريسية » و « مشاهد من الحياة السياسية » و مشاهد من الحياة الريفية »

والحق أن هذه الاقسام ليست الا واجهة رائعة تخفي وراءها بنيانا سيء التنظيم ، واطاراً متكلفا اصطنعه الكاتب

بعد لاى ليوحي للقارىء ان هناك وحدة جامعة تربط بين قصصه المختلفة.. فأين التناسب بين أجزاء هذا الديوان الضخم والقسم الأول منه يشمل عشرات من الكتب ، على حين لا يشمل القسم الثالث الا كتابين اثنين ؟ وما هذا التصنيف الذي يحدد الحياة بحدود ، ثم يميز بين أشياء هي في الواقع شيء واحد يستغرق بعضه بعضاً: كالحياة الخاصة والحياة فيالاقاليم ، أو الحياة في الاقاليم والحياة في الريف ، أو الحياة الباريسية والحياة السياسية ؟ لا هو بالتصنيف الجامع ولا هو بالتصنيف المانع . والعلة في ذلك القصور أن المنية عاجلت بلزاك قبل أن يتم عمله من ناحية ، وأنه من ناحية أخرى كان قد أنشأ كثيراً من قصصه ونشرها مستقلة متفرقة قبل أن تخظر له فكرة جمعها وتنسيقها تحت عنوان « المهزلة الانسانية » .

على أن المهزلة الأنسانية وحدة عميقة أصيلة تزري حكمتها بالرابطة الخارجية التي يجهد في خلقها اطار ملفق . تنبعث هذه الوحدة من مبدأ مقارنة الانسان في مجتمعه بالحيوان في مملكته ، هو رأي طريف كان موضع جدل العلماء في القرن التاسع عشر . وقد جهز بلزاك في مقدمته بأنه آت بما لم يستطعه « ولتر سكوت » ، فهذا الكاتب الاسكتلندي قد رسم لوحات مختلفة لعصور تاريخية مختلفة لا تصـــل بعضها ببعض صلة فنية تجعل منها أثراً واحداً .. أما هو – صاحب المهزلة الانسانية – فقد أثر ألا يقتبس موضوعاته من التاريخ وعصوره الشتيته ، بل عمد الى عصره ، فأحال بصره في

مناطقه وأقاليمه هنا وهناك ، وسجل ظواهره وبواطنه في مشاهد متسلسلة متناسقة . اذن فالمهزلة الانسانية صورة مصغرة للمجتمع الانساني يقدم فيها الكاتب للقارىء أمثلة من كل نوع ومن كل فصيلة ومن كل بيئة ، ولا يقف في عمله عند العرض والوصف ، بل يمضي الى التحليل والتعليل ، يرد النتائج الى الأسباب ، ويصدر حكماً اخلاقياً على الأشخاص يبين الى أي حد يتفق سلوك أولئك وهؤلاء مع المبادىء المقدرة التي ينبغي أن تدير دفة الكون .

أبطال مشتركون .. في قصص متعددة !

وثمة وحدة أخرى ، عميقة أصيلة أيضاً ، تحكم الصلة بين اجزاء هذا البنيان المرصوصة . تلك هي بدعة ظهور الابطال القدامى في القصص الجديدة . وقد طرب بلزاك حين أشرق في ذهنه ذلك الخاطر ذات صباح جميل من سنة ١٨٣٣ ، كما تروى أخته «لور» ، فقد دخل عليها منتشيا بابتكاره، متهللاً، يصبح بها :

– هنئيني ! فسوف أكون رجلاً عبقرياً !

ومن المحقق أن هذه الفكرة لم تكن جديدة على بلزاك سنة ١٨٣٣ ، لأنه استخدمها استخداماً بدائياً ، دون أن يعي مبلغ خصبها ، في محاولاته القصصية الأولى ، وهو يستخدمها في «المهزلة الأنسانية» استخداماً جديداً ، رائعاً، بعيد الأثر.. لقد فطن الى ما تبعثه في نفوس القراء من قوة الشعور بحياة

القصة وقوة الايمان بصدق وقائعها عودة شخص بعينه سبق لهم أن عرفوه وألفوه وشاطروه بؤسه وسعده وصحبوه طوال طور من أطواره في معترك الحياة . ان مثل هذا الشخص غني باسمه ، غني بصورته ، غني بماضيه ،يضيف الى حوادث الرواية ومعانيها ثروة غزيرة ، وما يكاد يبدو ، ويلقي كلمة من كلماته ، أو يأتي بحركة من حركاته ، حتى تستيقظ ذكرياتنا ، ويشتد انتباهنا ، ويتضاعف شغفنا بمدار القصة ، إذ أننا نشترك في تمثيلها من تلقاء أنفسنا بقدر ما نعرف من شخصية صاحبنا ومسلكه مع الناس ومواقفه في الازمات وأهدافه التي يسعى اليها دائماً . وهكذا يصبح أبطال المهزلة الانسانية ملكاً لنا وملكاً للكاتب معاً ، وتصبح حياتهم الخيالية حياة حقيقية تمتد إلى أبعد من صفحات كتاب واحد وإلى أبعد من غلاف مجلد واحد . ولهؤلاء الاشخاص سجل مفصل جامع ، صنفت فيه أسماؤهم بترتيب الحروف الأبجدية ، وذكرت أمام كل اسم عناوين القصص التي يظهر فيها وترجمة موجزة ، وقد قام بوضع « فهرس المهزلة الانسانية » هذا باحثان بلزاكيان هما « سرفيير » و « كريستوف » ليكون مرجعاً لطلاب أدب بلزاك . وأعاد الاديب « فيلسيان مارتو » هذا التصنيف أخيراً في صورة حديثة .

المال ... آفة المجتمع

ولعل في عنوان « المهزلة الانسانية » ما يوحي للقارىء بأن

بلزاك قد أراد أن يصور المجتمع في ديوانه بريشة الناقد. وأول ما راع بلزاك وأثار سخطه هو سلطان المال . فالمال يستطيع كل شيء . انه آفة المجتمع ، يخلق المساواة بين بني آدم ويهدمها في آن واحد ، يسوي بين من امتلأت به خزائنهم ويهدم المساواة منذ أن يملأ هذه الخزائن فيمنح أصحابها حقوقاً وامتيازات جائرة ! له هيكل في كل شبر من الأرض، وله كهنة وعباد . ولكن طقوسه هي الفوضى بعينها ، فهو نزق متقلب، تجلبه المصادفة وتقصيه المصادمة ، ولا أدل على ذلك من خضوعه لسعد المقامرين ونحسهم . والجميع قد أفردوا له مكان الصدارة فتبوأها متغطرساً غاشماً . هو في مخادع الأمراء ، ومكاتب الوزراء ، ونوادي الطبقة الراقية ، كما هو على موائد متوسطي الحال وفي أزقة الأحياء الحقيرة ، يأمر وينهي فاذا أمره نافذ ونهيه مطاع ، وإذا النفوس خاشعة لعبثه وهزله !

ها هوذا «دي تييه» قد بدأ وهو موظف صغير لدى تاجر الروائح العطرية « بيروتو » بسرقة بعض الأوراق المالية ، فلما كشف أمره رب العمل الطيب القلب وأنبه ثم عفا عنه حقد على ولي نعمته هذا .. ثم أصبح من أصحاب الملايين ، وتقول زوجته : « ان اغتيال الناس على قارعة الطريق يبدو لي ضرباً من الإحسان إذا ما قورن ببعض العمليات المالية ! »

وها هو ذا المرابي اليهودي الرهيب « جوبسيك » ، بعد شباب حافل بالمغامرات والصفقات والكسب الحلال والحرام ،

قد كز جسمه وجف قلبه ، وبات غير ذي عاطفة ، لا يشعر ولا يحس ، وانما يعيش لينعم بسلطان المال ويتلذذ بازدراء البشر ، فانه فيلسوف ساخر يحدثك في برود عن عبر الحياة ، ويصفه بلزاك في غرفته النظيفة الساكنة ينتظر المكروبين من الخلق لكي يقرر مصائرهم كما يريد ، ثم يصف أولئك الضحايا قائلاً : « وأحياناً كان ضحاياه يكثرون من الصياح ويحتدون ، وبعد ذلك مباشرة يرين صمت شامل ، كما في مطبخ يذبح المرء فيه فرخاً من البط ! »

وها هو ذا « ريجو » مرابي القرية ، رجل طويل القامة ، أسود الجفنين ، ينافق ويتمسكن ويبدي الفقر ، على حين يحظى في بيته بأشهى الطعام والشراب ، ويأكل وحده ، وتقوم على خدمته زوجه التي يعرف كيف يروعها بتقطيب حاجبيه الغليظين .. وخادمه الجميلة التي لا يستبقيها لديه أطول من ثلاث سنوات ، متعللاً دائماً في نهاية هذا الأمد بأنه مضطر الى طردها لوقاحتها مع سيدتها ، وليته كان يكتفي بخادماته الجميلات دون نساء القرية المستضعفات ..

وها هو ذا السيد « جرانديه » ، أشـــد البخلاء شحاً وتقتيراً قد أثرى من صناعة البراميل وأصبح عمدة بلدته ، فاستغل نفوذ منصبه في تحسين أملاكه ، وانك لتحس في حضرته خليطاً من مشاعر الاعجاب والتقدير والرهبة ، فقد كانت خليقته مزاجاً من طبائع النمر والثعبان ، إذ يعرف أين

يكمن لفريسته وكيف يتربص لها ويواجهها طويلاً ثم ينقض عليها فاغراً كيسه ولا يتركها حتى يتخمه بالنقود ، فإذا فرغ من فعلته نام نوم الأفعى التي تصطنـــع السكون والجمود في انتظار الفريسة الجديدة، ويوقن أهل قريته أن له مخبأ زاخراً بالدنانير الذهبية يقضي فيه كلما أوى إليه تلك اللذة التي تملك نفس البخيل حـــين ينظر ويطيل النظر الى كومة ضخمة من الذهب البراق ، تلك اللذة التي خلع ادمانها على عينيه لحظ الرجل الشهواني ، النهـــم ، المتكتم ، الذي يختلس النظر اختلاساً ، ويأكل بمقلتيه !

اشهر الوصوليين في قصص بلزاك

والجميع يجرون وراء المال ويتعلقون بأسبابه . وأشهر الوصوليين في المهزلة الانسانية الفتى « راستنياك » الذي نشأ في أسرة متوسطة الحـــال ونزح الى باريس ليدرس الحقوق فرأى هناك زينة الحياة الدنيا ، ورأى استحالة الجمع بين الشرف والترف ، وعانى ضميره كثيراً قبل أن يستسلم لتأثير « فوتران » ويطبق دروسه . وليس فوتران أستاذاً ولا عالماً، وإنما هو مجرم متنكر هارب من الاشغال الشاقة ، حاقد على المجتمع ، رجل ثاقب البصيرة ينفذ الى قلوب الناس كما ينفذ الى خزائنهم، ويشبه باريس بغابة يتصارع فيها صراع الحيوان أهل الحضارة الحديثة الذين يموهون الاطماع الوحشية بطلاء من النفاق !.. ومبدأ « فوتران » في الحياة الا مبدأ في الحياة ،

وقانونه الا قانون هناك، وإنما هي ظروف ليس غير، والرجل القوي هو الذي يوجه الظروف الى ما يشاء !

ولو قد كان المال سيد جيوبنا فحسب لهان الأمر، ولكنه في «المهزلة الانسانية» سيد الرأي العام وسيد الأمة . في قصة « الأوهام الضائعة » — ولا سيا في الجزء الذي يحمل عنوان « رجل من كبار رجال الأقاليم في باريس » — يهاجم بلزاك الصحافة هجوماً عنيفاً . وبطل هذه القصة فتى من اقليم (انجوليم) يدعى « لوسيان دى روباميري » ، أعجبت بمواهبه سيدة عريقة النسب فشجعته واصطحبته الى باريس ، حيث لم تلبث أن تخلت عنه وتركته وشأنه ، فاتصل بزمرة منالصحفيين، ولمس كيف ترتعد الحكومة مما تنشره أوراقهم، وكيف يفرق الكبار من القلم الذي يذكر فضائحهم ، وكيف يربح الكاتب الذي يبيع مقاله اليوم لزيد وغدا لعمرو وبعد غد لمن يدفع أكثر من زيد وأكثر من عمرو ! هؤلاء الصحفيون عند بلزاك هتافة مروجون أو نقاد مغرضون،يعيشون مما يدره عليهم المدح والهجاء . لا أمانة ولا وفاء ، فالعبارات والمقالات سلع متفاوتة الأسعار، وهي لا تساوي — ما دامت تنشر اليوم وتنسى غداً — الا الدراهم القليلة أو الكثيرة التي تفيؤها على كاتبها ! ويلبي لوسيان ذلك الاغراء ، فيندفع الى محيط الصحافة ، وينجح نجاحاً كبيراً ، ثم يضطرب ويترنح، وينتهي إلى البؤس . والصفحات الأخيرة من القصة تصوره لنا في الليل ينظم — الى جواره صاحبته الممثلة « كارولى » وهي

على فراش الموت – أغنية مرحة ينبغي أن يبيعها إذا أسفر الصبح ليسدد بثمنها نفقات الدفن !

الحب – كالمال – من آفات المجتمع !

ولا يعدل سلطان المال في المجتمع إلا سلطان الحب . وقد أبدع بلزاك في تصوير الحب حين ينشأ في القلب ، وحين يشتد ، وحين يؤدي الى المآسي الانسانية . فالحب كالمال مصدر من مصادر الفوضى في المجتمع . عماده الاثرة التي تفصل الفرد عن المجموع ، فيعتزل في دنياه الخاصة ، ويزهد في تحقيق المصلحة العامة . أرأيت الى « فيليكس » في قصة « زنبقة الوادي » كيف انصرف الى احضان « هنريت » عن محنة وطنه – وما كان اقساها في واقعة « ووترلو » وسقوط دولة نابليون ؟ – والحب يؤلب الابناء على آبائهم ، ويؤلب الآباء على ابنائهم ، ويوغر الصدور ويمزق الاواصر ويفصم العرى . وقد تجمد انسانية الانسان من فرط الطمع أو من فرط البخل، ولكن الطمع والبخل خير من الحب ، إذ يبقيان في نفس المرء على قوة تنفع المجتمع ، هي قوة الارادة التي يخدرها الغرام ويؤرجحها الهوى وتقضي عليها الشهوة !

وكثيرة قصص بلزاك التي تعرض علينا عواقب الحب الوخيمة ... حسبنا ان نذكر هنا حكاية « مدام جراسلان »، وهي فتاة نقية النفس رقيقة الشعور ، نشأت في كنف أبيها

الذي بدأ حياته فقيراً ثم أثري من تجارة الحديد والنحاس في احدى مدن الاقاليم . وكانت اجمل مثال للطهارة حتى قرأت قصة « بول وفرجيني » التي كشفت لها الدنيا وصورت لهـــا الحب وأثرت في قلبها تأثيراً رهيباً . وحين بلغت سن الزواج زوجها أبوها بالسيد جراسلان ، وهو رجل في السابعة والاربعين من العمر ، بدأ حياته فقيراً أيضاً ثم جاهـــد حتى أصبح من رجال المال . وأقبلت العروس الفتاة على العلم والثقافة لكي تتبوأ المكان اللائق بها في المجتمع . وسرعان مـــا أمسى صالونها قبلة أعيان المدينة ! ولكن زوجها سئم حياة الترف ، وهاجت بنفسه شهوة الكسب ، فجردها من زينة الحياة وعاد الى أعماله . وفي تلك السنة وقعت جريمة هائلة ، فقد وجدوا الشيخ البخيل « بنجريه » – وهو ممن يدفنون ذهبهم في القدور ! – صريعاً بجوار جثـــة خادمته ، وأتهم بالسرقة والقتل عامل فقير معروف بالجد والامانة يدعى « تاشيرون » وانقسمت المدينة الى حزبين : حزب يدافع عن تاشيرون ، وحزب يدينه . وبلغ حماسة مدام جراسلان لبراءة تاشيرون ان توسلت إلى النائب العام – وكان يتودد اليها – كي يعدل عن اثبات الجريمة عليه ، لكنها لم تفلح في وساطتها . وبعد عشر سنين من اعدام تاشيرون تعترف مدام جراسلان «لقسيس القرية » بان أباها عهد اليها وهو على فراش الموت بتربية هذا الفتى الفقير الذي كان يتوسم فيه الذكاء والرجولة ، فأهتمت بأمره ، وشجعته على أن يتثقف كما تثقفت هي ، فأصبح أقرب

إلى نفسها من زوجها الجشع المادي ، وعرفت معه السعادة ، ولما تركها ذلك الزوج دون مال ، عز على تاشيرون أن يراها معوزة ، فأراد أن ينهب لها ذهب البخيل ، ولكن الرجل أستيقظ وخادمته ، فقتلهما . أما هي فاضطرت الى أن تصمت من أجل الولد الذي كانت تنتظره ، وكان تاشيرون أباه وهكذا دفعت الى المقصلة بالفتى الذي وكل اليها مصيره .

ولكن من عساه يحمي المجتمع من طغيان المال وفوضى العاطفة ؟ أهي الحكومة؟ أن رجال السياسة في المهزلة الانسانية – وعلى رأسهم رئيس الوزارة « دي مارسيه » – قوم لا أخلاق لهم ، يستبيحون كل شيء ويبررون الوسيلة بالغاية . وهناك قصة طريفة ينقد فيها بلزاك نظام الادارة و « الروتين » الحكومي ، عنوانها « الموظفون » . ومثل الحكومة عند بلزاك كمثل الصحافة ، فالصحافة عدة هائلة يحركها كتاب صغار ممن يستثمرون المنافع والاهواء ، ومكاتب الحكومة سلطة عملاقية يحركها أقزام ضئال . جميع الموظفين يسعون إلى شيء واحد ، هو « التقرير » . فالتقرير سيدهم ومولاهم . اذا أتم « التقرير » عرض مسألة من المسائل ، فرح الموظف الذي ديجه ، وأغتبط الموظف الذي تسلمه ، ورضي الموظف الذي حفظه بين الأوراق المحفوظة ، وأنشرح صدر الحكومة ! وهكذا تتكدس مشروعات الاصلاح في الاضابير ! هل أتاك حديث « رادوردان » رئيس القلم باحدى الوزارات ، كيف درس فساد الادارة وكتب مذكرة بين فيها الفائدة العامة التي

تنتج من اختزال عدد الموظفين ورفع مرتباتهم وتعيين الشباب منهم في المناصب العليا ؟ هذا المشروع النافع كان خليقاً بان يصادف قبولا لدى الهيئات العليا لولا حرص واضعه على النزاهة وحرص زوجته على الفضيلة وحرص شرذمته من الطفيليات على التحالف ضده دفاعاً عن مصالحهم الشخصية !

تضافر الضعفاء قد يهزم الاقوياء !

هكذا صور بلزاك المجتمع في « المهزلة الانسانية » . لقد نظر إلى الدنيا فرأى حقيقتين رئيسيتين تتشعب منهما وقائع الحياة : انعدام المساواة بين الكائنات المختلفة ، وسعي الكائنات جميعاً الى الارتقاء . ففي مملكة الناس – كما في مملكة الحيوان أو النبات – سلم من الطبقات ، أدناه الأضعف وأعلاه الأقوى وبين الأضعف والأقوى في مملكة الناس درجات متتابعة ، فصائل كثيرة وأنواع كثيرة ، كتلك الفصائل والأنواع التي تمتد من دود الأرض إلى الفيل والأسد . أو من العشب الطفيلي إلى الدوحة العظيمة ! وبين هذه الكائنات المتتابعة صراع دائم القوي يسحق الضعيف ، والكبير يلتهم الصغير . بيد أن قوة الأقوياء لا تكفل سيادتهم ، كما أن ضعف الضعفاء لا يحتم هلاكهم . فقد يتضافر الضعفاء ويتساندون فيهزمون القوي أحياناً ، وقد يظهر مكر الجبناء على بأس الأشداء أحياناً ، ذلك أن مملكة الكائنات من أسفلها الى أعلاها مضطربة مائجة تتحرك حركة صعودية ، حركة الى فوق ، يريد المنحط أن

يرتفع ، ويريد الجائع ان يشبـع ، ويطمح الجميـع إلى مزيد من الحياة !

وربما بدت الفوارق التي تفصل بين الناس والناس أهون من الفوارق التي تفصل بين العصفور الرقيق والنسر الجارح ، وبين الحشرة الطفيلية والأسد المصور ، ولكنها في الواقـع أشد خطراً لأنها ليست فوارق مادية فحسب ، بل فوارق نفسية دقيقة ، والقوى النفسية بألوانها العديدة أبعد أثراً في تميز الخلائق . ومن هنا كانت حركة ارتقاء الكائنات في دنيـا البشر أسرع وأروع منها في دنيا الحيوان . فالانسان خليق بان يثب في مجتمعه وثبات يعجز الحيوان عن أن يقطع مثـل بونها عبر آلاف من الآجيال .

الصراع الدائم بين الفرد والمجتمع !

على أن وجود المجتمع يتدخل في هذا الصراع المتصل بين الكائنات فيزيده تشابكاً وتعقيداً . هذا الكفاح الذي يبدو عنيفاً في دولة الحيوان على حين أنه أعنف في دولة الناس،نراه يشتد عنفاً كلما أرتقى المجتمع وتحضر . ففي المدائن الكبيرة يستطيع الكائن الانساني أن يصل الى درجات هائلة من الألم ومن اللذة أيضاً .. غير أن اللذة اذا تجاوزت حداً معلومـاً أصبحت افراطاً وبالتالي مصدر اختلال داخلي يؤدي الى العناء ومن ناحية أخرى يضاعف المجتمع هذا الصراع اذ يضيف اليه صراعاً جديداً ، أكبر ميداناً ، هو الصراع القائم بين الكائن

الفرد الذي هو الانسان والكائن المشترك الذي هو المجتمع . فالمجتمع بدوره يناضل للاحتفاظ بكيانه ، ويفرض على اولئك الذين يؤلفونه شرائع معينة، ما هي الا عقبات جديدة تعترض سبيلهم الى أطماعهم ، وصدمات جديدة تضاف الى صدماتهم، وآلام جديدة تثقل من آلامهم ...

واذا كانت تلك المبادىء هي التي يراها بلزاك أساساً للحياة الطبيعية ، فما موقفه ازاء مشكلة الانسانية الكبرى ، مشكلة الفرد والمجتمع ؟ انه يحمل على المدنية والحضارة ، ولا يكاد يكتم دعوته الى الثورة والفوضى . أعظم أبطاله هم الخارجون على القانون – ويمثلهم «فوترن» – ثم الوصوليون الذين يلتوون في سيرهم مع القانون ، ويمثلهم « راستنياك » . والى جانب هؤلاء وهؤلاء يحتشد الضحايا، أبطال البؤس والشقاء : «المرأة المهجورة» التي لا ينال أثمها من عطفنا عليها ، و « المرأة التي في الثلاثين من عمرهـا » بهفوتها الكبيرة التي تستدر رأفتنا ، والمرأة التي تأبى أن تنغمس في الخطيئة فيعاقبها المجتمع كما عاقب « الدوقة دي لانجيه » . ولا يجد أبطال بلزاك السعادة ولا امتياز في خضوعها للتقاليد وامتثالهم لنظم المجتمع ، وانما يسعد السعداء منهم ويمتاز الممتازون منهم حين يقلبون الاوضاع ويتجاوزون الحدود ويقهرون الواقع ويغتصبون من المجتمع ما يريدون ! وأما الضعفاء فتنوء بهم أثقالهم ، وقد يلوذون بالموت من عناء الحياة! ومن الحق أن «طبيب الريف» قد شذ عن سواه في أبطـال المهزلة الانسانية فوجد توازن

قواه وامتياز شخصيته في اتباع شرائع المجتمع وفعل الخير والسير بالناس في ركب الحضارة ، ولكنه حالة فردية في قصص بلزاك، فضلاً عن أنه لم يصب ما كان ينشد من سعادة، فقد كان قلباً جريحاً .. أي ضحية من ضحايا الحياة .

نساء «بلزاك» الفاضلات أكثر من الآثمات ..

يا لها من صورة قاتمة ! لقد أثارت هذه النظرة السوداء الى الأنسانية سخط كثير من معاصرى بلزاك ، فرد عليهم باحصاء كتبه وابطاله ، محاولاً أن يثبت أن كتبه التي تذيع الخير تربو على كتبه التي تذيع الشر ، وأن عدد نسائه الفاضلات يفوق عدد نسائه الآثمات ، ولكن مثل هذا الدفاع لا يقنع قط من قرأ « المهزلة الأنسانية » ولمس ما تعرضه من فساد المجتمع .

وعلى الرغم من هذا كله كان بلزاك متفائلاً ، يعرف للانسان كرامته ويؤثر البناء على الهدم . ولذا تضاربت آراء النقاد في حقيقة أدبه ومعانيه وفي تحديد القيمة الاخلاقية للدروس التي يقدمها الى القراء . وقد ظلت فلسفة بلزاك الاجتماعية غامضة متناقصة معقدة في نظر من تناولوها من بعض أطرافها بالشرح والتأويل والتخريج، حتى توفر الباحث «برنار جويون» على دراستها نحو عشرين عاما ، ونشر فيها رسالته سنة ١٩٤٧ ، فجلاها وحللها الى عناصرها ، وأرخ أطوارها في حياة بلزاك وكتبه .

لاحظ الدكتور جويون تشاؤم بلزاك منذ صباه ، في جو الاسرة والمدرسة ، ثم في مكتب المحامي ، ثم في مشروعاته الفاشلة ، وعشرة صاحباته المسنات . ولاحظ مع ذلك ما كان يمتاز به من طبيعة قوية ، من أرادة حازمة ، ونشاط خصب ، وجلد عظيم ، وحب للحياة على اختلاف صورها . فهو من ناحية كان ينظر الى الحياة كما هي ، ويقدر الواقع حق قدره ، ومن ناحية أخرى كان يستمد لنفسه الحية غذاء من آراء الفلاسفة المتفائلين الذين ملأوا آخر القرن الثامن عشر في فرنسا أيماناً بوجوب تقدم الانسانية ، وبقدرة العقل على تحقيق هذا التقدم .. وغذاء آخر من آراء طائفة «السان سيمونيين» الذين حاولوا اصلاح المجتمع في أوائل القرن التاسع عشر . وحسم الاستاذ «جويون» ما يبدو من التناقض في أدب بلزاك بأن ميز في هذا الادب وجهتي النظر المختلفتين اللتين أنجبتاه : وجهة نظر القصاص الذي يريد أن يصور حقيقة الواقع ، ووجهة نظر المفكر الذي يريد أن يرسم مذهبه الاجتماعي والسياسي . فلا بد للأول من أن يقدم لنا لوحة صادقة لحياة الناس بما فيها من اضطراب وألم ، وظلم وشقاء.لا بد له في أن يتقمص أبطاله ويندفع معهم في البحث عن السعادة والارتباط بالعقبات الاجتماعية، ولا بد أن يخلق بيننا وبينهم التجاوب الوجـــداني التام فيتحمس لاطماعهم ويثور لثورتهم ويشاطرهم ألمهم ويتأثر لمصيرهم. ولا بد للثاني، وهو الفيلسوف الحريص على حياة المجتمع وكيانه ، من ان

يسعى الى حفظ التوازن بين مختلف القوى التي تسيطر على العالم ، فان في ذلك وحدة صيانة المجتمع من الفساد والعناء ، وضمان بقائه سليماً مرصوصاً متماسك الاركان . وما من شك في أن الفيلسوف كالقصاص يهتم بسعادة الافراد ، اذ أن حظنا من هذه السعادة لازم لصلاح أمر المجتمع ، ولكن السعادة الفردية ليست الهدف الرئيسي للناظر الى منفعة الجماعة . وهكذا نجد في المهزلة الانسانية ، مقابل الثورة والفوضى التي يعمد اليها الأشخاص ، سلطانا واستبداداً ونظاماً عاماً يكفل سلامة المجتمع ، ويقيه شر الانحلال .

ينبغي اذن أن تكون السلطة في يد واحدة ، يد قوية ، مطلقة النفوذ . وينبغي أن تتساند طبقات الأمة في أوضاعها الثابتة ، فلا سبيل الى المساواة بينها لأن الطبيعة قد فرضت التفاوت بين درجات مختلفة، وكل جهد يبذل في المجتمع للقضاء على تفاوت المراتب الطبيعي يؤدي – اذا نجح – الى فترة من الفوضى يتشكل أثناءها مجتمع جديد على أساس من فوارق جديدة . وللحاكم أن يدين « بالمكيافيلية » في سياسة الدولة فيردع التمرد بالارهاب ، وينزل الى قبول الامر الواقع الذي لا بد من قبوله ، ويمكر بالرأي العام في سبيل تحقيق الصالح العام .. ما أعظم نابليون ! اذن وما أحكمه !

خلاصة مذهب بلزاك الاجتماعي والسياسي

ولئن استحال خلاص الفرد خلاصا تاماً من الاضرار التي

يلحقها به وجود النظام الأجتماعي، فمن المستطاع تخفيف هذه الاضرار : ضعوا حداً لامتداد المدائن وطغيانها ، وامنعوا « كبار رجال الأقاليم» من الهجرة الى الحاضرة حيث يخيبون ويتلفون ، وأبقوا عليهم في اقاليمهم حيث ينتجون وينفعون البلاد .. ضعوا حدا لأغراء المجون وفتنة الترف ، وأصلحوا قوانين الزواج وأحسنوا تربية البنات ، كي تنتصر الفضيلة على الرذيلة ويستقر المجتمع . ثم .. هناك « الدين » ، وهو فوق هذا كله وسيلة من وسائل الحكم الصالح ، لأنه يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، فهو دافع أيجابي يحث العباد على فعل الخير والعمل على رقي الانسانية ، ووازع سلبي يوقف غلواء الاغنياء وبطش الاقوياء ، ويهدىء من نقمة الفقراء وثورة الضحايا .

ذلك هو مذهب بلزاك الاجتماعي والسياسي كما استخلصه الاستاذ جويون، وفيه نرى كيف ائتلفت الحزبية والاستبداد، وكيف تمشى التجديد مع التقليد ، وكيف اجتمع أصحاب اليسار وأصحاب اليمين صفاً واحداً . كان بلزاك ثائراً وكان محافظاً كان جمهورياً وكان ملكياً، فألب عليه جميع الاحزاب أثناء حياته ، وكسب ثناء جميع الأحزاب بعد وفاته !

بقي ان « المهزلة الانسانية » درس رهيب ، وان بلزاك رجل يدس السم في الدسم .. الى أي مدى يصح هذا الاتهام؟ ولماذا يحمل أنصار الأخلاق الفاضلة على بلزاك ؟ ألانه يصور

قبح المجتمع ولؤم النفوس ؟ لقد كان من الشجاعة والصراحة والجرأة بحيث قال كلمة الحق في أخلاق الناس ، وهاجم أصحاب المال وأصحاب النفوذ . وفي الحياة الخير والشر ، وبلزاك يدعو قارئه الى التفكير ويترك له حرية الاختيـار ! وكيف يقوم الفن السليم على غير أساس من تصوير الحقيقة ؟ لقد صور بلزاك حياتنا ، صور اضطرابها واختلاطها ، حلوها ومرها ، واصطراع القوى المختلفة في سبيل الارتقاء .

إنه كاتب صادق !

انتهت

ميكيل انجيلو

قصة حياة وكفاح الفنان الأعظم

تعريب هنري توماس

كان « ليوناردو دافنشي » مارا في ميدان « ديللا ترينيتا» بمدينة فلورنسا ، مزهواً بمظهره الأنيق وابتسامته الجذابة ، حين صادف جماعة من مواطنيه البارزين جالسين على مقعد من مقاعد الميدان يتناقشون في مقطوعة من شعر شاعرهم العظيم « دانتي » فلما رفع أحدهم بصره ورآه هتف بهم : « ايها السادة .. هذا هو الرجل الذي يستطيع أن يحسم مناقشتنا».

في تلك اللحظة ظهر في الجانب الآخر من الميدان شاب ينم وجهه ، بأنفه الافطس المكسور ، عما تنطوي عليه نفسه من ضغينة وحقد على الدنيا بأسرها ! .. كان شعره القصير المشعث يتدلى على جبهته في غير نظام ، وثيابه رثة مهملة ، وحذاؤه مغطى بطبقة من غبار الرخام ، ويداه خشنتين تعلق بأظافرهما آثار من معجون الطفل .. فأشار اليه ليوناردو وقال

لرفاقه : « هذا هو « ميكيل انجيلو » أيها السادة ..أنه خير من يشرح لكم شعر دانتي !

لكن انجيلو ، الذي كان دائماً مرهف الاحساس بالأهانات حمل قول ليوناردو على محمل التحدي المباشر ، فصاح به في سخرية : « بل فلتشرحه أنت لهم ! أنك قدير على كل شيء. أو لم تصنع نموذجاً لحصان ثم نبذت المهمة لأنك عجزت عن صبه في قالب من البرونز ؟

ومضى ميكيل انجيلو في طريقه بعد أن نفس بهذا الأنفجار عن حنقه المكبوت على حظه من الحياة .. فقد كان ما يزال شابا ، مغموراً نسبياً ، في حين كان ليوناردو — الذي يكبره بثلاثة وعشرين عاماً — محسوبا في عداد أساطين الفن في تلك الأيام .. ولم يكن يدور بخلد انجيلو يومئذ أنه سوف يتفوق على منافسه ، سواء في الثروة أو المجد !

رب ضارة نافعة !

كان أبوه — « لودوفيكو دي ليوناردو بيو ناروتي » — عمدة (كابريز) .. ونشأ الفتى في أسرة جميع أفرادها من الذكور ، فقد كان له أربعة اخوة ، ليست بينهم أنثى واحدة حتى أمه ماتت وهو بعد في السادسة من عمره . وكان الاب رغم نبل محتده فقيراً ، بلا عمل في أكثر الاوقات ، ومن ثم كان سيء الطبع عنيفاً في معاملة أولاده . وكان أخص ما يثير

غصبه قول ابنه « ميكيل انجلو » المتكرر أنه يريد أن يصبح « فنانا » !.. فقد اعتزم الأب أن لا يسمـــح لفرد من أسرة بيوناروتي باضاعة وقته في عمل « تافــه » كالرسم بالفرشاة أو النحت بالازميل ، وإنما ينبغي على أولاده الخمسة أن يشتغلوا بالتجارة وأعمال البنوك ، مثل أبناء أسرات فلورنسا الكبيرة وهكذا أخذ الأب ابنه الحالم بالشدة والصرامة ، محاولا ان يبث فيــه روحه « العملية » .. ولكن بلا جدوى ، فبرغم ضربه وتعنيفه إياه ، أصر ميكيل انجيلو على انه يريد أن يصير فناناً !.. وعندئذ أدخـــله ابوه ، مضطراً ، معهـــد « شرلانداجو » الفني .. ونفض يده منه يائساً !

وكان ميكيل وقتئذ لم يجاوز الثالثة عشرة من عمره ..

كان « شرلانداجو » في ذلك الحين يشتغل برسم جـدران كنيسة (سانتا ماريا) فعهد الى تلميذه الجديد « ميكيـل » بمهمة طحن مواد الالوان ونقل بعض الرسوم من نماذجها الدقيقة التي أعدها الاستاذ من قبل . فجاءت صور التلميـذ المنقولة أروع من الأصل ، الأمر الذي أثار غيرة « شرلانداجو » منه فأخذ يضايقه بكافة أساليب المضايقة الحقــيرة !.. وأحس التلميذ المرهف الاحساس بما يكنه أستاذه نحـــوه من شعور وضيع ، بعد ما قاساه من أبيه في المـاضي من تنغيص ، ففقد الفتى الناشىء تدريجاً ثقته في محبة البشر .. ولازمته هذه الريبة حتى آخر أيام حياته ..

وقد كان من حسن حظ ميكيل انجيلو في الواقع أن استاذه « شرلانداجو » قد نفره منه على هذه الصورة ، حتى انتهى به الامر الى التخلص منه باحالته الى زميله الاستاذ «برتولدو» .
وكان هذا شيخاً مسناً يتولى تعليم تلاميذه فن النحت على نماذج من آثار « حديقة مدتشي » القديمة التي كانت قد اكتشفت حديثاً .. وكان ذلك المكان بالنسبة الى ميكيل انجيلو بمثابة «جنة عدن» ؛ ففيه تعلم الفن الذي خلق الله يديه كي تمارساه .. وفيه قابل الرجل الذي قدمه الى عالم الثقافة والفن والموسيقى ، والشعر والجمال والدعابة .. وكل ما كانت روحه الشابة متعطشة اليه ..

فذات يوم ، فيما كان ميكيل انجيلو ينحت وجه شيخ مسن في حديقة « لورنزو دي ميدتشي » صادف ان كان لورنزو الشهير بلحمه ودمه يتنزه في الحديقة .. فوقف يتأمل التمثال الصغير برهة ، ثم التفت الى المثال الشاب قائلا : « يا ابني .. ألا تعلم ان الشيخ المتقدم في السن لا بد أن يكون قد فقد بعض أسنانه ؟ » وإذ ذاك تناول الشاب ازميله فكسر به احدى اسنان التمثال ثم التفت الى محدثه قائلا : « هكذا؟» فضحك لورنزو وقال : « نعم ، هكذا » .

الدنيا تقبل عليه ..

وأعجب لورنزو بالفتى الموهوب الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة ، فأخذه الى قصره حيث سمح له بالجلوس الى مائدته ،

واللعب مع أولاده ، وأهداه معطفاً بنفسجي اللون.. ثم أجرى عليه مرتبا شهريا قدره خمسون ريالا ، وفتح له عينيه على أمجاد العالم « الوثني » الذي يعيش فيه .. وهناك تذوق انجيلو الجمال وجرع الحكمة من شفاه أحكم الفلاسفة والشعراء والكتاب الذين كانوا يترددون على قصر « مديتشي » من شتى اركان الأرض .. وحول مائدة مديتشي – مركز حضارة العصر – كان « ابوللو » رب الشعراء و « أفلاطون » نبي المعرفة، محور أحاديث السامرين . وفي ظل هذا التأثير الوثني وجد انجيلو التشجيع الذي أغراه على انتاج عمله الفني الأول ، وهو لوحة بارزة تمثل معركة بين البشر والحيوان ، ويتجلى فيها جمال الأجسام العارية على النمط الأغريقي ..

وذات يوم دهمت انجيلو الكارثة التي خلفت أثراً في نفسيته وحياته طيلة عمره بعد ذلك .. فقد بدرت منه كلمة انتقاد لفن زميل له من تلاميذ المعهد يدعى « توريجيانو »، وكان هذا فتى سريع الغضب قوي البنية، فلكمه بقبضته لكمة كسرت عظام أنفه وشقت لحمه ، فأغمي على انجيلو من قوة الصدمة وحمل الى بيته وقد حسبه القوم ميتاً .. وحين التأم الجرح نظر الشاب الى وجهه في المرآة فرأى آثار الندبة تشوه معالمه ومنذ ذلك التاريخ انطوى على نفسه ، وبدأ ينظر الى الجنس البشري كله بسخط كامن .. ولم يشف قط تماماً من تأثير ذلك التشويه الجثماني والنفساني الذي أصابه !

في تلك الفترة بلغت مسامع انجيلو دعوة المصلح الديـني والسياسي « سافونا رولا » ، الذي حمـــل على الفساد الوثني والوحشية التي يمارسها حكام المدينة السريين ، فكان لتلك الصيحة أثر بالغ في نفسية الفنان الشاب المرهف الاحساس في أن يتبعه فيهجر فنه ودنياه بأسرها وينزوي بدوره في أحد الأديرة !.. فلقد نشب في أعماقه صراع عنيف بين الالحاد والدين ، بين الجمال والواجب، بين مبادىء العالم القديم والمثل العليا للعالم الجديد .. لكن الصراع لم يلبث أن خمد بعد حين واستطاع انجيلو – لحسن حظ الفن والانسانية – أن يوفق بين النقيضين ، ويسخر فنه لخدمة المسيحية والوثنية في آن واحد ، أو (يزوجهما) على حد تعبيره ، ويوحد بين قداسة الجمال وجمال القداسة !. وقد أسبغ عليه هذا التوفيق سكينة نفسية ، وصار المبدأ المسيطر على جميع آياته وروائعــه في مستقبل حياته ..

في تلك الأثناء مات (لورنزو) حاكم المدينة ، وراعي الفن والفنانين – وفي مقدمتهم انجيلو – فتلت ذلـك فترة اضطراب سياسي ، إذ استطاع (سافونا رولا) أن يؤلب الجمهور ضد طيش واستهتار (بييرو دي مديتشي) ابن لورنزو ولم تلبث جيوش شارل ملك فرنسا أن زحفت في اتجاه المدينة ... وقام نفر من المتعصبين للدين باتلاف الكثـير من الصور والتماثيل الجميلة في مختلف أنحاء فلورنسا .. فتراكم في الشوارع

حطام كنوز الفن المدخرة طيلة قرون !. وأمام هذه العاصفة، أضطر الشاب إلى أن يفر من المدينة !

الغيرة والحسد .. يطاردانه !

ولجأ أول ما لجأ الى بلدة (بولونيا) ، حيث عهد اليه المشرفون على كنيستها بصنع تمثال على صورة (ملاك) يمثل الوحدة بين العالم القديم والعالم الجديد .. ولكن، مرة أخرى طاردت انجيلو قوى الحسد والغيرة من جانب زملائه الفنانين ذوي النفسيات الوضيعة ، الذين رأوا فيه منافساً متفوقاً يخشى خطره .. فاضطر الشاب تحت ضغط هذه المطاردة الفنية أن يهجر بولونيا ويعود الى فلورنسا . لكنه لم يمكث في مسقط رأسه غير فترة قصيرة ، شد بعدها رحاله قاصداً الى روما ، كي يبحث فيها عن حظه الضائع . ولم يكن قد جاوز الواحدة والعشرين حين وضع قدمه في مدينة الفاتيكان ذات الماضي العريق.

لكن حراس الايمان وسدنةالدين كانوا قد خانوا رسالتهم، فحين وصل ميكيل أنجيلو – سنة ١٤٩٦ –وجد روما مدينة للهو ، والموسيقى ، والجريمة !.. للعلم ، والجمال ، والفساد ، وزنزانات السجون الكريهة !.. للتدين في بيوت الفقراء ، والشهوة في بيوت الأغنياء..

ومن ثم عاش « انجيلو » عامين أشبه بالغريب عن هذا الوسط ، أو النغم الناشز عن الدنيا كلها !.. كان لسان حاله

يقول : « ليس لي أصدقاء .. ولست بحاجة الى أصدقاء .. ولن يكون لي أصدقاء ! »

لكنه بعد انقضاء عامين لمس اعترافاً بفنه ، حتى في مدينة الأنانية المتوحشة والتنافس الذي لا يرحم ، واشترك في مسابقة لصنع تمثال للمسيح والعذراء كي يوضع في كنيسة القديس بطرس فكتب في مواصفات المشروع : « سوف يكون التمثال أروع مما يستطيع أن يصنع أي فنان معاصر ! »

وكان هو الرابح في المناقصة ، فأسندت اليه المهمة ، وصنع التمثال .. وهرع أهل روما لمشاهدته ، فرأوا المسيح الميت راقداً في حجر امرأة رائعة الجمال ، تصغره في السن بكثير ! وأعجب النظارة بالعمل الفني ، لكنهم دهشوا وسألوا المثال الشاب : لماذا جعل الأم أصغر سناً من الابن ؟.. فأجابهم انجيلو : ألا تعلمون أن أية امرأة طاهرة تحتفظ بشبابها اعواماً طويلة ، أكثر من سواها ؟ فكم بالاحرى تحتفظ بشبابها العذراء مريم ، التي لم تستسلم يوماً لشهوات البشر ، المحللة والمحرمة على السواء ؟! »

التمثال .. العملاق !

وقد ظل انجيلو طيلة حياته ينحت الصور والتماثيل لا وفقاً لمعتقدات العصر ، بل وفقاً لفلسفته الخاصة. وكان من أوائل الفنانين المحدثين الذين طبقوا علم النفس في الفن !..وحين فرغ من ذلك التمثال استسلم أول مرة لرذيلة الغرور ، فقضى ليلة

منفرداً بالتمثال داخل الكنيسة ، في غير حضور احد ، يحفر اسمه ومسقط رأسه على قاعدة هذا العمل الفني العظيم .وكانت المرة الاولى والاخيرة التي وقع فيها باسمه على عمل فـــني من صنعه !.. فمثل الاشجار والجبال التي تحمل طابـــع الطبيعة، كانت تحف ميكيل انجيلو وآياته في غنى عن أن يكتب عليها اسم خالقها !

وفي سن السادسة والعشرين عاد انجيلو الى فلورنسا ... وأثناء مروره بفناء الكاتدرائية الكبرى فيها رأى كتلة ضخمة من المرمر مهملة في مكانها منذ ست وأربعين سنة !.. فعرض على أولي الشأن أن يتيحوا له الفرصة كي يصنع منها شيئاً جميلاً . وقبل عرضه ، فبدأ العمل فيها يوم ٢ اغسطس سنة ١٥٠٢ .. وفي يناير سنة ١٥٠٤ كان تمثال الملك « داود » الضخم الشهير قد تم !

وأطلق الناس على التمثال : « العملاق » !.. وبلـــغ من شهرته أن صار الايطاليون يؤرخون الاحداث الهامة تبعاً له فيقولون : « في السنة الـــتي أقيم فيها العملاق » .. ومن يزور أكاديمية فلورنسا للفنون الجميلة اليوم يرى فيها هذا التمثال قائماً جبـــاراً ، بجسمه القوي الرياضي ، ورأسه الصغير ، وخصره النحيل ، وذراعيه النحيلتين ، ويديه القويتين اللتـــين تبرز أوردتها الدموية للعيان .. وبيده اليسرى يتناول « المقلاع » من على كتفه..وفي يده اليمنى يمسك بالحجر متأهباً لاطلاقه على

ىدوه الجبار « جوليات » !.. على أن أجمل ما في التمثال هو
جهه الذي ترتسم فيه سمات الرجولة الكاملة ،والعزم الراسخ،
الاحتقار للأعداء .. التي كانت سمات انجيلو نفسه ، فقد
انت لكل من « فنان فلورنسا » و « منشد المزامير » نفسية
احدة : نفسية الفنان والمحارب في آن واحد !

وأعادت شهرة « العملاق » صانعه الى روما ، حيث كان
بابا « يوليوس الثاني » مشوقاً إلى أن يخلد ذكراه بقبر لم يشهد
مالم له مثيلاً ! ومن يصنع له هذا القبر العظيم غير انجيلو ؟..
هكذا استعان به على تحقيق حلمه ، فأعد الاثنان تصميماً
قبر الفاخر يتكون من أربعين حارساً – بحجم الانسان
طبيعي – يحيطون بجثمان البابا ، وكلهم يمثلون أعظم قديسي
الماضي وأبطاله وأنبيائه .

وسأل البابا انجيلو : « كم يتكلف هذا التمثال ؟»..فأجاب
فنان ، مغالياً في التقدير : « مائـــة الف ريال ! » .. وإذ
اك قال البابا : « وما قولك لو جعلناها مائتي الف ريال ؟»..
قبل أن يفيق انجيلو من ذهوله ، هتف به البابا وهو يصرفه:
لا تقف هكذا محملقاً أيها الشاب .. اذهب لتبدأ العمل!»

..والوشاية تتعقبه !

وسافر انجيلو الى (كارارا) حيث انتقى عشرات الاطنان
ن الرخام الفاخر . ولم تكد هذه الجبال المرمرية تصل الى فناء
كنيسة القديس بطرس حتى بدأ انجيلو العمل في صوغها وبعث

الحياة في مادتها الحجرية . ولكن ، هنا تدخل الحسد والغيرة لعرقلة جهود الفنان الناجح ، فسرعان ما بدأ البابا يتراخى في إمداد انجيلو بالمال المتفق عليه ! وظهر ان منافساً له يدعى « برامانت » أدخل في روع البابا ان اقامة القبر أثنـاء حياة صاحبه فأل سيء ، واقترح المتحدث أن يتولى هو تصميم العمل الجديـد فيعيد بناء كنيسة القديس بطرس بحيث تصبح تحفة للأجيال !

واقتنع البابا بكلام الواشي .. فلما ذهب انجيلو ليقبض قدراً من المال ، طلب منه الحراس أن يعود في الغد.. ولبثوا يكررون له الوعود الباطلة ويحولون بينه وبين مقابـلة البابا – بأمر من البابا ! – يوماً بعد يوم !.. حتى جابهه أحدهم مرة بقوله : « لدي أمر بمنعك من الدخول ! » .. فاستشاط انجيلو غضباً وصاح بمحدثـه : « إذن قل للبابا انه اذا أرادني في المستقبل فليحضر بنفسه إلي ! »

وكانت نتيجة ذلك انه اضطر الى الفرار من روما .. فعاد الى فلورنسا بقلب يثقله المزيد من سوء الظن بالانسانية . أحس انجيلو الان ان العالم بأسره يقف ضده! صار يحكم إغلاق مرسمه خشية أن يتسلل اليه أحد منافسيه فيسرق أفكاره ومشروعاته وبلغ من ارتيابه في مقاصد الناس أن صار يرتاب في نية خياطه إذا وجد في سترته عيباً ما ، فيخيل اليه ان الرجل قد فعلها متعمداً بغية إغاظته !.. وكلما جرح شخص إحساسه كان

، على نفسه ويعتصم بكبريائـــه ويأبى أن يدع أحداً
منه !
ستدعاه البابا مراراً وتكراراً، لكنه رفض الذهاب!..
، إليه من يبلغه ان البابا « يتوسل اليه » أن يذهب !..
ذه المرة قبل انجيلو أن يذهب لمقابلته ، ولكن على أن
في منتصف الطريق .. في بولونيا وليس في روما !
ال له البابا : « انك رجل غريب .. بدلاً من أن
لينا أنتظرت حتى جئنا اليك ! »
أن قداستك قد أسأت إلي أكبر الاساءة .
لكني سأمحوها .. أعدك بذلك .
ضع يده على رأس الفنان الراكع عند قدميه.. وباركه !
كن البابا كان ما يزال متشائماً من فكرة اعداد قبره أثناء
، فنبذها وكلف انجيلو بمهمة أخرى بدلا منها : أن
سقف كنيسة (سستين) بمقر الفاتيكان .. فأدى انجيلو
كأروع ما يكون الاداء . قضى أربع سنوات راقداً
ره طيلة النهار فوق محفة خشبية يرسم ويلون !.. وبلغ
باد عينيه وعضلات بصره لهذا الوضع أن ظل بعد ذلك
عاجزاً عن القراءة ما لم يضع الخطاب أو الكتاب الذي
راءته فوق رأسه ويرفع بصره اليه من أسفل !

الأنامل الخالقة !

ين أتم انجيلو رسم السقف الذي يحوي صور أثني عشر

رسولاً وقديساً ، ذهب البابا ليتفرج عليه .. فلاحظ ان ثياب الرسل الذين رسمت صورهم أولاً قد حليت بالذهب والتطريز ، بينما حذف ذلك من ثيـــاب الباقين وحين سأل انجيلو عن السبب أجاب بقوله : « في عصر هؤلاء الآخرين كان النـــاس فقراء وأمناء ، يملكون الايمان لكنهم لا يملكون الذهب ! »

ولئن كان قد قيل في وصف شكسبير ! : (أن الله قـد ضاعف الخليقة حين خلق شكسبير) .. فان هذا القول يصح أيضاً في وصف ميكيل انجيلو ، فان سقف كنيسة (سستين) انما هو الخليقة خلقت من جديد ! كيف لا وقد صور فيها انجيلو مراحل خلق الدنيا ، مرحلة بعد مرحلة : ففي البداية نرى ظلاماً ووحشية رهيبة . ثم تأتي اللحظة السابقة لمولد العالم ، وهي لحظة حافلة بعوامل الترقب والانتظار .. ثم نرى سحباً من الملائكة .. ثم يفصل الرسام النور عن الظلمة .. ثم يصور الشمس والقمر .. ويفصل الماء عن الأرض .. ويبعث الحياة في آدم بلمسة من أصبعه .. ويصوغ حواء من ضلع آدم ويضع أمامها أشجار الحديقة والفاكهة المحرمة ... ثم يرسل ملاكا ليطرد آدم وحواء من الجنة بسيفه الذي يشع منه اللهب. ويرسل طوفان غضبه على البشر الخطاة ... وحول هـــذه الصورة الوسطى للخليقة والدمار يجلس الانبياء والرسل والحواريون ينظرون ، ويفكرون ، ويؤملون ، ويصلون .. وقد انهمك كل في رسالة خاصة ، غايتها الوساطة بين الله والأنسانية .

ومات البابا يوليوس الثاني ، فطالب ورثته ميكيل انجيلو باتمام القبر الذي كان قد شرع في انشائه أثناء حياته .. ورغم ان تلك الايام كانت حافلة بالحروب والأوبئة التي تجتاح ايطاليا – بحيث كانت الأبنية تدمر ، والصور تحرق، والتماثيل البرونزية (ومنها بعض تماثيل انجيلو نفسه) تصهر في فوهات المدافع !– فان الفنان مضى في عمله، غير آبه بهذه المثبطات : وتتابع البابوات ، فانتخب كل منهم ، وحكم ، ثم مات ، والفنان ماض في مهمته !.. وتواترت عليه الأمراض ، وخيبة الأمل ، ودسائس الاعداء ، وأنامله التي بدعها الله كي تخلق الجمال ماضية في عملها الملهم !

واتهمه حساده بالكسل ، والأنانية ، بل وعدم الامانة، فزعموا أنه قد أرتشى من أصحاب محاجر (كارارا) كي يمون القبر برخامهم دون غيره من أنواع الرخام ! ..

ورغم أن التهم كانت ملفقة ، فقد أصغى اليها الرؤساء فأجبروا انجيلو على استخدام نوع آخر من الرخام يقل عن الأول في الجودة .. ومع ذلك فأنه مضى في مهمته ، شاكياً مرارة نفسه للمرمر الأخرس ، وهو ينطقه بأفصح بيان !

وهو يعطينا صورة دقيقة لشخصه في تلك الآونة – وكان في السابعة والاربعين من عمره – فيصف صورته بهذه العبارات : شعر قصير مجعد ، وجبين غضنته الآلام، وعينان مفكرتان نافذتان – لكنهما ذاهلتان – وشفتان ضيقتان

مضغوطتان ، في حزم وتحد .. ولحية قصيرة سوداء..والوجه كله يسيطر عليه الانف العريض « الأفطس » المكسور ... وهي قسمات رجـــل عرف الحزن ، والتمرد ، والسخرية ، والجمـــال ، والعناد ، والاستسلام .. قسمات شخص خرافي وقديس !

٢٣ سنة .. في نحت ضريح !

وأنفق في صنع ذلك الضريح ثلاثة وعشرين عامـــاً !.. أودى الطاعون خلالها بأخيه ، وكاد يودي به هو ... ولكن حتى في تلك الظروف « المستحيلة » أفلح الفنان في أن يفجر النار من الرخام !.. وأخـــيراً ـ في سن السبعين ـ فرغ من مهمته . وكان واحد من حراس القبر الاربعين يرمز الى شخص « موسى » ، وقد جاء تمثاله أسمى صورة لفن النحت الحديث ، فان نصف التمثال على شكل إله ، ونصفه على شكل إنسان ـ رمزاً للوثنية والمسيحية ـ وفي جبهته الضيقة قرنان . وهو يصور موسى جالساً وقد تدلت لحيته الطويلة حتى ركبتيه ، وامتدت ذراعاه العاريتان الى جانبيه ، وأمسك بيمينه القوية حجر الشريعة . أما حركة قدميه فتنم عن التـــأهب للنهوض لمخاطبة شعبه المتمرد بقوة ، وإعلانهم بأوامره ووصاياه ... وفي عينيـــه الحادتين تهديد ووعيد ، وفي شفته السفلى غضب وإنذار .. وبالاختصار فهو يرمز الى النبي الرهيب المرسل من

قبل إله غاضب ، كما يرمز الى الإدانـــة الصارمة الصادرة من الانسان الاسمى على البشر الحمقى المتوحشين ..

وفي تلك الحقبة كان ميكيل انجيلو نفسه – مثل موموس– يدين البشرية في أعماقه ، دينونة أظهرها في فنه حين عاد إلى جدران كنيسة (سستين) فرسم عليها لوحات تكميلية تمثل « يوم الدينونة الاخير » .. وقد جاءت أجساد أكثرالمخلوقات في رسمه عارية من الثياب ، فعلق كردينال من رجال الدين على ذلك بقوله : « ان هذه اللوحة تصلح لحانة ، وليس لكنيسة ! » وحين طلب البابا من أنجيلو أن يكسو أجساد العرايا أجابـه الفنان في حدة : « فليعن صاحب القداسة بـأرواح رعاياه ، ويدعني أنا أعنى بأجسادهم ! »

واللوحة تمثل حشداً كبيراً من البشر يحيطون بالمسيح،وقد بدا في هذه المرة كإله للانتقام وليس إلهاً للحب !..لقد جاء يوماً ليهدي العالم الى طريق الخير ، فنبذه العالم .. واليــوم يأتي مرة أخرى ولكن ليدين العالم ، وفي دينونته الآن لا أثر لشفقة ولا رحمة ، وإنما عدل صارم ، وجلال مهيب ، وقوة طاغية ... والعذراء تقف خلفه حزينة عاجزة ، تغض بصرها عن ابنها وهو يسوق الجماهير المذعورة إلى مقرهم الاخير ليلقوا جزاءهم : أكثرهم إلى أسفل ، حيث الجحيم .. وحفنة ضئيلة منهم الى أعلى حيث النعيم !.. وهكذا تصور اللوحة الصراع الابدي بين جهنم والفردوس ، وتلخص تاريخ الجنس البشري في صور ترمز لمصير الانسان ..

غرامه الاوحد!

فرغ انجيلو من لوحة يوم القيامة في ليلة عيد الميـــلاد من عام ١٥٤١ .. وكان قد بلغ غايته من الثراء والشهرة ، وبات موضع حسد جميع فناني العالم ، لكنه كان أبعد الناس عن السعادة ، وأقرب إلى الشقاء منه في أية فترة مضت !.. فانه كان قد دفع ضريبة طول العمر : فقد أصدقاءه واحداً بعـد واحد ، ومنهم ثلاثة فقدهم في فترة قصيرة : أحدهم فتى في الخامسة عشرة ، فنان يافع كان انجيلو المحروم من النسل قد أحبه بحنان الأب !.. وثانيهم عم ذلك الفتى وكان من أخلص المعجبين بانجيلو والمتحمسين لفنـــه . وثالثهم ، أو بالأحرى ثالثتهم وأخطرهم أثراً في فجيعة الفنان ، أمرأة ذكية جميلة تدعى (فيتوريا كولونا) ، كانت هي المرأة الوحيدة الـتي أظهرت نحو انجيلو أكثر من مجرد الأعجاب ، فتبادلا - طيلة أعوام - عواطفهما المكبوتة في باقة من الخطابات والقصائدالتي تعد اليوم من أعظم كنوز الأدب الأيطالي !. فلما انتزع الموت فجأة حلم انجيلو الوحيد الذي مناه بالحب ، وقف المفجوع بجانب جسد المرأة التي عبدها - دون أن يحتضنها قط ! - فتناول يدها الباردة وقبلها . وقد صرح فيما بعد لأحد خلصائه بقوله : « لا شيء يمضني ويحزنني أكثر من أني - حتى وهي على فراش الموت - لم أجرؤ الا على أن أقبل يدها ، دون شفتيها » .

وبموتها حرم الفنان العظيم من فرصته الوحيدة والأخيرة للسعادة الدنيوية .. وعلى أثر تلك الفجيعة انهارت صحته فرقد مريضاً أسابيع ، يتأرجح بين الحياة والموت !

لكنه أبل من مرضه ، فان رسالته لم تكن قد تمت . كان عليه أن يتحف العالم بآية أخرى من آيات فنه ، يعتبرها البعض أعظم آياته على الاطلاق !. كان في الثالثة والسبعين حين سأله لبابا أن يضع تصميم قبة جديدة لكنيسة القديس بطرس ، نرفض معتذراً بتقدمه في السن وعجزه عن الاضطلاع بمهمة طويلة مثل هذه . لكنه قبل أخيراً تحت ضغط الحاح البابا رجائه . ولم يكن يأمــــل أكثر من أن يستطيع العمل في لمشروع الجديد أشهراً معدودة.. لكن البابا الذي كلفه بتلك لمهمة مات ، ومات بعده أربعة بابوات خلفوه ، والفنان الشيخ ما يزال على قيد الحياة ، ماض في عمله !. حتى أتمه بعد ستة شر عاماً ، لم تفارقه خلالها قواه الجسمية أو العقليــــة .. أخيراً — في سن التاسعة والثمانين — استراح من عمله في ذلك صرح الفني الرائع .

لكنه لم يسترح الا لكي يبدأ عملا جديداً ، فقد قضى الأشهر لأخيرة من حياته يضع تصميم أربعة تماثيل لقبره هو وينحتها بديه .. وفي يوم ١٢ فبراير سنة ١٥٦٤ وقف على قدميه طيلة يوم ينحت الرخام بأزميله .. وبعد يومين خرج على ظهر جواده أثناء انهمار الأمطار .. وبعد أربعة أيام أخرى ، لفظ

نفسه الأخير .. وهو يحتفظ بوعيه الكامــل !. وفي لحظاته الأخيرة أعرب لقسيسه عن أسفه ، لا على أنتهاء حياته في ذاتها ، وإنما على أنه يموت وهو لم يكد يصل الى مرحلة أتقان فنه !

– تمـــت –



مذكرات الأميرة دي لامبال (تحت الطبع)
ديوان أبي نواس
البحر والقدر أرنست همنغواي
مجمع البحرين للشيخ ناصيف اليازجي
عشيق مدام ارنو جوستاف فلوبير
كولمبا ماريه (تحت الطبع)
عذاب الحب أو الحب الزوجي الهرتو مورافيا
الطفولة والصبا والشباب تولستوي
فاضح العذارى اسماعيل اليوسف
ديوان أبي تمام شرح الدكتور شاهين عطية
مراجعة العلامة بولس الموصلي
نابوليون والنساء تعريب ميشال شاهين

مطابـــع المتني

تلفون : ٢٨٣٦٣١

عنوان هذا الكتاب

عذاب الحب

أو

الحب الزوجي

من الكتاب

مراراً كان يبدو شكلها مسوداً متعفناً بالفشل الذريع. وحيناً آخر كان يبدو براقاً مغرياً يبعث الإنشراح

إلى القلوب. وكيف عندما استلقي إلى جانبها على السرير. أتأمل جسمها العاري فأطير لشدة جماله.

أعجز عن وصفه. لذا تركت هذا الوصف إلى نباهة القارئ لعله يشعر به كشعوري أنا. ماذا أقول في وصفها وهي مستلقية

على ظهرها ورأسها يغرق في الوسادة..؟ وأنا أعبث بشعرها الجميل وأبعثره وأعيد ترتيبه.

يُطلب من الجمهورية العربية السورية - دمشق (محمد حسين النوري - ص.ب ١٣٤)

يطلب من الجمهورية العراقية - بغداد - سوق السراي - دار مكتبة الثقافة العربية (عواد عبد الكاظم)

الثمن ٥ ليرات لبنانية أو ما يعادلها